النظرات(2)

النظرات(2)

مصطفى لطفى المنفلوطى

طبعة 2020م

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ،وعلامتها التجارية (شخابيط)

24 شارع غزة _ المهندسين _ الجيزة

تليفون : 01145004994 2+ _ 0233031633 2+

info@sha5abet.com

إن شركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ،وعلامتها التجارية (شخابيط)

غير مسئولة عن آراء المؤلف و أفكاره و إنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه

الغلاف: أيمن شاكر

اخراج فنى : عمرو محمد

المدير العام : د.سامح شاكر

رقم الايداع: 2019/23735

I.S.B.N 978-977-6760-82-0

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر ،وعلامتها التجارية (شخابيط) .جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

النظرات

(2)

مصطفى لطفى المنفلوطى

عن المؤلف

مصطفى لطفي المنفلوطي:

أديب مصري، ونابغة في الإنشاء والأدب، تفرد بأسلوب أدبي فذ، وصياغة عربية فريدة في غاية الجمال والروعة، تجلت في كافة مقالاته وكتبه، كما نظم الشعر في رقة وعذوبة، ويعتبر العديد من النقاد كتابيه «النظرات» و«العبرات» من أبلغ ما كُتب بالعربية في العصر الحديث.

ولد «مصطفى لطفي محمد لطفي المنفلوطي» سنة ١٨٧٦م بمدينة منفلوط إحدى مدن محافظة أسيوط، لأب مصري وأم تركية، عُرفت أسرته بالتقوى والعلم، ونبغ فيها الكثير من القضاة الشرعيون والنقباء على مدار مئتي عام.

التحق بكتَّاب القرية، فحفظ القرآن الكريم كله وهو في التاسعة من عمره، ثم أرسله أبوه إلى الجامع الأزهر بالقاهرة فظل يتلقى العلم فيه طوال عشر سنوات، حيث درس علوم العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والفقه، وشيئًا من الأدب العربي الكلاسيكي، وقد وجد في نفسه ميلًا جارفًا نحو الأدب، فأقبل يتزود من كتب التراث في العصر الذهبي، كما طالع كلاسيكيات التراث الضخمة وذات التأثير الجلي في الثقافة العربية والإسلامية مثل كتاب: الأغاني والعقد الفريد، وسواهما من كتب التراث.

لم يلبث المنفلوطي، وهو في مقتبل عمره أن اتصل بالشيخ الإمام محمد عبده، فلزم حلقته في الأزهر، واستمع لشروحاته العميقة لآيات القرآن الكريم، ومعاني الإسلام، بعيدًا عن التزمت والخرافات والأباطيل والبدع. وبعد وفاة أستاذه الإمام رجع المنفلوطي إلى بلدته، ومكث عامين متفرغًا لدراسة كتب الأدب القديم، فقرأ للجاحظ، والمتنبي، و أبي العلاء المعري وغيرهم من الأعلام، وكون لنفسه أسلوبًا خاصًّا يعتمد على شعوره وحساسية نفسه.

يتحاكى كثير من الناس بعبقريته الإنشائية، حيث كان يتمتع بحسٍّ مرهف، وذوق رفيع، وملكة فريدة في التعبير عن المعنى الإنساني من خلال اللغة، وقد أصقل هذه الموهبة بشغفه المعرفي وتحصيله الأدبي الجاد، فجاءت كتابته رفيعة الأسلوب، أصيلة البيان، فصيحة المعنى، غنية الثقافة، ندر أن نجد لها مثيلًا في الأدب العربي الحديث.

وقد صعدت روحه إلى بارئها عام ١٩٢٤م، فكان مثال هذه الروح هو بحق الوردة العطرة التي فنيت، والصخرة الجَلْدة التي بقيت.

المحتويات

الجزء الثاني

الحياة الذاتية	٢٣٣
العَبَرات	٢٣٧
دمعة على الإسلام	٢٤١
السياسة	٢٤٥
خِدَاعُ العناوين	٢٤٧
الإغراق	٢٥٣
اللقيطة	٢٥٥
الصندوق	٢٦١
الغناء العربي	٢٦٥
التوبة	٢٧٣
الحسد	٢٧٩
الوفاء	٢٨١
خبايا الزوايا	٢٨٥
الجامعة الإسلامية	٢٨٩
القِمار	٢٩٥
الأوصياء	٢٩٩
العام الجديد	٣٠٥
سحر البيان	٣٠٩
الكبرياء	٣١٧
الانتحار	٣٢١
الحياة الشعرية	٣٢٣
رباعيات الخيام	٣٢٥

المحتويات

إلى تولستوي	٣٢٩
مقدمة «مختارات المنفلوطي»	٣٣٣
وا رحمتاه!	٣٣٧
خطبة الحرب	٣٤١
الإنسانية العامة	٣٤٥
أدوار الشعر العربي	٣٤٩
حوانيت الأعراض	٣٥١
الرثاء	٣٥٥
الشعر	٣٦١
الشهيدتان	٣٦٩
الدعاء	٣٧٣
ليلة في التمثيل	٣٧٧
الكوخ والقصر	٣٧٩
على سرير الموت	٣٨١
غدر المرأة	٣٨٧
الضاد	٣٩١
سياحة في كتاب	٣٩٣
دمعة على الأدب	٣٩٧
الصحافة	٣٩٩
التماثيل	٤٠٣
مدرسة الغرام	٤٠٩
أمس واليوم	٤١٣
المرقص	٤٢١
البعث	٤٢٥
الرسائل	٤٣٩
الكلمات	٤٤٣

الجزء الثاني

الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشون في نفوس الناس أكثر مما يعيشون في نفوسهم؛ أي إنهم لا يتحركون ولا يسكنون ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون.

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضِمْنِيَّةٌ مدَّخلة في حياة الناس، فلو فتَّش عنها لا يجد لها أثرًا إلا في عيون الناظرين، أو آذان السامعين، أو أفواه المتكلمين.

يتمثَّل لي أنَّ الإنسان لو عَلِمَ أنْ سيصبح في يومٍ من أيام حياته وحيدًا في هذا العالم لا يجد بجانبه أذنًا تسمع صوته، ولا عينًا تنظر شكله، ولا لسانًا يردِّد ذكرَه، لآثَرَ الموتَ على الحياة، عَلَّهُ يجد في عالمٍ غير هذا العالم من آذان الملائكة، أو عيون الجِنَّةِ مقاعد يقتعدها، فيطيب له العيش فيها.

إذا كانت حياة كل إنسان متلاشيةً في حياة الآخرين، فأيُّ مانعٍ يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكثرة في هذا العالم حياةٌ واحدة يتَّفق جوهرها، وتتعدَّد صورها كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قِدَدًا، ونحسب كل موجة من أمواجه قسمًا من أقسامه، فإذا دنونا منه لا نرى غيره، ولا نجد لموجةٍ من أمواجه حَيزًا ثابتًا، ولا وصفًا معينًا.

لا حيَّ في هذا العالم حياةً حقيقية إلا ذلك الشاذُّ الغريب في شئونه وأطواره وآرائه وأعماله، الذي كثيرًا ما نسميه مجنونًا، فإن رضينا عنه بعض الرضا في بعض الأحايين سميناه فيلسوفًا، ونريد بذلك أنه نصف مجنون، فهو الذي يتولى شأن الإنسان وتغيير نظاماته وقوانينه، وينتقل به من حالٍ إلى حال بما يقلب من عاداته، ويحوِّل من أفكاره.

أيُّ قيمةٍ لحياة امرئ لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه، وتذليلها على الرضا بما يرضى به الناس، فيأكل ما لا يشتهي، ويَصْدِفُ نفسه عما تشتهي، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر، وينام حيث لا يطيب له المنام، ويلبس من اللباس ما يحرج

صدره، أو يقصم ظهره، ويشرب من الشراب ما يحرق أمعاءه ويأكل أحشاءه، ويقف على ما يكره، ويمشي إلى ما لا يحب، ويَضحك لما يُبكي، ويَبكي لما يُضحك، ويبتسم لعدوه، ويقطِّب في وجه صديقه، وينفق في دراسة ما يسمونه علم آداب السلوك؛ أَيْ علم الدهان والمَلَق زمنًا لو أنفق عُشْرَ مِعْشَارِه في دراسة علم من علوم الحقيقة، لكان نابغته المبرَّزَ فيه؛ حرصًا على رضاء الناس وازدلافًا إلى قلوبهم.

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس، فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كَلِفُوا بها، وما جناها عليهم إلا كلف تاركيها برضاء شاربيها. وما كان الترف خُلُقًا من الأخلاق الطبيعية للإنسان، ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فَتَتَرَّفُوا، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه وأثقال الحياة ومؤنها ما نغَّص عليهم عيشهم، وأفسد عليهم حياتهم، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب، ويعلم ما يأخذ وما يدع، يبيع منزله في نفقة المأتم، وأثاثَ منزله في نفقة العُرْسِ، فلا تجد لفعله تأويلًا إلا خوفه من سخط الناس واتقاءه مذمتهم، وكثيرًا ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الأذكياء، وأَطْفَأَ عقول العقلاء، فكم رأينا من ذكيٍّ يظلُّ طول حياته خاملًا متلففًا لا يجرؤ على إظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هُزْءِ الناس وسُخْرِهم، وعاقلٍ لا يمنعه من الإقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ونقمة الناقمين.

وما أُعجبت برجلٍ في حياتي إعجابي بأديبٍ من أدباء هذه الأمة من الذين يملئون الصدور والأسماع، يرمي بالرسالة من رسائله في الصحيفة من الصحف، ثم يمضي لسبيله قُدُمًا فلا يمشي وراءها مِشْيَةَ المتسمِّع المُتجسِّس ليعلم ما رأيُ الناس فيها، وما حديثهم عنها، وهل سخطوا عليها أو رضوا بها؟! ولا يمشي متنقلًا في المجامع والأندية سائلًا عنها كلَّ غادٍ ورائحٍ ليجد خيرًا فيضحك ويستبشر، أو شرًّا فيبكى ويبتئس؛ بل كثيرًا ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حَالَيْ رضاهم وسخطهم ساكنًا هادئًا كأنما يحدثون غيره ويعنون سواه، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين أَحْسَنْتَ وَأَجَدْتَ، وأَسَأْتَ وأَخْطَأْتَ، بل قلَّما رأيته — على كثرة لصوقي به وتفقدي مواقع سمعه وبصره — يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تُعَلِّقُهُ على آرائه في رسائله من مدحٍ أو ذم، حتى كدت أحمل تلك الحالة الغريبة من أمره على البَلَهِ والغفلة، أو العظمة والكبرياء، لولا أني فاتحته مَرَّةً في ذلك وسألته: «لم لا تحفل برأي الناس فيك؟ ولم لا تقرأ ما يكتبون عنك؟»

فأجاب: «إنني ما أقدمت على الكتابة للناس في إصلاح شئونهم، وتقويم معوجهم إلا بعد أن عرفت أني أستطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم.

والناس خاصةٌ وعامةٌ: أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم، ولا دخل لكلمةٍ من كلماتي في شأنٍ من شئونهم، فلا أفرح برضاهم ولا أجزع لسخطهم؛ لأني لم أكتب لهم، ولم أتحدَّث معهم، ولم أُشْهِدْهُمْ أمري، ولم أحضرهم عَمَلِي، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خيرٍ أو شرٍّ؛ لأني راضٍ عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها، فلا أحب أن يُكَدِّرَها عليَّ منهم مكدرٌ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي، فلا أحب أن يشككني فيها منهم مشكِّكٌ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما أستطيع أن أميز به بين مخلصهم ومَشُوبهم فأُصغي إلى الأول لأستفيدَ علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشَّه، فأنا أسير بينهم مسيرَ رجلٍ بدأ يقطع مرحلةً لا بدَّ له أن يفرغ منها في ساعة محدودة، ثم علم أنَّ على يمين الطريق الذي يسلكه روضةً تعتنق أغصانها، وتشتجر أفنانها، وتغرد أطيارها، وتتألق أزهارها، وأنَّ على يساره غابًا تزأر أسوده، وتَعْوِي ذئابه، وتَفِحُّ أفاعيه وصِلالُه، فمشى قُدُمًا لا يلتفت يمنةً مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره، ولا يسرةً مخافة أن يُهَيِّجَ بنظراته فُضولَ تلك السباع المُقْعِيَةِ، والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه.

وأما عامتهم فهم بين ذكيٍّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب ولين الوجدان ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه، فأنا أحمد الله في أمره، وضعيفٍ قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله وأستلهمه صواب الرأي فيه، حتى يجعل له من بعد عُسرٍ يُسْرًا. فأنا أكتب لا لأعجب الناس، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم: «أنت أحسنت»؛ بل لأجدَ في نفوسهم أثرًا مما كتبت، فلو أنَّ هذه العشرة الملايين التي يحتضنها هذان الجبلان أَجْمَعَتْ أمرها على الإعجاب بي والرضاء عني، ثم رأيت من بينها رجلًا واحدًا ينتفع بما أقول لكان الواحد المستفيد آثَرَ في نفسي من الملايين المعجبين.

أتدري لم عجز كُتَّاب هذه الأمة عن إصلاحها؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم تلاميذ في المداس، وأنهم جالسون بين أيدي أساتذة اللغة يتلقَّون عنهم دروس البيان، فترى الواحد منهم يكتب وهمُّه المالئُ قلبَه أن يُعجبَ اللغويين، أو يروق المنشئين، أو يطرب الأدباء، أو يُضحِكَ الظرفاء. ولا يدخل في باب أغراضه ومقاصده أن يتفقَّد المسلك الذي يريد أن يسلكه إلى قلوب الناس الذين يقولون إنه يعظهم، أو ينصح لهم،

أو يهذبهم، أو يثقفهم؛ ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم، وكيف يهجم على قلوبهم، وكيف يملك ناصية عقولهم، فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها، وعن فسادها إلى صلاحها، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الفارس الكذَّاب، الذي تراه كل يوم حاملًا سيفه إلى الجَوهريِّ يرصِّع له قبضته، أو الحداد لِيشحذَ له حَدَّه، أو الصَّيْقَلِ ليجلوَ له صفحته، ولا تراه يومًا في ساحة الحرب ضاربًا به.

قد يكون الولع برضاء الناس، والخوف من سخطهم مذهبًا من مذاهب الخير، وطريقًا من طرق الهداية للضال عنها لو أنَّ الفضيلة هي الخُلُق المنتشر فيهم والغالب على أمرهم؛ بل لو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي لا من حيث تَشَخُّصُهَا في أفعال الناس وأقوالهم، فإذا استوثق منها، وعَلِمَ أنها قد خالطت قلبه، وأخذت مُسْتَقَرَّها من نفسه جعلها ميزانًا يزن به أقواله وأفعاله كما يَزِنُ به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا يُبَالِي بعدَ ذلك أرضَوا عنه أم سخطوا عليه، أو أحبوه أم أبغضوه، فإنما يبكي على الحب النساء.

العَبَرات

كنت أغبط نفسي على التَّجَلُّدِ والصبر، وأحسبني قادرًا على الاستمساك في كل رُزْءٍ مهما جلَّ شأنه وعَظُمَ وقعه، فلما مات مصطفى كامل علمتُ أنَّ من الرزايا ما لا يُطاق تجرعه، ولا يستطاع احتماله.

كلَّ يوم نرى الموت، ولا نزال نَعُدُّ الموت غريبًا، هيهات! لا غرابة في الموت، ولكن الغريب موت الغريب.

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها، وأكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع، فلما مرت قافلة مصطفى كامل، دهشنا وجزعنا؛ لأنه كان غريبًا في حياته، فَأَحْرَى أن يكون غريبًا في مماته.

مات مصطفى كامل فعرفنا الموت، وما كنا نعرفه قبل ذلك؛ لأننا ما كنا نرى إلا أمواتًا يُنْقَلُونَ من ظهر الأرض إلى باطنها، أمَّا مصطفى كامل فكان حيًّا حياةً حقيقية، فكان موته كذلك.

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئًا إذا بذلوا لذلك الفقيد العظيم قطرةً من الدمع، أو قطرةً من المداد، فإنه كان يبذل لهم ماء حياته قطرةً قطرةً حتى أفناه ومضى لسبيله، فشتان ما بين صنيعهم وصنيعه!

أين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسَهم، أو قطرات المداد التي يُرَصِّعُ بها الكتاب أقلامهم، من قطرات الحياة التي أراقها مصطفى كامل في سبيل وطنه وأمته؟!

كان مصطفى كامل سراجًا كبير الشعلة، وكلُّ سراجٍ تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكًا، وتحترق ذبالته فينطفئ نوره.

كان مصطفى كامل نَشِطًا سريع الحركة، فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة.

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون، فلما جاء مصطفى كامل علَّمهم كيف يصيحون، فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أنَّ آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجَهْوَرِيُّ، ولولاه ما كانوا يعرفون.

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن بها، فلا يصدِّقون أنَّ تربة مصر تُنبت أمثالَ فولتير وهوجو وغاريبالدي وواشنطون، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أنَّ تربة مصر لا تختلف كثيرًا عن تربة أوروبا لو تعهدها الزارعون.

كان لمصطفى كامل أنامل أشبهَ شيءٍ بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب، وكأنما كان بينه وبينها سلكٌ كهربائيٌّ، فهي تتحرك بحركته، وتسكن بسكونه.

ما كان مصطفى كامل أذكى الناس، ولا أعلم الناس، ولا أعقل الناس، ولكنه كان أشجع الناس، كان يفكر فيقتنع، فيصمم، فيمضي، فلا ينثني حتى الموت. كان يُخطئ أحيانًا في اتخاذ الوسائل إلى آماله، ولكنه ما كان يتمهَّل كثيرًا ليتبين أيَّ طريقٍ يأخذ، ولا أيَّ مسلكٍ يسلك. مخافة أن تفتر هِمَّتُه بين الأخذ والرد، فيكون خطؤه في قعوده أكثر من خطئه في جهاده.

كان له منافسون يرمونه بالخفَّة والطيش، ويقولون له: إنك مخطئٌ أو مضرٌّ، أو غير محسنٍ، أو غير عظيم، فما كان يصدق من ذلك شيئًا، كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه وخصومه وأولياؤه أنه رجل عظيم.

ما كان مصطفى كامل من الأغنياء، ولا من بيت المُلْكِ، وما كان آمرًا ولا ناهيًا، ولا رافعًا ولا خافضًا، ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته ما لم يلقَ واحدٌ من هؤلاء، ولا فضل لهم في ذلك عليه، فهو الذي عَلَّمَهم كيف يحترمون العقول، وَيُجِلُّونَ المناقب والمزايا.

فيا أيها القارئ الكريم، إن كان لك وَلَدٌ تحب أن تجعله رجلًا، فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والإقدام.

ويا أيها المصري، كن أحرص الناس على وطنيتك، ولا تبغِ بها بدلًا من عرض الدنيا وزخرفها، فإنك إن فعلت كنت مصطفى كامل.

ويا أيها الإنسان، أقدم على عظائم الأمور ولا تلتفت يمنةً ولا يسرة، واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والمنتقدين والمتهكمين، فإنهم سيعترفون بفضلك ويُسَمُّونك عظيمًا، كما سَمَّوا مصطفى كامل.

ويا أيها الراحل المودَّع، إنَّ بين جنبيَّ لوعةً تعتلج لفراقك لا أعرف سبيلًا إلى التعبير عنها إلا القلم.

هأنذا أعالج القلم علاجًا شديدًا على أن يسعفني بحاجتي، وهأنذا أقلبه ظهرًا لبطن وأكثر من استمداده وأضغط به على القرطاس ضغطًا شديدًا، فلا أراه يغني عني شيئًا.

خطر لي أنَّ الحزن في سويداء القلب، وأنه بعيد الغور لا تبلغ إليه هذه الأداة القصيرة التي في يدي فاستبدلت بها أداةً أطول منها، فكان حكمها حكم سابقتها.

إذن كيف أعبر عن وجدي عليك أيها الفقيد الكريم، وقد خرس القلم وعي اللسان؟! الآن عرفت السبيل، ووصلت إلى ما أريد.

أنت الآن في عالم الأرواح وقد انكشف لك كل شيءٍ من أسرار القلوب ودخائل الصدور، ولا بدَّ أن يكون قد انكشف لك ما يُكِنُّ قلبي من الوجد عليك، فما حاجتي بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان.

أيها الراحل المودع: طبتَ حيًّا وميتًا، خَدَمْتَ أُمَّتَكَ في حَياتِكَ وبعد مماتك، لولا حياتك ما نَمَتِ العاطفة الوطنية في نفوس المصريين، ولولا مماتك ما عرف العالم بأجمعه أنَّ الأمة المصرية — على اختلاف مشاربها ومذاهبها — تجمعها كلمةٌ واحدة، وهي حب الوطن، وحب رجاله العاملين.

دمعة على الإسلام

كتب إليَّ كاتبٌ من علماء الهند كتابًا يقول فيه إنه اطَّلَعَ على مؤلَّفٍ ظهر حديثًا بلغة التاميل، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مِدْرَاس، موضوعه: تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني وذِكْرُ فضائله وكراماته، فرأى فيه من بين الصفات والألقاب التي وصف بها السيد عبد القادر ولُقِّبَ بها صفاتٍ وألقابًا هي أجدر بمقام الألوهية منها بمقام النبوة فضلًا عن مقام الوَلاية، كقوله: «سيد السموات والأرض»، و«النفاع الضرار»، و«المتصرف في الأكوان»، و«المُطَّلع على أسرار الخليقة»، و«محيي الموتى»، و«مُبرئ الأعمى والأبرص والأكمه»، و«أمره من أمر الله»، و«ماحي الذنوب»، و«دافع البلاء»، و«الرافع الواضع»، و«صاحب الشريعة»، و«صاحب الوجود التام» إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب.

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك المؤلَّف فصلًا يشرح فيه المؤلِّفُ الكيفية التي يجب أن يتكيَّف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني، يقول فيه:

> أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءًا سابغًا، ثم يصلي ركعتين بخضوعٍ واستحضار، ثم يتوجَّه إلى تلك الكعبة المشرَّفة، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول: يا صاحب الثَّقَلَيْنِ، أَغِثْنِي، وأَمِدَّنِي بقضاء حاجتي، وتفريج كربتي، أغثني يا محيي الدين عبد القادر، أغثني يا ولي عبد القادر، أغثني يا سلطان عبد القادر، أغثني يا بادشاه عبد القادر، أغثني يا خُوجَة عبد القادر، يا حضرةَ الْغَوْث الصَّمَدَاني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة.»

ويقول الكاتب أيضًا: «إنَّ في بلدة ناقور في الهند قبرًا يُسمى «شاه الحميد»،

وهو أحد أولاد السيد عبد القادر كما يزعمون، وإنَّ الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله، وإنَّ في كل بلدة وقرية من بلدان الهند وقراها مزارًا يُمَثِّل مزار السيد عبد القادر؛ فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد، والملجأ الذي يلجئون في حاجاتهم وشدائدهم إليه، وينفقون من الأموال على خدمته وسَدَنَتِهِ وفي موالده وحفلاته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعًا لصاروا أغنياء!

هذا ما كتبه إليَّ ذلك الكاتب، ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني، فما أُبْصِرُ مِمَّا حولي شيئًا حُزنًا وأسفًا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوامٍ أَنْكَرُوه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه، وذهبوا به مذاهب لا عهد له بها، ولا قِبَلَ له باحتمالها.

أيُّ عينٍ يجمل بها أن تستبقي من شئونها قطرةً لا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر، منظر أولئك المسلمين وهم ركعٌ سجدٌ على أعتاب قبرِ ميتٍ؟! ربما كان بينهم من هو خيرٌ منه في حياته، فَأَحْرَى أن يكون كذلك بعد مماته!

أيُّ قلب يستطيع أن يستقر بين جَنْبَيْ صاحبه ساعةً واحدة فلا يخفق وجدًا أو يطير جزعًا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر المشركين إشراكًا بالله، وأوسعهم دائرةً في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات؟!

لماذا ينقِم المسلمون التثليث من المسيحيين؟ ولماذا يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضِّغْنَ؟ وعلام يحاربونهم؟ وفيمَ يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ولم يُغْرِقُوا فيه إغراقهم؟

يَدين المسيحيون بآلهةٍ ثلاثةٍ، ولكنهم كأنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل فيجملون فيه ويقولون: إنَّ الثلاثة في حكم الواحد، أما المسلمون فيدينون بآلافٍ من الآلهة، أكثرها جذوع أشجارٍ، وجثث أمواتٍ، وقطع أحجار من حيث لا يشعرون!

كثيرًا ما يُضمر الإنسان في نفسه أمرًا وهو لا يشعر به، وكثيرًا ما تشتمل نفسه على عقيدةٍ وهو لا يحس باشتمال نفسه عليها، ولا أرى مثلًا لذلك أقرب من المسلمين الذين يلجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عَتَبَ عليهم في ذلك عاتبٌ قالوا: «إنا لا نعبدهم وإنما نتوسَّل بهم إلى الله.» كأنهم لا يشعرون أنَّ العبادة ما هم فيه، وأنَّ أكبر مظهر من مظاهر الإله المعبود أن

يقف عباده بين يديه ضارعين إليه يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمِيَّةَ، وليعتق رقابهم من رقِّ العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطانٍ بينهم سلطانٌ إلا بالحق والعدل، وقد ترك الإسلام — بسر عقيدة التوحيد — ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفةٍ وعزة وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حَدَّه في سلطانه: «لا تَغْلُ في تقدير نفسك، ولا تخرج عن دائرتك، فإنما أنت عبدٌ مخلوق لا ربٌّ معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.»

هذه صورةٌ من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد. أما اليوم، وقد دَاخَلَ عقيدتَهم ما دَاخَلَها من الشرك الباطن تارةً والظاهر أخرى، فقد ذَلَّتْ رقابُهم، وخضعت رءوسهم، وضرعت نفوسهم، وفَتَرَتْ حَمِيَّتُهُم، فَرَضُوا بِخُطَّة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

والله، لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإنَّ طلوع الشمس من مغربها وانصباب ماء النهر في منبعه أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني جَلَّ جلالُه: «أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأَرَضِين والسموات!»

إنَّ الله أَغْيَرُ على نفسه من أن يُسْعِدَ أقوامًا يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظِهْرِيًّا، فإذا نزلت بهم جائحةٌ وأَلَمَّتْ بهم مُلِمَّةٌ ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعو لهذه المُلِمَّة؟ أأدعو علماء مصر الذين يتهافتون على يوم الكَنْسَةِ تهافتَ الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة، وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام، وأَحْيَوا أبا الهدى الصَّيَّاديَّ شيخَ الطريقة الرفاعية؟ أم علماء العجم، وهم الذين يحجُّون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام؟ أم علماء الهند، وبينهم مثل مؤلِّف ذلك الكتاب؟!

يا قادة الأمة ورؤساءها، عَذَرْنَا العامة في إشراكها وفساد عقائدها وقلنا: «إنَّ العاميَّ أقصر نظرًا وأضعف إدراكًا من أن يتصوَّر الألوهية إلا إذا رآها ماثلةً في النُّصب والتماثيل والأضرحة والقبور.» فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرءون صفاتِه ونعوتَه وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾، وقوله مخاطبًا نبيه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ﴾؟

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم: «كلُّ خيرٍ في اتباع مَن سَلَفَ، وكلُّ شرٍّ في ابتداع من خَلَفَ.» فهل تعلمون أنَّ السلف الصالح كانوا يُجَصِّصُونَ قبرًا أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أنَّ أحدًا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ أو قبر أحدٍ من أصحابه وآل بيته يسأله قضاء حاجةٍ أو تفريج كربةٍ؟ وهل تعلمون أنَّ الرفاعيَّ والدسوقيَّ والجيلانيَّ والبدويَّ أكرم عند الله وأعظم وسيلةً إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أنَّ النبيَّ ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا أم مخافةَ أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأيُّ فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور ما دام كلٌّ منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد.

والله ما جَهِلْتُمْ شيئًا من هذا، ولكنكم آثرتم الدنيا على الآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاص أمركم، وسلَّط عليكم أعداءكم، يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.

السياسة

حضرة السيد الفاضل

ما لك لا تكثر من الكتابة في الشئون السياسية إكثارَك منها في الشئون الأخلاقية والاجتماعية؟ وكيف يضيق بالسياسة قلمُك وقد وَسِعَ كلَّ شيء؟ فاكتب لنا في السياسة، فَأُمَّتُكَ تحب أن تراك سياسيًّا، والسلام.

أيها الكاتب

يعلم الله أني أبغض السياسة وأهلَها بُغضي للكذب والغش والخيانة والغدر.

أنا لا أحب أن أكون سياسيًّا؛ لأني لا أحب أن أكون جلَّادًا.

لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين، إلا أنَّ هؤلاء يقتلون الأفراد، وأولئك يقتلون الأمم.

هل السياسي إلا رجلٌ عرفت أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلبًا، ولا أكثر كيدًا فنصَّبته للقضاء على الأمم الضعيفة وسلبها ما وهبها الله من الحسنات وأجزل لها من الخيرات؟

أليس أكبر السياسيين مَقَامًا وأعظمهم فخرًا وأَسْيَرُهُمْ ذِكْرًا ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها من أشلاء القتلى، ونقطها من قطرات الدماء؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيًّا إلا إذا كان كاذبًا في أقواله وأفعاله، يبطن ما لا يظهر، ويظهر ما لا يبطن، ويبسم في مواطن البكاء، ويبكي في مواطن الابتسام؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيًّا إلا إذا عرف أنَّ بين جنبيه قلبًا متحجرًا لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين؟

كثيرًا ما يسرق السارق فإذا قضى مأربه رفع يده متضرِّعًا إلى الله أن يرزقه المال حلالًا حتى لا يتناوله حرامًا، وكثيرًا ما يقتل القاتل فإذا فرغ من أمره جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثكلى على وحيدها، أما السياسي فلا يُرى يومًا في حياته أسعد من اليوم الذي يعلم فيه أنْ قد تم له تدبيره في إهلاك شعبٍ وإفقار أمة، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره — كما يسميه هو — أو في يوم جنايته — كما أسميه أنا — يسمع هتاف الهاتفين مطمئن القلب، مُثْلَجَ الصدر، حتى لَيُخَيَّل إليه أنَّ الفضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المحلِّق فرحًا وسرورًا.

يقولون: «إنَّ السياسة ليست علمًا من العلوم التي يتعلمها الإنسان في مدرسة أو يدرسها في كتاب، وإنما هي مجموعة أفكارٍ قانونها التجارب، وقاعدتها العمل.» أتدري لماذا؟

لأن العلماء أشرف من أن يدونوا المكايد والحيل في كتاب، والمدارس أجلُّ من أن تجعل بجانب دروس الأخلاق والآداب دروس الأكاذيب والأباطيل، وإلا فكل طائفةٍ من طوائف المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت قانون علمٍ يؤلفها ويجمع بين أشتاتها.

هؤلاء هم السياسيون، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم في الأعم الأغلب من شئونهم وأطوارهم، فهل تظن أيها الكاتب أنَّ رجلًا نَصَّبَ نفسَه لنصرة الحقيقة والأخذ بِضَبْعَيِ الفضيلة لاستنقاذها من بين مخالب الرذيلة، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الأخلاق، وملأ في رسائله فضاء الأرض والسماء بكاءً ونواحًا على أمته المسكينة المستضعفة — يستطيع أن يكون سياسيًّا أو محبًّا للسياسيين؟

خِدَاعُ العناوين

لقد جهل الذين قالوا: «إنَّ الكتاب يعرف بعنوانه.» فإني لم أرَ بين كتب التاريخ أكذب من كتاب «بدائع الزهور»، ولا أعذب من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب «جواهر الأدب»، ولا أرقَّ من اسمه، كما لم أرَ بين الشعراء أعذب اسمًا وأحط شعرًا من ابن مَلِيكٍ، وابن النبيه، والشاب الظريف.

لقد كثر الاختلاف بين العناوين، وبين الكتب حتى كدنا نقول: «إنَّ العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها، وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها، وإنَّ العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل.»

الأتقياء

لولا خداع العناوين ما سمينا صالحًا تقيًّا كلَّ من حرَّك سُبْحَتَهُ وأطال لحيته ووسع جُبَّتَهُ وكوَّر عِمامته، ولقد نعلم أنَّ وراء هذا العنوان الأبيض كتابًا أسود الصفحات، كثير السقطات، وأنَّ تحت هذا الستر الحريري الرقيق نفسًا سوداء مظلمة لا ينفُذ إليها شعاعٌ من أشعة الرحمة، ولا تهب عليها نسمةٌ من نسمات الإحسان.

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله أو في سبيل الجماعة من ذات نفسه أو ذات يده ما يشق على مثله الجودُ بمثله، أما الجود بالشفاه للهمهمة والأنامل للمسبحة فعملٌ لا يتكلَّف صاحبه له أكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه وتحريك هُدْبَيْهِ، وهل خلقت الشفاه إلا للتحريك، والأنامل إلا للتقليب؟

إنَّ للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فإن بذل الضنين بمالِه مالَه في مواقف الرحمة والشفقة، والشحيحُ بنفسِه نفسَه في سبيل

الذَّوْدِ عن حوضه، والذَّبِّ عن عشيرته وقومه، وضعيفُ العزيمة ما يملك من قوةٍ وأيدٍ في مغالبة شهوات النفس ومقاومة نزواتها، فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانَه رياءٌ ولا دهان، ولا يخالط يقينَه خداعٌ ولا كذبٌ، أوْ لا، فأهوِن بهمهمته ودمدمته، ومسواكه ومسبحته، وهو بعنوان المنافق الكاذب أَحْرَى منه بعنوان التقي الصالح ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

الوطنيون

كنا وكان الرجل لا يبلغ ما يشتهيه من رتبة الوطنية إلا إذا قام في أمته مقامًا محمودًا يخاطر فيه بإحدى جَوْهَرَتَيْهِ، ليدفع عنها خَطْبًا مُقبلًا، أو ينقذها من بلاءٍ محيط، فإما بلغ في هجرته الغايةَ التي يريدها، وإما هلك من دونها هلاكًا لا تؤلم نفسَه صدمتُه ولا تمرُّ بفمه غضاضته؛ لأنه مخلصٌ، وحسب المخلص جزاءً له على إخلاصه أنه وفَّى دَيْنَهُ الذي كان يُثقل ظهره وكفى، فأصبحنا وليس بين المرء وبين نَيْلِ ألقاب الوطنية الأولى وشاراتها الفُضْلَى إلا صرخةٌ عالية يصرخها في أحد المجامع، أو كلمة تافهة يكتبها في إحدى الصحف حتى تقام له الحفلات كما تقام لعظماء الرجال، وتُمدُّ إليه الأصابع كما تُمَدُّ للقُوَّاد الأبطال، وربما كانت صرخة ذلك الصارخ جِنَّةً تمثَّلت في رأسه تمثُّلَ النهيق في رأس الحمار، فلما حان حينها عطس بها في ذلك المجمع الذي صادفه في طريقه لِيُنَفِّسَ عن نَفْسِهِ، ويُفَرِّجَ من كربته. وربما كانت كلمة ذلك الكاتب نغمةً من نغمات السؤال التي يترنَّم بها المتسولون، أو رُقيةً من رُقَى المُمَخْرَقِينَ التي يهمهمون بها استنداءً للأكفِّ واستدرارًا لحسنات المحسنين.

أعجب ما يعجب له المرء في هذه الأمة أنها لا تصدِّق الرجلَ المستورَ إذا ادَّعَى على آخر بفَلْسٍ أو سحتوتٍ حتى تطالبه بالشهود العدول، والصكوك المؤكدة والأيمان المُحرِّجة، فإذا قام بين يديها من لا تعرف له عدلًا في سيرته، ولا صدقًا في قوله، ولا إخلاصًا في عمله، فادَّعى الوطنية لنفسه — والوطنية أثمن من الجوهر المنتقى واللؤلؤ المكنون — حَكَمَتْ له بصحة دعواه في قضيته حُكْمَ القضاة الظالمين بغير بينةٍ ولا يمين!

لولا خداع العناوين لوجدنا بين التجار الأمناء الذين يخدمون أمتهم بالصدق في القول والأمانة في العمل، والموظفين الشرفاء الأعِفَّاءِ الذين لا يحابون ولا يصانعون، والحكام العادلين المخلصين لله وللأمة في السر والعلن، والزارعين المستقيمين، والصناع

المُجدِّين، والأكَّارين المستضعفين، من هو أولى بلقب الوطنية من أولئك الصارخين المتهوِّسين، والكاتبين المخادعين.

الأمجاد

يقولون: «إنَّ الولد سرُّ أبيه.» ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتسم فيها صورته، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته وماهيته. وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد، فأعظموا شأن الرجل الذي يمسك بطرف سلسلةٍ في النسب يتصل أولها بعظيمٍ من عظماء النفوس، أو شريفٍ من شرفاء الأخلاق.

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ويتوسعون في معناه حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء، والظلمة الذين يسمونهم ملوكًا، والسفاحين الذين يسمونهم قُوَّادًا، واللصوص الذين يسمونهم وُجَهَاءَ، فساقهم الخطأ في فهم الشرف إلى الخطأ في فهم المجد، فسمَّوا ماجدًا كلَّ من ولد في فراش ملكٍ وإن كان الحاكمَ بأمر الله، أو أميرًا وإن كان الحجاجَ، أو وزيرًا وإن كان ابنَ الزياتِ، أو قائدًا وإن كان تيمورلنك، أو غنيًّا وإن كان قارون!

لا مجد إلا مجد العلم، ولا شرف إلا شرف التقوى، ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية البائسة رحمةً بها وحنانًا عليها.

أولئك هم الأمجاد، وأولئك الذين يفخر الفاخرون بالاتصال بهم والانتماء إليهم، وأولئك هم المفلحون.

الأغنياء

لم أرَ بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض وراء لقمةٍ يَتبلَّغون بها أو خِرْقةٍ يتقون بخيوطها البالية ما يتقون من لفحة الرمضاء، وَهَبَّةِ النكباء، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاءً ونحيبًا حول صغارٍ كفراخ القطا يَتَلَوَّوْنَ في مضاجعهم من الجوع تَلَوِّيَ الأفاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة، وتحت الشمس المحرقة، أسوأ حالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أكثر عناءً، من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس أغنياءَ.

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير، ويجلس كما يجلس، وينام كما ينام، ويتشهَّى كما يتشهَّى، حتى لتكاد تثب أمعاؤه من جوفه، وتسيل أحشاؤه من فمه شوقًا إلى ما

حَرَّمَ على نفسه من شهوات العيش وملذاته، ويَسْتَنُّ استنانَ الجواد الضامر في مَيْدَانِ السَّبْقِ وراء الدرهم البعيد منالُه حتى تنبهرَ أنفاسُه، وتَتَخَاذَلَ أَوْصَالُه، حتى لو تخيل أنَّ نجوم السماء دنانير منثورةٌ لطار إليها بغير جناحٍ فسقط هاويًا، أو أنَّ في بطن الأرض كنزًا مذخورًا لتمنى أن لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعه فأصبح من الهالكين.

الغنيُّ هو الغنيُّ بما في يده عمَّا في أيدي الناس، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مَقْنَعٌ، ولا تقف به نفسه عند مَطْمَعٍ.

فانظر تحت أيِّ عنوانٍ من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين!

المجرمون

حضرت مجلسًا من مجالس الأحكام حكم فيه قاضٍ مرتشٍ على مُتَّهَمٍ سرق رغيفًا، فوضعت يميني على فمي؛ مخافةَ أن يخرج أمر نفسي من يدي فأهتف صارخًا لما ألمَّ بقلبي من الرعب والفزع صرخةً تُدَوِّي بها جوانب القاعة دَويَّ الموج الثائر في البحر الزاخر، قائلًا: «مهلًا، رويدًا أيها الحاكم الظالم، فأنت إلى قاضٍ عادلٍ تقف بين يديه أحوجُ منك إلى كرسيٍّ فخم تجلس عليه، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماثل بين يديك لَبِتَّ وأعلاكما الأسفل!

إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين دينارًا، فلم تَرْتَشِ إلا لأنك شرهٌ طماع! وهذا السارق لم يسرق ذلك الرغيف إلا لأنه جائعٌ ملتاع، ولو ملك مما تملك ثلاثين درهمًا ما فعل فَعْلَتَهُ التي فَعلَ، فأنت مجرمٌ إلا أنك في وشاح شريفٍ، وهو شريفٌ إلا أنه في شَمْلَةِ مجرم.»

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين!

رُبَّ نفسٍ بين جدران السجون أطهر قلبًا، وأنقى رُدْنًا وأبيض عِرْضًا من مثلها بين جدران القصور، وربَّ طريدةٍ من طرائد المجتمع الإنساني ساقها المُقَدَّرُ الذي لا مفر من حكمه إلى وقفةٍ فوق أعواد المشنقة كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حبالة ماله لخراب البيوت العامرة، وإطفاء النجوم الزاهرة، أو ذلك القائد الذي يسفك في مواقفه دم مائة ألفٍ أو يزيدون في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع، والفخر الموضوع، أو ذلك السياسيُّ الذي يُدَبِّرُ المكيدة للحملة على أمة مستضعفة آمنةٍ في مرقدها سعيدةٍ في نفسها، فيستعبد أحرارها، ويَسْتَذِلُّ أعزاءها، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها، وسعادتها وهنائها.

المتمدينون

ليس بين المصريِّ وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصري، أو الرجل المتمدين إلا أن يُصْقِلَ جبهتَه، ويُصفف طُرَّتَه، ويفتح فمه للابتسام المتصنع، ويقوِّس يده للسلام المتعمَّل، ويستكثِر في حديثه من ذكر المدنية الغربية وشئونها، وسرد أسماء نسائها ورجالها، وطرفها ونوادرها، ويستحسن ما تستحسنه، وإن كان البرَازَ والانتحار، ويستطرف ما تستطرفه وإن كان الزندقة والإلحاد، وربما زاد على ذلك شيئًا من العلم بفلسفة الميكروبات، ونظرية البالونات، ثم لا يحول بعد ذلك تمدينه بينه وبين أن يكون فاسقًا ينتهك الحرمات، أو مدمنًا يترامى على أعتاب الحانات، أو أحمق لا يصفح عن ذنب ولا يصانع في هفوة، ولا يعفو عن سيئة، أو سفيهًا يشتم حتى أميره وسلطانه، ووالده وأستاذه، أو وَقاحَ الوجه لا يستحيي لمكرمة ولا يغضي لمروءة، أو شحيحًا لا يشرك صاحبه في مَطْعَمٍ ولا مَشْرَبٍ، ولا يفتح بابه لضيفٍ زائرٍ أو طارقٍ حائر.

إن كان حقًّا ما يقولون من أن التَمَدْيُنَ يُصقل الطباعَ الخشنة، ويقوِّم الألسنة المعوجَّة، ويهذب النفوس الجافية، ويوسِّع الصدور الحَرِجَة، فكثيرٌ ممن ندعوهم متمدينين متوحشون، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذَّبون.

لو كان بي أن أكتب لِمَحْوِ الفساد من المجتمع الإنساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يدًا، ولا جَرَّدْتُ قلمًا؛ لأني أعلم — كما يعلم الناس جميعًا — أنَّ طلب المحال عثرةٌ من عثرات النفوس، وضَلَّةٌ من ضلالات العقول، ولكنني أطلب مطلبًا واحدًا لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوُّره وإدراكه: أن يهذِّبوا قليلًا من هذه المصطلحات التي أنسوا بها، والعناوين التي جمدوا عليها، فلا يُسَمُّون المنافق تقيًّا، ولا المخادع وطنيًّا، ولا المتمجِّد ماجدًا، ولا البخيل غنيًّا ولا المفلوك مجرمًا، ولا المتوحش متمدينًا، حتى لا ينزع محسنٌ عن إحسانه، ولا يستمرَّ مسيءٌ في إساءته.

الإغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتًا لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

يسمع السامع أنَّ زيدًا ملكٌ كريم، ثم يسمع أنه شيطان رجيم، فيخرج منه صِفْرَ اليدين، لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين.

يقولون: «إنَّ المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس وضعوا في سقف غرفةٍ قطعةً من المغناطيس، وفي أرضها قطعة أخرى، ثم يتركون في الفضاء قطعةً من الحديد لا تزال تترجَّح بين هذين الجاذبين.»

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المُغْرِقين اضطرابَ الحديدة في أيدي المشعوذين.

الحقيقة بين الكاذب والكاذب، كالحبل بين الجاذب والجاذب، كلاهما ينتهي به الأمر إلى الانقطاع.

لو علم الذي يَنْصِبُ نفسَه للموازنة بين الأشخاص أنه جالسٌ على كرسي القضاء، وأنَّ الناس سيسألونه عما قال كما يسألون القاضي عما حكم، ما طاش سهمه في حكمه، ولا ركب متن الغُلُوِّ في تقديره.

كما أنه يجب على القاضي أن يقدِّر لكل جريمةٍ ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كلَّ شخص في المنزلة التي وَضَعَتْهُ فطرته فيها، وألا يعلو به فوق قدره، ولا ينزل به دون منزلته.

ليس بين كتَّاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ الماضي متناقضات الأحكام على الأشخاص، وليس بينهم من لم يَتَمَنَّ أن يكون في موضع أولئك المؤرخين حتى لا يغلوَ غُلُوَّهُمْ، ولا يتطرَّف تطرفَهم في أحكامهم.

أيها الكُتَّاب المحزونون، لا يحزنكم ما كان، فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الماضي فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الحاضر، كما أنَّ للماضي مُسْتَقْبَلًا وهو حاضركم هذا، فسيكون لهذا الحاضر مستقبلٌ يحاسبكم فيه رجاله على هفواتكم في أحكامكم، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غُلوِّهم في أحكامهم وتطرفهم في آرائهم.

إنَّ من التناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كل كاتب عندكم أَكْتَبُ الكُتابِ، وكلُّ شاعرٍ أشعر الشعراء، وكل مؤلِّفٍ أعلم العلماء، وكل خطيبٍ رئيس الأمة، وكل فقيه إمام الدين، فأين الفاضل والمفضول؟ وأين الرئيس والمرءوس؟ وكيف يكون زيدٌ اليوم أفضل من عمروٍ، ويكون عمروٌ غدًا أفضل منه؟ وأين ملكة التمييز التي وهبها الله لكم لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم؟ وهل بلغ التفاوت بين عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس، وفي نظر البعض الآخر شر الناس؟

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرَّدَ عن نفسي ساعةً من الزمان، فتخيلت كأني رجلٌ من رجال العصور الآتية، وأني ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأفتش فيها عن تاريخ عظيمٍ من عظماء عصركم، فقرأت ما كتبتموه عنه في مؤلفاتكم وصحفكم، فرأيته تارةً عظيمًا وأخرى حقيرًا، ومرةً شريفًا ومرة وضيعًا، ورأيته عالمًا وجاهلًا، وذكيًّا وغبيًّا، وعاقلًا وممرورًا في آنٍ واحد، فخرجتُ أَضَلَّ مما دخلت، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل؛ أي إنه ذكرٌ بالغٌ من بني آدم.

أيها القوم، إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالًا عادلين في أحكامكم وآرائكم إلا إذا أصلحتم نفوسكم قبل ذلك، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجرَّدوا عن أهوائكم وأغراضكم قبل أن تُمْسِكوا بأقلامكم.

أيها القوم، إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين فكونوا راحمين، فارحموا أنفسكم وأعفوها من الدخول في مأزقٍ أنتم عاجزون عنه، فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات، وسَئِمَتْ نفوسنا تلك المبالغات.

اللقيطة

مر عظيمٌ من عظماء هذه المدينة بِزُقَاقٍ من أَزِقَّةِ الأحياء الوطنية في ليلةٍ من ليالي الشتاء ضريرٍ نَجْمُهَا، حالكٍ ظلامُها، فرأى تحت جدارٍ متهدم فتاةً صغيرةً في الرابعةَ عَشْرَةَ من عمرها جالسةً القُرْفُصَاءَ وقد وضعتْ رأسَها بين رُكْبَتَيْهَا اتقاءً للبرد الذي كان يعبث بها عَبَثَ النَّكْبَاء بالعود، وليس في يدها ما تتقيه به إلا أسمالٌ تتراءى مِزَقُهَا فوق جسمها العاري كأنها آثار السياط فوق أجسام المستعبدين في عهود الاستبداد.

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس، وتزعج نفسَه مواقفُ الشقاء، ثم تقدَّم نحوها وهزَّ يدها برفقٍ، فرفعت رأسها مرتاعةً مذعورة، وهمَّت بالفرار من يديه وهي تصيح: «لا أعود لا أعود!» فلم يزل يمسحها ويروضها حتى هدأ رُوعها، وعاد إليها رشدها، وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه، فنظرت إليه نظرةً هادئة ساكنةً لو أنها اتصلت بلسانٍ ناطقٍ وفمٍ لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان، وأفانين الأشجان.

– «ما اسمك أيتها الفتاة؟»

– «لا أعلم يا سيدي!»

– «بماذا ينادونك؟»

– «يدعونني اللقيطة.»

– «وهل أنت لقيطةٌ كما يقولون؟!»

– «نعم يا سيدي؛ لأني لا أعرف لي أبًا ولا أمًّا في الأحياء ولا في الأموات، سوى رجل يتولَّى شأني ويضمُّني في منزله، وكنت أحسبه أبي، فيمتلئ قلبي سرورًا به وعطفًا عليه، فلما رأيت أنه يعذبني عذابًا أليمًا ويُحمِّلني من آلام الحياة وأسقامها ما لا يُحَمِّلُهُ الآباء

أبناءهم علمت أني وحيدةٌ في هذا العالم، وفهمت معنى الكلمة التي يناديني بها، فَأَلَمَّ بنفسي من الحزن والألم ما الله عالمٌ به، وكنت كلما مشيت في الطريق ورأيت فتاةً صغيرة سألتها: «ألك أمٌّ؟» فتجيبني: «نعم»، ثم تقصُّ عليَّ من قصص عطف أمها عليها ورأفتها بها ما يزيدني همًّا ويملأ قلبي يأسًا، حتى كان يُخَيَّلُ إليَّ أنني أذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنبًا عاقبني الله عليه بهذا الوجود. بيد أني صبرت على هذا الرجل، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق إبقاءً على نفسي، وضنًّا بحياتي أن تغتالها غوائل الدهر. وكان كلما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه اشتطَّ في ظلمي وَلَؤُمَ في معاملتي، حتى صار يضربني ضربًا مُبَرِّحًا كلما عدت إليه عِشاءً بأقل من الجُعْلِ الذي فرض عليَّ جَمْعَهُ في كلِّ يوم. وما زلت أصابره برهةً من الزمان حتى جاءني هذه الليلة بداهية الدَّواهي ومصيبة المصائب، فقد حاول أن يسلب من بين جنبيَّ جوهرةَ العفاف التي لم يبقَ في يديَّ ما يُعزِّيني عمَّا فقدته من هناء الحياة ونعيمها سواها، فلم أرَ لي بُدًّا من أن أَفِرَّ من بين يديه متسللةً تحت جُنْحِ الظلام من حيث لا يشعر بمكاني، وما زلت أمشي على غير هدًى لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطرَبًا حتى أويت إلى هذا الزُّقاق كما تراني، فهل لك يا سيدي أن تحسن إليَّ كما أحسن الله إليك، وأن تبتاع لي رغيفًا من الخبز أَتَبَلَّغُ به، فقد مرَّ بي يومان لم أذق فيهما طعامًا ولا شرابًا؟»

سمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة فما استقبلها إلا بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العِقْدِ وَهَى سِلْكُهُ، ثم أخذ بيدها ومشى بها صامتًا واجمًا لا يكاد يستفيق شهيقًا وزفيرًا حتى بلغ منزله، وهناك صَنَعَ بها صُنْعَ الكريم بأهله، وأبلغها من دَهْرِهَا ما لم تكن تُمَنِّي نفسها بالوشَل القليل منه، وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى ظهرت في قصر ذلك الرجل العظيم فتاةً جديدةً من أجمل الفتيات وجهًا، وأكرمهنَّ أخلاقًا، وأرقهنَّ شمائل، وأكملهنَّ آدابًا، لا يعرف عنها من عرف صاحب القصر سوى أنها ابنة قريبٍ له مات عنها، وخَلَّفَهَا يتيمةً، فكان إلى هذا القصر مصيرُها.

وكان لصاحب القصر فتاةٌ من الفتيات اللواتي رُبِّينَ التربية الحديثة التي يسمونها التربية العصرية، ويريدون منها «التربية الإفرنجية». فكان كل ما حصلت عليه من العلوم والمعارف، الفنون الآتية:

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجيِّ، وكلبها الروميِّ.
(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية.

(٣) البراعة في معرفة أيُّ الأزياء أَعْلَقُ بالقلوب وأجذب للنفوس.
(٤) الكبرياء والعظمة واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها.
(٥) الأثرة وحب الذات حبًّا يملأ قلبها غَيْرةً وحسدًا، حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفًا من أوصاف الحسن يُوصف به سواها.

رأت هذه الفتاةُ الشريفة أنَّ هذه الفتاةَ اللقيطة قد أصبحت تقاسمها قلب أبيها وقلوب الزائرات من النساء بما وهبها الله من جمال الخَلْقِ وجمال الخُلُق، فأضمرت لها في قلبها من البغض والمَوْجِدَةِ ما يُضمره أمثالُها من اللواتي رُبِّينَ ونَهَجْنَ في سبل الحياة منهجَها، فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها، وتُغْرَى بتبكيتها وتأنيبها، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاءً لسيدها ووليِّ نعمتها، وترفُّعًا عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهَنَاتِ الصغيرة، حتى حدثت ذات يوم هذه الحادثة:

دخل صاحب القصر قصره ليلةً من الليالي، فبينا هو صاعدٌ على سلم القصر إذ عثر برقعةٍ ملقاةٍ فتناولها، فقرأ هذه الكلمة:

سيدتي

أنا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السَّرْوِ المعهودة.

حبيبك

فما أتمَّ الرجل قراءة البطاقة حتى دارت به الأرض الفضاء، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم أطار أم لا يزال في مكانه، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألمَّ بنفسه من الحزن والقلق، فقال: «لعل ذلك الموعدَ مع تلك الفتاة اللقيطة، ومن الظلم أن أتهم ابنتي قبل أن أعلم الحقيقة.» فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة، فرجع أدراجه، وما زال يترفَّق في مِشيته، وينتقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة، حتى وصل إلى شجرة اللقاء، فكمن وراءها ينتظر ما خبَّأ له الدهر من حَدَثَانِهِ، وما أضمر له الغيب في طيَّاته.

لم تكن الرسالة رسالة اللقيطة الوضيعة، بل رسالة السيدة الشريفة، وبينما كانت الثانية واقفةً في غرفتها أمام مرآتها، تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بمواقف اللقاء، كانت الأولى نائمةً في غرفتها نومًا هادئًا مطمئنًّا لا تزعجه زَوْرَةُ الطيف، ولا تَرُوعُهُ أحلام

الشباب، حتى سَمِعتْ وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاسيقظت، ثم رابها مَوْقِفُهُ؛ فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كلَّ شيء، وعلمت أنَّ سيدها سيقف على سرِّ ابنته الذي كانت تعالج كِتمانه زمنًا طويلًا، وأنه لا بدَّ قاتلٌ نفسَه في ذلك الموقف حزنًا ويأسًا، فعناها من أمره ما عناها، ثم أطرقت برأسها لحظةً تتلمَّس وجه الحيلة في دفع هذه النازلة، وتطلب المخرج منها، ثم رفعت رأسها وقد قررت في نفسها أمرًا.

نزلت مسرعةً من سُلَّم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت والتفتت إليها، وقالت لها: «ماذا تريدين مني؟ أتتجسسين عليَّ؟» قالت لها: «لا يا سيدتي.» وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها، فَأُسْقِطَ في يدها، وعلمت أنَّ أباها قد وَقَفَ على سِرِّها، فقالت لها: «لا تُزْعِجي نفسَك، فإن أباك لا يعلم أيَّتنا صاحبة الكتاب، فعودي إلى غرفتك وسأذهب إلى الموعد مكانك، حتى إذا رآني هناك ذَهَبَ من نفسه ما كان يخالجها من الشك في أمرك.»

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة، وهنالك، برز الرجل من مَكْمَنِهِ واقترب منها حتى عرفها، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته، ثم قال لها:

> أيتها الفتاة إني أحسنت إليك واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فَأَسَأْتِ إليَّ بما فعلتِ حتى كدت أهلك الليلة حزنًا وغمًّا، وألصق بابنتي ذنبك، وأحمل عليها عارَك، فاخرجي من منزلي، فاللئيم ليس أهلًا للإحسان!

فخرجت خائبةً تتعثَّر في أذيالها حتى وصلت إلى شاطئ النهر، وهنالك أخرجت مذكرتها من محفظتها وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها:

> أحمد الله أني قدرت على مكافأة ذلك الرجل الذي أحسن إليَّ بستر عاره، وإزالة همه وحزنه، وافتدائه بنفسي!

ثم ألقت بنفسها في النهر، وما هي إلا دورةٌ أو دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها، فطفا منهما ما طفا، ورسب ما رسب.

وفي صباح ذلك اليوم عثر الشُّرَطُ بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها، وعادوا بها إلى منزل سيدها، فبكاها بكاءً كثيرًا، وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها، ثم أمر بدفنها، ولم يبقَ في يده من آثارها غير حقيبتها التي حفظها في صندوقه دهرًا طويلًا.

مرَّت الأيام تلوَ الأيام، وجاءت الحوادث إثر الحوادث، وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها وتهتكها واستهتارها ما لم يكن يعرفه من قبل، حتى ضاق بأمرها ذرعًا، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه ورزاياه، ثم ألمَّ به الضجر، فقام يُقَلِّبُ في صندوقه حتى عثر بتلك الحقيبة، ولم يكن قد فتحها حتى هذه الساعة. فإنه ليقرأ فيها إذ عثر بتلك الكلمة التي كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشيًّا عليه يعالج من الحزن والهمِّ ما يعالج المحتضر من سكرات الموت.

فما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم، ولبث على هذا الحال بضعة أشهر يمرض ثم يُبِلُّ، ثم يمرض ثم يُبِلُّ حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضًا لم يَنْقَضِ إلا بانقضاء أجله.

فيا أيها الوالد المجهول الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا الوجود الزاخر، أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستُبرزُ إلى هذا العالم فتاةً تلاقي من شقائه وآلامه ما لا قِبَلَ لها به، ولا لمخلوق من البشر باحتماله؟

ويا أيها الآباء العظماء، إنْ كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذه المدنية الغربية تتولى عنكم شأنهن، وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من بين جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والأنفة، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن وفجعكم في أعراضهنَّ، وقفتم أمام تلك المشاهد هادئين مطمئنين لا تتعذبون ولا تتألمون.

ويا أيها الناس جميعًا، لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأَحْسَابِ، ولا تفرقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور، ولا تعتقدوا أنَّ الفضيلة وقفٌ على الأغنياء، وحبائس على العظماء، فقد علمتم ما أضمر الدهر في صدره من رذائل الشرفاء، وفضائل اللقطاء.

الصندوق

حضرة السيد الفاضل

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوقٌ توضع فيه النذور التي يبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه، فإذا فتح ذلك الصندوق يختصُّ بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه، والباقي يوزع على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يُعَدُّونَ بالمئات، فهل ترون أنَّ هذه القسمة شرعية، مع أنَّ الذين يأخذون الألوف أغنياء، والذين يأخذون الآحاد فقراء؟! أفتنا أيها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الناس.

ابن جلا

أيها السائل

أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال، كأنك تعتقد أنه ميراث شرعي، وأنَّ لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال ما للوارثين من مال المورثين.

إنَّ الذي أعلمه أنَّ هذا الحق المزعوم حقٌّ موهومٌ، لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجهٍ من الوجوه الشرعية؛ لأن الذين يضعون المال في ذلك الصندوق وأمثاله لا يريدون أن يهبوه لأحد من سدنة ذلك الضريح أو خدمته أو أصحاب العلائق بالميت المدفون فيه، ولو أنهم أرادوا ذلك لما كان بينهم وبين هؤلاء القوم حائلٌ يمنعهم عن وضع ذلك المال

في أيديهم. ولكنهم لما تصوروا أنَّ ذلك الميت حيٌّ في قبره يسمع نجواهم ويفهم حديثهم، ويلبي دعاءهم، تَجسَّم في نظرهم هذا الخيال، فأرادوا أن يُعْطُوهُ جميع أحكام الأحياء، حتى في حب المال وادخاره، فَخُيِّلَ إليهم أنَّ الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي، فهم يهبونه المال، ويضعونه في صندوقه؛ لأنهم يعجزون عن وضعه في يده!

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال، والبحث عن مذاهبه ومراميه، فهو أمر لا يخطر على بالهم، ولا يدخل في باب مقاصدهم وأغراضهم، فإن وجد بينهم من يعلم أنَّ مرجع هذا المال الذي يضعه في الصندوق إلى سَدَنَةِ الضريح وخدمته وأشياع صاحبه، فعلمه هذا لا يستفاد منه أنه يهبه لهم أو يمنحه إياهم؛ لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم ذلك المال، أو يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي لما وسعه ذلك، ولا رأى — إن فعله — أنه عمل عملًا صالحًا، بل هو يعتقد أنَّ أخذهم المال من الصندوق أمرٌ لا علاقة له به، ولا شأن له فيه؛ لأن المال قد خرج من يده إلى صاحب الضريح، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء.

فهو في جميع حالاته وشئونه لا يهب هبةً صحيحة، ولا يتصرف تصرفًا شرعيًّا، ولا يضع صدقةً في موضعها، ولا يطرق بابًا من أبواب البر والمعروف.

وعندي أنَّ مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه إلى غير يدٍ وانقطعت ملكيته الأولى من حيث لم تقم مقامها ملكيةٌ أخرى، يعتبر مالًا مهملًا لا صاحب له، ولا علاقة لأحدٍ به.

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في مثل هذا المال أن ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها وافتتحها بأداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

فإن كان بين هؤلاء القوم المتظلمين من قلة أنصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة، فهو داخل في قسمةٍ من الآية الشريفة، فله الحق في ذلك المال من حيث كونُه فقيرًا معدمًا كعامة فقراء المسلمين، لا من حيث أنَّ له علاقةً بصاحب الضريح تُسوِّغ له أن يكون من ذوي الأنصبة في صندوقه، فإن أمثال هذه العلاقات قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى، فلا هياكلَ اليوم ولا سدنةَ، ولا وسطاءَ ولا شفعاءَ، ولا أقراطَ تعلَّق في آذان الأصنام، ولا عقودَ تقلَّد بها أعناق الأوثان، ولا مالَ يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به عندما يبدو لهم القيام من مراقدهم. وإنما الناس جميعًا سواءٌ بين يدي الله سبحانه وتعالى، لا

فضل لأحدٍ عنده على أحدٍ إلا بالتقوى، ولا زلفى لأحدٍ يزدلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه وبره وإحسانه.

ذلك ما أراه في هذه المسألة، وهذا ما أعتقده فيها، ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت، أو أغضبت، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي، وحسبي ذلك وكفى.

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان، فأبرزتها الألحان، فهو أفصح الناطقين لسانًا، وأوسعهم بيانًا، وأسرعهم نفاذًا إلى القلوب، وامتزاجًا بالنفوس، واستيلاءً على العقول، وأخذًا بمجامع الأفئدة. وبيان ذلك أنَّ النطق ثلاثُ طبقاتٍ، تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها، فأدناها النثر، وأوسطها الشعر، وأعلاها الغناء. فلو أنَّ عاشقًا برَّح به الهجر مثلًا فأراد أن يبلغك ما في نفسه من ذلك، فإن قال لك: «إني مهجور» فحسب، فقد أبلغك بعض ما في نفسه، وترك في قلبك من الأثر بمقدار ما تحملته طبقة النثر من التأثير، وإنْ أنشدك قول الشاعر:

فَوَا كَبِدَا مِنْ حُب مَنْ لا يُحبني وَمِنْ زَفراتٍ ما لَهُنَّ فَنَاءُ

أو قول الآخر:

كأن قطاةً علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال، وصور لك خواطر نفسه بصورة أوضح من الصورة الأولى، وترك في نفسك أثرًا أعظم من الأثر الأول، وإن رفع عقيرته — وكان يجيد التوقيع — يَتغنَّى بقول القائل:

وَارَ حْمَتَا للغريب بالبلد النا زحِ ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

فقد صور لك قلبه كما هو، وألمسك مواقع الآلام والأوجاع فيه، فبلغ بك التأثير منتهاه، وربما بكيتَ عند سماعه حزنًا ورحمة، وما بكيتَ إذ بكيتَ إلا لأن الغناء لم يُبْقِ بقية من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها. وكما أنَّ الأبيات قيود المعاني كذلك الألحان قيود الأبيات، فلا يزال المعنى مشردًا هاهنا وهاهنا حتى يحتويه بيتٌ من الشعر فيستقر في مكانه، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال حتى يقوده الصوت الحسن، فإذا هو مستودَعٌ في الصدور.

والغناء فنٌّ من الفنون الطبيعية تهتدي إليه الأمم بالفطرة المترنمة في هدير الحمام وخرير المياه وحفيف الأشجار، فمَن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء، ومن أطربه صوت الناعورة رنَّ رنينها ليُطرب جَمَلَهُ أو ناقته فينشطان للمسير.

وما زال هذا الفن متبدِّيًا ببداوة الأمة العربية لا يكاد يتخطَّى فيها حُداء الجِمال، ومناغاة الأطفال، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجات إلى منفسح الكماليات توسعت فيه، وزادت في أنغامه وضروبه، وتفننت في آلاته وأدواته. وكذلك كان شأن العرب في جاهليتهم، ينظمون أشعارهم على نِسَبٍ متوازية؛ فالبيت يُوازِنُ البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك. فكأنهم كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحانًا موسيقية، غير أنَّ معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى، وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرةٌ من بحر هذا الفن الزاخر. ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينها متسعٌ للبراعة في هذا الفن والتفنن في مناحيه ومقاصده.

ووفد الكثير من مُغَنِّيِّ الفرس والروم مواليَ في بيوت العرب، وفي أيديهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير يُلَحِّنُونَ بها أشعارَهم الفارسية والرومية، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحينًا بَذُّوا فيه أساتذتهم، وولَّدوا ألحانًا وأنغامًا لم يؤتِ بها مَن قبلهم، شأنهم في جميع الفنون والصنائع التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم. وظهر فيهم رجالٌ أذكياء كان لهم الفضل الباهر في تقدم الغناء واتساعه، مثل: ابن سريج، ومخارق، وطُويس، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وإبراهيم بن المهدي، ومعبد الذي طالما ضربت به وبحسن صوته الأمثالُ على

ألسنة فحول الشعراء، كقول أبي عبادة البحتري في وصف فرسٍ كان أهداه إليه أحد الأمراء:

هَزِجَ الصَّهِيلُ كأن في نبراته نغماتِ مَعبد في الثقيلِ الأول

والثقيل والخفيف الأول والثاني أسماءٌ اصطلح عليها العرب، ومرجعها إلى حركات الأصابع الخمسة في أوتار العود الخمسة شدةً وضعفًا، وما أحسن قول أبي العلاء المعري:

ولقد ذكرتك يا أميمة بعدما نزل الدليل إلى التراب يَسُوفُهُ
وهواك عندي كالغِناء لأنه حسن لدي ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضاضة الدِّين وغضارته في ذلك العهد — عهد الصدر الأول — وشدته في النهي عن التلهِّي بالغناء والعزف والزمر وأمثالها، ونعيه على من يحترف بذلك أو يتخلَّقه، فقد كان للمغنين الشأن الرفيع في مجالس الخلفاء والأمراء، والنصيب الأوفر من جوائزهم وصلاتهم. ولا غرو في ذلك، فسلطان الوجدان عندهم فوق سلطان الأديان. ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أنَّ إسحاق الموصليَّ شتم إبراهيم بن المهديِّ في حضرة أخيه الرشيد غير هيابٍ ولا وجلٍ، فما استطاع أخو الخليفة أن ينتصف لنفسه منه هيبةً وإجلالًا! وكان ابن عائشة المغني لا يغني إلا لملكٍ أو ولي عهد، حتى كان الخليفة إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب له بذلك عهدًا، بل يأذن لابن عائشة أن يغني عنده، فلا تطلع عليه الشمس حتى يفد الناس إليه يهنئونه بولاية العهد، فإن دعاه إلى الغناء لديه أميرٌ أو وزير وجد من قوة الدَّالَّة بنفسه ما يدفع به الطلب عنه. ويُروى أنَّ ابن أبي عتيقٍ — وهو من نعلم في شرف البيت وجلال المحل — رأى ابن عائشة يومًا وحَلْقُهُ مخدوشٌ فقال: «من فعل بك هذا؟» قال: «فلان»، وأشار إلى ضاربه، فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه، فلما خرج أخذ بتلبيبه وجعل يضربه ضربًا موجعًا والرجل يصيح: «أيَّ شيءٍ صنعت؟ وما ذنبي إليك؟» وهو لا يجيبه حتى بلغ منه، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه، وسألوه عن ذنبه، فقال: «إنه أراد أن يكسر مزمارًا من مزامير داود!» يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه.

ومما يُروى من حوادث تِيهِه وترفُّعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه:

أَبَعْدَكَ مَعْقِلًا أرجو وحِصنًا قَدَ اعْيَتنِي المعاقل والحصون

فأطربه، وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثيرٍ من الثياب، فبينا هو يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادي القُرى كان يشتهي الغناء، فدنا من غلامه، وقال: «من هذا الراكب المختال؟» قال: «ابن عائشة المغني.» فدنا منه، وقال: «جعلت فداءك! أنت ابن عائشة أم المؤمنين؟» قال: «لا، أنا مولى لقريش وعائشة أمي، وحسبك هذا فلا تكثر.» قال: «وما هذا الذي بين يديك؟» قال: «غنَّيت أمير المؤمنين صوتًا فأطربته، فأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة.» قال: «جعلت فداءك! هل تَمُنُّ عليَّ بأن تسمعني ما أسمعته إياه؟» فقال له: «ويلك! أَمِثْلِي يُكَلَّمُ بمثل هذا في الطريق؟!» قال: «فما أصنع؟» قال: «الْحَقْنِي إلى المنزل.» يريد مخاتلته والنجاة منه، وحرك بغلةً شقراء تحته لينقطع عنه، فعدا معه حتى وافيا المنزل كَفَرَسَيْ رِهَانٍ. ودخل ابن عائشة، فمكث طويلًا طمعًا في أن ينصرف فلم يفعل، فلما أعياه قال لغلامه: «أدخله!» فلما دخل قال له: «من أين صَبَّكَ الله عليَّ؟!» قال: «أنا رجلٌ من أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء.» قال له: «هل لك فيما هو أنفع لك منه؟» قال: «وما ذاك؟!» قال: «مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك.» فقال له: «جعلت فداءك! والله إنَّ لي لبُنَيَّةً ما في أذنها — علم الله — حلقةٌ من الوَرِقِ، وإنَّ لي لزوجةً ما عليها — يشهد الله — قميصٌ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خَلَّتي وحاجتي لكان الصوت أعجب إليَّ منه!» وما زال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعد لَأْيٍ، فطرب له الرجل طربًا شديدًا، وجعل يحرك رأسه وينطح به الجدار حتى خِيفَ أن يندقَّ عنقه، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئًا.

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدلُّ على أنَّ الغناء العربي كان قريبًا إلى القلوب، وأنه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار، فإذا لمسها رَنَّت رنين الثَّكلى المرزوءة في واحدها. وأنَّ الوجدان العربي وجدانٌ رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الأنغام، فوق ما تأخذ الكهرباء من الأجسام. كما تبلغ منه نظرات الغرام فوق ما تبلغ من عقل شاربها المُدَام. وكانت الأصوات عندهم تُنسب إلى واضعيها وتُسمى بأسماء

أصحابها — كما هو الشأن في الشعر — فيقال: صوت إسحاق، أو صوت مَعْبَد، كما يقال: شعر مسلم أو بشار. وكان المغني أحرص على صوته من الكريم على عرضه، فإذا صنع صوتًا لا يسمح لأحدٍ من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيه مرارًا وتعرف نسبته إليه، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم. وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغريبة على مخاتلة المغنين عن أصواته، حتى صنع مرة صوتًا وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعدما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علمٍ لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يُحجم إنْ رأى في صوت صاحبه مُنْتَقَدًا أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ، مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه. وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك، كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم؛ مما يدل على أنَّ الغناء العربي كان له عند العرب صبغةٌ جِدِّية، فوق صبغة اللهو، وأنَّ الغربيين في هذا العهد الأخير ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقوم على أمرها من العرب في ذلك العهد الأول. ولو أنَّ العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها، ولكنهم كانوا قلما يحفلون بإدخاله في الأغراض العالية، كالحروب ومواقف الفخر، وأمثال ذلك من المناحي والمقاصد إلا قليلًا. كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أنَّ أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم، وعلموا أنَّ سبيل الوشايات بهم إلى الرشيد سبيلٌ وعْرٌ، دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدَّت مرةً واحدةً إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامنًا في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه، فقال عند تمام الصوت: «نعم، إني عاجزٌ، إني عاجز!» ثم كان من أمره معهم بعد ذلك ما كان.

ولقد مضى الصدر الأول من الإسلام وشأن فن الغناء العربي هذا الشأن العظيم، خصوصًا في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية. ثم أخذت شمسه الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشِعرها، حتى أصبح في حضارة الأندلس

قدودًا وموشحاتٍ، بعد أن كان قصائد ومقطعات، فكان لا يسمع أبناء العرب في ذلك العهد إلا قول المغني:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر
على الصباح
ومعصم النهر في حللٍ خضرٍ
من البطاح

أو قوله:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلي واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات؛ فإنها وإن لم تكن شعرية اللفظ، فهي شعرية المعنى، عالية الخيال، وهي على علاتها خيرٌ من شعر العامة الذين قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به، كالزجل، والمواليا، والقوما، والدوبيت، وكان ويكون، وغير ذلك مما يسمى في عهدنا هذا بالأدوار، والتواشيح، والأغصان، والمذاهب، وأمثالها.

فهل لجماعة المغنين في عصرنا أنْ يعفونا من «أحب جميل طبعه الدلال.» ومن «يا حلو صن عهد ودادي الله يصونك.» ويأخذوا بنا في مسلكٍ أشرف من هذا المسلك، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول، كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر؛ فلقد كان الشعر والغناء أخوين أليفين، رَضِيعَيْ ثديٍ واحدٍ، وضَجِيعَيْ مهدٍ واحد، ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا، فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما؟ وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهدًا أن يهذبوا أخلاق أمتهم ويرفعوا شأنها، ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دَرَكِهِ الفلاسفة والحكماء؟ فينظم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، كالشجاعة، والشهامة، والشرف، وحب الوطن، والاتحاد، والتزهيد في صغائر الأمور والترغيب في عظائمها، فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها أكثر مما يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل، ثم يغنيها في الناس غير مبالٍ بما يفجؤه به ضعفاء

النفوس من العامة من الانتقاد الملازم لكل عملٍ شريف في مبدئه. وفي اعتقادي أنَّ لهذه الطريقة من الأثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم، وتقويم ألسنتهم وعقولهم، ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكرٍ في تاريخ عظماء الرجال.

التوبة

علم فلانٌ — وكان شابًّا من شبان الخلاعة واللهو، وقاضيًا من قضاة المحاكم — أنَّ المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاةٍ حسناء من ذوات الثراء والنعمة، والرفاهية والرغد، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلَّقها، فكررها أخرى، فبلغت منه، فتراسلا، ثم تزاورا، ثم افترقا، وقد ختمت روايتهما بما تُخْتَمُ به كل روايةٍ غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود.

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جانحتيها همًّا يضطرم في فؤادها، وجنينًا يضطرب في أحشائها، ولقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل، أما الثاني فسرٌّ مذاعٌ، وحديثٌ مشاع، إن اتسعت له الصدور، لا تتسع له البطون، وإن ضنَّ به اليوم لا يضنُّ به الغد.

ذلك ما أسهر ليلها، وأقضَّ مَضْجَعَهَا، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم ترَ لها بدًّا من الفرار بنفسها والنجاة بحياتها. فعمدت إلى ليلةٍ من الليالي الداجية، فلبستها وتلفَّعت بردائها، ثم رمت بنفسها في بحرها الأسود، فما زالت أمواجها تتلقَّفها وتترامى بها حتى قذفت بها إلى شاطئ الفجر، فإذا هي في غرفةٍ صغيرة في أحد المنازل البالية، في بعض الأحياء الخاملة، وإذا هي وحيدة في غرفتها، لا مؤنس لها إلا ذلك الهم المضطرم، وذلك الجنين المضطرب.

كان لها أم تحنو عليها، وتتفقد شأنها، وتجزع لجزعها، وتبكي لبكائها، ففارقتها. وكان لها أب لا هم له في حياته إلا أن يراها سعيدةً في آمالها، مغتبطةً بعيشها، فهجرت منزله. وكان لها خدمٌ يقمن عليها ويسهرن بجانبها، فأصبحت لا تسامر غير الوحدة، ولا تساهر غير الوحشة. وكان لها شرفٌ يؤنسها ويملأ قلبها غبطةً وسرورًا، ورأسها عظمة وافتخارًا، ففقدته. وكان لها أملٌ في زواجٍ سعيد من زوجٍ محبوب، فَرَزَأَتْهَا الأيام في أملها.

ذلك ما كانت تناجي نفسها به صباحها ومساءها، بكورها وأصائلها، فإذا بدا لها أن تفكر في عِلَّةِ مصائبها وسبب أحزانها، علمت أنه ذلك الفتى الذي وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها، ثم لم يفِ لها بعهده، فقذف بها وبكل ما تملك يمينها إلى هذا المصير.

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوةٍ نارٍ تتَّقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى؛ لأنه قتلها، وعلى المجتمع الإنساني؛ لأنه لا يعاقب القاتل على جُرْمِهِ ولا يَسْلُكُهُ في سلسلة المجرمين.

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض، فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خَطْبِها غيرَ عجوز من جاراتها أَلَّت بشأنها، فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات، ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد، وتعاني من صروف دهرها ما تعاني.

ولقد ضاق صدرها ذرعًا بهذا الضيف الجديد، وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قربًا إلى نفسها. فجلست ذات ليلةٍ وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها، وظلت تقول:

ليت أمي لم تلدني وليتني لم أكن شيئًا!
لولا وجودي ما سعدت، ولولا سعادتي ما شقيت.
إن كان في العالم وجودٌ أفضل منه العدم، فهو وجودي!
لقد كان لي قبل اليوم سبيلٌ إلى النجاة من الحياة، أما اليوم وقد أصبحت أمًّا فلا سبيل.
أأقتل نفسي فأقتل طفلتي؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة؟
لا أحسب الموت تاركي حتى يذهب بي إلى قبري، فماذا يكون حال طفلتي من بعدي؟!
إنها ستعيش من بعدي وتشقى في الحياة شقائي، لا لذنب جنته ولا لجريمة اجترمتها سوى أنني أمها.
هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومتي حينما تسمعين قصتي، وتفهمين شكاتي؟
لم يبقَ في يدي يا بنيتي من حُلاي إلا قليلٌ سأبيعه كما بعت سابقه، فكيف يكون شأني وشأنك بعد اليوم؟
محالٌ أن أعود إلى أبي فَأَقُصَّ عليه قصتي؛ لأنه لم يبقَ لي مما يعزيني عن

شقاء العيش وبلائه إلا أنَّ أهلي لا يعرفون شيئًا من أمري، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الأعزاء، ولأن يبكوا مماتي خيرٌ لي ولهم من أن يبكوا حياتي!»

وكذلك ظلت تلك البائسة تحدث نفسها تارةً وطفلتها أخرى بمثل هذا الحديث المحزن حتى غلبها صبرها على أمرها، فأرسلت من جفنيها قطراتٍ حارةً من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء، ويقدر عليه البؤساء.

دارت الأيام دورتها، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها وما يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حُلِيٍّ وثياب وأثاث، ولم يبقَ لها إلا قميصها الخَلَقُ وملاءتها وبرقعها، ولم يبقَ لطفلتها إلا ثيابٌ باليات تنمُّ عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة، فكانت تقضي ليلها شر قضاءٍ، حتى إذا طار غراب الليل عن مَجْثَمِهِ أسدلت برقعها على وجهها، وائتزرت بمئزرها، وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طرقها لا تبغي مقصدًا ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها، وهمها لا يزال يسايرها، ويترسَّم مواقع أقدامها.

وأحسب أنَّ عجوزًا من عجائز المواخير رأتها، فألَّت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى عادت إلى غرفتها، فوغَلت عليها، ثم سألتها ما خطبها، فأنست بها، وكذلك يأنس المصدور بنفثاته، والبائس بشكاته، فكشفت لها عن أمرها، وألقت إليها بخبيئة صدرها، ولم تترك خبرًا من أخبار نعيمها، ولا حادثًا من حوادث بؤسها لم تحدثها به. فعرفت الفاجرة محنتها، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها، وعلمت أنها إنْ أحرزتها في منزلها فقد أحرزت لنفسها غنى الدهر، وسعادة العمر. فلم ترسل إليها عقاربها وتنفث في نفسها عزائمها ورقاها حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها، فما هي إلا عشيةٌ أو ضحاها، حتى بلغت تلك الفتاة البائسة الغاية التي لا مفر لها ولا لأمثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد عيشًا أشقى من عيشها الأول في منزلها القديم؛ لأنها ما كانت تستطيع أن تزدرد لقمتها التي هي كل ما حصلت عليه في دورها الثاني إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها، وأحرقت دماغها بالسهر، وأحشاءها بالشراب, وصبرت على كل من يسوقه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم على اختلاف طباعهم، وتنوع أخلاقهم؛ لأنها لم ترَ لها بدًّا من ذلك، فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلًا.

ولو أنَّ الدهر وقف معها عند هذا الحد لَأَلِفَتِ الشقاء ومَرَنَتْ عليه، كما يألفه ويمرن عليه كل من أصيب بمثل ما أصيبت به، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة

من كئوس شقائه، فساق إليها رجلًا كان ينقم عليها شأنًا من شئون شهواته ولذاته، فزعم أنها سرقت كيس دراهمه في إحدى لياليه عندها. ورفع أمرها إلى القضاء، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وَيَنْفُسْنَ عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها.

جاء يوم الفصل في أمرها، فَسِيقَتْ إلى المحكمة، وفي يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها، فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء ويشاء له قانونه أو ذمته، حتى أتى دور الفتاة، فأدناها منه، فما وقع بصرها عليه حتى شُدِهَتْ عن نفسها وألمَّ بها من الاضطراب والحيرة ما كاد يذهب برشدها؛ ذلك أنها عرفته، إنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها، وعلة بلائها. فنظرت إليه نظرةً شزراء، ثم صرخت صرخةً دوَّى بها المكان دويًّا وقالت:

رويدك يا مولانا القاضي، ليس لك أن تكون حكمًا في قضيتي، فكلانا سارقٌ وكلانا خائنٌ، والخائن لا يقضي على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضيًا بين اللصوص!

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجرأة العجيبة، وهم أن يدعو الشُّرْطِيَّ لإخراجها، فحسرت قناعها عن وجهها، فنظر إليها نظرةً ألمَّ فيها بكل شيءٍ، فشعر بالرعدة تتمشى في أعصابه، وسكن في كرسيه سكون المُحْتَضَرِ على سرير الموت. وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت:

أنا سارقة المال، وأنت سارق العرض، والعرض أثمن من المال، فأنت أكبر مني جنايةً، وأعظم جُرمًا.

إنَّ الرجل الذي سرقت ماله يستطيع أن يعزي نفسه باسترداده أو الاعتياض عنه، أما الفتاة التي سرقتَ عِرضها فلا عزاء لها؛ لأن العِرض الذاهب لا يعود. لولاك لما سَرقتُ ولا وصلتُ إلى ما إليه وصلتُ، فاترك كرسيك لغيرك، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة، أنت مدبرها وأنا المسخَّرةُ فيها.

إنَّ شريعةً تعلم أننا شركاء في جريمةٍ واحدة ثم تأتي بنا إلى هذا المكان، فَتَقِفُ أَحَدَنا في أشرف المواقف وتَقِفُ الآخرَ في أدناها لشريعةٌ ظالمة، ليس بينها وبين العدل نسبٌ موصول، أو ذمامٌ غير منقضب.

رأيتك حين دخلت إلى هذا المكان، وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك، ويستنهض الصفوف للقيام لك، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني، فقلت: يا للعجب! كم تكذب العناوين، وكم تخدع الألقاب، وكم يعيش هذا العالم في ضلالةٍ عمياء، وجهالة جهلاء!

بَخٍ بَخٍ لأولئك القوم الذين منحوك هذه الشهادة؛ شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب! ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد، ووضعوا بين يديك هذا القانون، ووقفوا أمامك هذا الشرطيَّ يأتمر بأمرك، وينفذ حكمك، وينزل على هواك!

إنَّ تحت هذه الثياب التي تلبَسونها — معشرَ القضاة — نفوسًا ليست بأقل من نفوسنا شرًّا، ولا أخبث منها مذهبًا، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرقٌ إلا العناوين والألقاب، والشمائل والأزياء.

أتيت بي إلى هنا لتحكم عليَّ بالسجن كأن لم يَكْفِكَ ما أسلفتَ إليَّ من الشقاء حتى أردتَ أن تجيءَ بلاحقٍ لذلك السابق.

ألم أحسن إليك بساعةٍ من ساعات السرور فترعاها؟

ألم تكُ إنسانًا فترثي لشقائي وبلائي؟

إن لم تكن عندي وسيلةٌ أَمُتُّ بها إليك، فوسيلتي إليك ابنتك هذه، فهي الصلة الباقية بيني وبينك.

فرفع القاضي رأسه، ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة شفقةٍ ورحمة، وقد قرر في نفسه أن لا بد له من أن ينصف تلك البائسة، وينتصف لها من نفسه. غير أنه أراد أن يَخْلُصَ من هذا الموقف خلوصًا جميلًا، فأعلن أنَّ المرأة قد طاف بها طائفٌ من الجنون، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب، فصدق الناس قوله.

ثم قام من مجلسه بنفسٍ غير نفسه، وقلبٍ غير قلبه، وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى هجر القاضي منصبه بحجة المرض، وما زال يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته، واستخلص أمها من قرارتها، وهاجر بها إلى بلدٍ لا يعرفهما فيها أحد، فتزوج منها، وأنس بعشرتها، واحترف في دار هجرته بحرفةٍ لولا أن أدل عليه إذا ذكرتها لفعلت. ولا يزال حتى اليوم يُكَفِّر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف العطف وألوان الإحسان، حتى نسيا ما فات، ولم يبقَ أمامهما إلا ما هو آت.

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يدٍ وما أسدى إليه من نعمةٍ، لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين.

لا يزال صاحب النعمة ضالًّا عن نعمته لا يعرف لها شأنًا ولا يقيم لها وزنًا حتى يَدُلَّه الحاسد عليها بنكرانها، ويرشده إليها بتزييفها والغض منها، فهو الصديق في ثياب العدو، والمحسن في صورة المسيء.

أنا لا أعجب لشيءٍ عجبي لهذا الحاسد، يَنْقِمُ على محسوده نعم الله عليه، ويتمنى لو لم تبقَ له واحدةٌ منها، وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة وفي تلك الأمنية قد أضاف إلى نِعَمِ محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه.

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها، فإن أردت أن تزن نعمةً وافتك فارمِ بخبرها في فؤاد الحاسد، ثم خالسه نظرةً خفية، فحيث ترى الكآبة والهمَّ فهناك جمال النعمة وسناؤها.

ليس بين النعم التي يُنْعِمُ بها الله على عباده نعمةٌ أصغر شأنًا وأقلُّ خطرًا من نعمة ليس لها حاسدٌ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين، وألقها في طريق الناقمين، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها فاعلم أنهم قد منحوك لقب «المحسَّد»، فليهنأ عَيْشُكَ، وَلْيَعْذُبْ مَوْرِدُكَ!

إن أردت أن تعرف أيَّ الرجلين أفضل، فانظر إلى أكثرهما نقمةً على صاحبه وكلفًا بالغض منه والنيل من عِرْضِهِ، فاعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلهما فضلًا.

قد جعل الله لكل ذنبٍ عقوبةً آتية يتألم لها، فالشارب يتألم عند حلول مرضه، والمقامر يوم نزول فقره، والسارق يوم زيارة سجنه.

أما الحاسد فعقوبته حاضرة لا تفارقه ساعة واحدة، إنه يتألَّم لمنظر النعمة كلما رآها، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلمُّ بها إلا التنقل من مظهرٍ إلى مظهر، والتحول من موقفٍ إلى موقف، فهيهات أن يفنى ألمُه، أو ينقضي عذابه، حتى تَقَرَّ عينه التي تبصر، ويسكن قلبه الذي يخفق!

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة، ولكل داء دواء، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها. ولا أحسب أنه يُنفق من وقته وعمله في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك في الغضِّ من شأن محسوده والنيل منه، فإن كان يحسده على المال فلينظر أيَّ طريقٍ سلك إليه فيسلكه، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم، أو الأدب فليتأدب، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك، وإلا فَحسبُه أنه ملأ فراغ عمره بشئونٍ لولاها لقضاه بين الغيظ الفاتك والكمد القاتل.

الوفاء

يا صاحب النظرات

تزوجت منذ سنةٍ من زوجةٍ صالحةٍ، طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهةً من الزمان، وفي هذه الأيام عرض لها رمدٌ في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء، وأصبحت أعمى بجانبها، قد بدا لي أن أطلقها، وأتزوَّج من غيرها، فماذا تَرى؟

إنسان

أيها الإنسان لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين، وجرم الغادرين. كن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم؛ حتى تستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يُدَّخر لأمثالك من الصابرين المحسنين.

لا تقل: إنها عمياء، فلا خير لي فيها ولا غِبطة لي بها، فإنك ستجد في نفسك من لذة المروءة والإحسان والعطف والحنان ما يحسدك عليه الناعمون بالحور الحِسَانِ في مقاصير الجنان.

اجلس إليها صباحك ومساءك، وحادثها محادثة الصديق، بل الزوج لزوجه، وتلطَّف بها جهدك، وَرَوِّحْ عن نفسها ما يساورها من الكروب والأحزان، وقل لها: لا تجزعي ولا تحزني، فإنما أنا بصرك الذي به تبصرين، ويدك التي بها تبطشين.

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته، والعهد وذمامه، أن تجعل لهذا الخاطر السيئ — خاطر الطلاق أو الفراق — سبيلًا إلى نفسك، فإنها لم تُسِئْ فَتُسِيءَ إليها، ولم تنقضْ عهدك فتنقضَ عهدها، فإن كنت لا بدَّ ثائرًا لنفسك فاثأر لها من القدر إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

إنَّ عجزًا من الرجل وضعفًا أنْ يغضب فيمدَّ يده بالعقوبة إلى غير مَن أذنب إليه، ويعتدي على من لم يعتدِ عليه.

إنْ لم يكن احتفاظُك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلًا يسألك الله عنه، فليكن إحسانًا تحاسبك الإنسانية عليه.

إنك خسرت بصرها ولكنك ستربح قلبها، وحسب الإنسان من لذة العيش وهنائه في هذه الحياة قلبٌ يخفق بحبه، ولسانٌ يهتف بذكره.

إنها أسعدتك برهةً من الزمان، فليخفق قلبك حنانًا عليها بقدر ما خفق سرورًا بها.

لا أحسب أنها كانت تاركتَك، أو مغفلةً أمرَك لو أنَّ هذا السهم الذي أصابها أصابك من دونها، فاحرِص الحرصَ كله على ألا تكون امرأةٌ ضعيفةٌ أسبقَ منك إلى فضلية الصدق والوفاء.

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها؟ وأيُّ موطنٍ من المواطن هيأته لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على شئون عيشها وتأنس بها في وحشتها ووحدتها؟!

كيف يهنأ لك عيشٌ أو يغمض لك جفنٌ إذا أظلَّك الليل فذكرتها، وذكرت أنها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله، وأنها ربما كانت تطلب جرعة ماءٍ فلا تجد من يقدمها إليها، أو كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجةٍ من حاجاتها فأخطأ تقديرها فصدمها الجدار في جبينها صدمةً سال لها دمها حتى امتزج بدمعها!

أيها الإنسان، إنْ لم تكن عادلًا ولا وفيًّا ولا محسنًا، فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لا بدَّ أن سيساورك وَيَفُتُّ في عضدك ويزعجك من مرقدك، فإن لم تكن هذا ولا ذاك، فغيرَك أخاطب؛ لأني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان.

إني مُحدِّثك عن صديقٍ لي من كرام الناس وأوفيائهم، تزوج زوجة حسناء، فاغتبط بها برهةً من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجتك، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا مثل ما تترك الشمس من الشفق الأحمر في صفحة الأفق بعد غروبها. فلم يقنعه من الوفاء لها أنْ استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئًا، حتى إنه كان يعتب عليها في بعض الأحايين في ذنوبٍ ما كان له أن يؤاخذها بها إلا من حيث كونها ناظرةً مبصرة، يريد بذلك أنْ يُلقي في نفسها أنه لا يعرف من قصة نظرها شيئًا، وأنه لا يرى فيها غير ما يراه الرجال من نسائهم المبصرات، رفقًا بها وإبقاءً على ما تحب من الاعتداد بنفسها، والإدلال بمزاياها.

ولقد قرأت جملةً صالحة من نوادر العرب في آدابهم ومكارمهم وأخلاقهم، ولطف وجدانهم، فلم أرَ بينها نادرةً أعلق بالقلوب، ولا أجمل أثرًا في النفوس من قول أبي عُيَيْنَةَ الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية، وكان كفيف البصر: «اختلفت إلى القاضي أحمد بن أبي داؤد أربعين سنة، فما سمعته يقول لغلامه عند تشييعي: خذ بيده يا غلام، بل يقول: اخرج معه يا غلام.»

فإن كنت تريد أن يُسَجَّلَ لك من الوفاء في صفحات القلوب ما سُجِّل لأحمد بن أبي داؤد في صفحات التاريخ، فلا تطلق زوجتك، ولا تَنقِم منها أمرًا قد خرج حكمه من يدها، وإنْ أبيتَ إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذة العيش وهنائه، فاعلم أنه ما من لذةٍ يلذ بها الإنسان في حياته إلا ويشوبها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة الإحسان.

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق أمس على كرسيه في غرفته، ووقف عن يمينه رجلٌ من ذوي الأسنان قذر الثوب، دميم المنظر، تسنح شعراته البيض في أكناف رأسه ولحيته سنوح الشرر الأبيض في الدخان الأسود، وتتمشَّى في أديم وجهه صُفْرَةٌ مغبرةٌ، من رآها علم أنها نسيج ذلك الدخان، دخان الحشيشة الذي ينفثه من فيه في صباحه ومسائه، وغدوه ورواحه. ووقف عن يساره صبيةٌ ستةٌ نُحَّلُ الأبدان، جُوَّعُ الأكباد، لم يترك لهم الدهر — آكل البؤساء وشاربهم — إلا هياكل من عظامٍ تضطرب في رءوسها عيونٌ لا تستقر في محاجرها إلا إذا استقر الزئبق في قرارٍ مكين.

نظر إليهم قاضي التحقيق نظراتٍ تمازجها الرحمة، وتخالطها الشفقة، والقضاة لا يرحمون ولا يُشفقون لولا أنَّ من المناظر مناظر تنال من القلوب القاسية، وتستهوي الأفئدة المتحجرة. وأنشأ يسألهم واحدًا بعد واحدٍ ما شأنهم وما خطبهم وما مصيرهم. فكان جوابهم جوابًا واحدًا خلاصته أنَّ هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خَلَّتهم من حيث يخفى مكانها، فَثَغَرَ فيها ثُغْرَةً انحدر منها إلى أغراضهم، فعبث بها ما شاء وشاء العابثون. فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها، حتى إذا استنفد درتها ألحَّ على دمائها فاستنزفها. وقالوا: إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم، فإذا علم أنهم هلكوا أو كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغة أثر المضغة، ويرمِّقهم العيش ترميقًا لا إبقاء عليهم، بل على ما كان يغتنمه من بسطة العيش من ورائهم. وزعموا أنه كان يريبه منهم في بعض الأحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه، فيدخل في أدمغتهم لصًّا من دخان الحشيشة يسرق عقولهم، ويحل عقدة منعتهم، ويتركهم لا يدرون ما يأتون ولا ما يدعون.

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي، فراعه من أمرهم ما راعه، ثم علم أنه الجوع، فأمر لهم بخبز وأُدْمٍ، فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريستَه، وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر إليهم نظرةً شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده إذا أفلت من حِبالته.

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله، وحسبت أنه يحدثني عن حادثةٍ وقعت في مبدأ الخليقة في مغارةٍ من مغاور الجن، أو شَعَفَةٍ من شَعَفَات الجبال، وقلت له: «أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن إنسان؟!» فقال: «لا تعجل، فما حدثتك إلا عن رجلٍ حَمَّارٍ لا يفارق وجهه سوأة حماره ليلَه ونهارَه، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة، فكيف بك لو علمت أنَّ هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين والأساتذة والمعلمين؟!

إنَّ بين جدران هذه البِنَى التي يسمونها المدارس وقائع لا يسر منظرها، ولا يروق مخبرها، وحوداث لو تلاها التالون على مسمع الفلك الدائر، لوقف عن دورته! أو الجبل الشامخ لصعق من دهشته!

إنَّ بين هؤلاء الذين تراهم وقوفًا في أشرف المواقف بعد مواقف الرسل، والذين تُغضي بين أيديهم العيون إجلالًا وإكبارًا، وتترامى على أيديهم الأفواه لثمًا وتقبيلًا، والذين أسلمت الأمة أمر بنيها إليهم، وأخذت عليهم ما شاء الله أن تأخذ من العهود والمواثيق أن يكونوا لأولئك الأبناء آباء محسنين، وأوصياء راحمين — قومًا لصوصًا يسرقون الأعراض، وخونةً يعبثون بالأمانات، وقتلةً يفتكون بأعراض تلاميذهم، فيوردونهم موارد الحتف والهلاك، ويجعلون مصيرهم مصير أولئك الصبيان الذين فارقناهم في غرفة التحقيق.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى سُرِّيَ عن نفسي ما كنت أمسكه بين جنبيَّ من الموجدة على ذلك الرجل، وعلمت أنَّ الجناية ليست جناية الحشاشين والحمَّارين، وإنما هي جناية المربين، وجريرة المهذبين.

أساء الأب بإدخال ولده المدرسةَ، وكان خيرًا له لو أدخله المزرعة حيث لا سقوف ولا جدران، ولا خبايا ولا زوايا، ولا مكامن ولا مخادع، وحيث يجد النابت هناك من الطبيعة الطاهرة أستاذًا أمينًا مستقيمًا، لا عاهرًا ولا فاسقًا، ولا خائنًا ولا غادرًا، وحيث يرتشف من عرق جبينه نهلاتٍ بارداتٍ أصفى من المرآة وأطهر من الكوثر.

وأساء المعلم؛ لأنه هو الذي عمد إلى ذلك الصبي الطاهر فمزق عنه برقع عفافه وتصونه، ثم قذف به في ذلك المزدحم الإنساني المائج بالشرور والآثام لا يحمل في يده

سلاحًا يحارب به، ولا يعرف السبيل إلى جُنَّةٍ يدفع بها عن نفسه، فما له بدٌّ من العجز أمام القادرين، والهزيمة بين أيدي المهاجمين.

وأساء الناس جميعًا بإغفالهم أمر هؤلاء البؤساء، وإمساكهم القوت عنهم والمعونة لهم، ولو أحسنوا إليهم لأنقذوهم من حياةٍ كلها شقاءٌ وبلاءٌ، وعيبٌ وعار.

ليست مسألة خبايا الزوايا أمرًا يستهان به، فإننا نريد أن نعد لوطننا بعدنا رجالًا ذوي شجاعةٍ وجرأةٍ، وثباتٍ وإقدام، من الذين إذا عَظُمَ الخَطْبُ كانوا حُمَاة الديار، وإذا اشتدَّ البأس لا يُوَلُّونَ الأدبار.

الجامعة الإسلامية

أنا لا أحب أنْ أخدع نفسي عن نفسي، ولا أحب أنْ أخدع الناس عنها.

أنا مسلمٌ قبل كل شيء، أيْ قبل أنْ أكون وطنيًّا أو سياسيًّا أو مُجْتَمِعًا، بل قبل أن أكون نسمةً حية في هذا الوجود.

لو علمت أنَّ مآرب هذه الدنيا وأغراضها لا تُنال إلا بترك شعيرةٍ من شعائر الدين أو العبث بفريضةٍ من فرائضه لَعِفْتُهَا واجْتَوَيتُهَا، ونفضت يدي منها، وقلت لها كما قال لها علي بن أبي طالب من قبل: «إليك عني، غُرِّي غيري، ما لي بك حاجة.»

لو لم يكن في الأمر إلا أنْ أخسرَ دِيني فأربح دنياي أو أخسر دنياي فأربح ديني، لآثرت أخراهما على أولاهما؛ لأني أعلم أني إنْ خسرت ديني، فقد خسرت كل شيءٍ.

لو علمت أنَّ الوطنية — وهي أفضل ما حمل امرؤٌ بين جنبيه من خلال الخير — تعترض دون طريقي إلى آخرتي، أو تمتد حجابًا بيني وبين ربي، لخرجت منها كما أخرج من ردائي، ثم خلصت إلى شعفةٍ من شعفات الجبال، أو صخرة في منقطع العمران أخلو فيها بنفسي من حيث لا أسمع دعاءً غير دعاء القلب، ولا نداءً غير نداء الله، حتى يحين حَيني، وينقضي أجلي.

ما أبغضت في حياتي شيئًا بغضي للكذب والرياء، فإما أن أكون مسلمًا، فها هو ذا الإسلام، وهذه شروطه وقيوده، وصفاته وطبائعه، أوْ لا، أبديت للناس صفحتي، وأعلنت لهم أمرى، حتى يعلموا من أمر نفسي مثل ما أعلم منها.

أنا لا أحدث في ذلك عن نفسي خاصة، بل عن المسلم من حيث كونُه مسلمًا؛ أيْ مُصَدِّقًا بالله ورسوله، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه، معتقدًا أنَّ الحياة الدنيا معبرٌ يعبره إلى الحياة الأخرى، وأنه محاسبٌ في أخراه حسابًا غير يسيرٍ على ما فرط في أولاه، وأنَّ الله لا يقبل منه في موقف الحساب من المعاذير إلا ما رَخَّصَ له فيه، أو رفع عنه

مَئُونَتَهُ. فلا سبيل له إلا أنْ يلبَس ثوب الإسلام مَعْلَمًا، لا خائفًا ولا مترقبًا، ولا متنكرًا ولا متكتمًا، ولا محتفلًا بقول العيسوي أو الموسوي له: «أنت متعصبٌ!» ولا بقول الملحد أو الجاحد: «أنت مخرفٌ!» فهو ليس متعصبًا بل متمسكًا، ولا مخرفًا بل مستيقنًا. وأنْ يعترف به جهرةً في جميع مواطنه ومواقفه، لا مُسْتَحْيِيًا ولا خَجِلًا، قد انقضى عهد الإسرار والإخفاء من تاريخ ذلك اليوم الذي أسلم فيه عمر بن الخطاب، فمشى إلى المسجد الحرام حيث يجتمع كفار قريشٍ، وأعلن فيه إسلامه بين هياجهم ونقمتهم، ثم مرَّ يقرع أبواب رؤسائهم بابًا بابًا، فإذا فتحوا له حدثهم عن إسلامه، فضربوا الباب في وجهه غيظًا وحنقًا.

التمسك غير التعصب، والتهاون غير التسامح، فليس كل متمسكٍ متعصبًا؛ لأن التمسك محافظة المرء على العمل بأوامر الدين ونواهيه، والتعصب بغضه لمخالفيه في دينه بغضًا يحمله على محاولة النكاية بهم، والعبث بما حقن الله من دمائهم، وصان من أعراضهم وأموالهم. وليس كل متهاونٍ متسامحًا؛ لأن التهاون ترك المرء العمل بما فرض الدين عليه أن يفعل أو أن يترك، والتسامح إغضاؤه عن خلف المخالفين له، بحيث لا يعد تلك الفروق الدينية التي بينه وبينهم وسيلة إلى بغضهم، أو نصب الغوائل لهم، أو سد سبل العيش في وجوهم. ولقد اعْتَرَضْتُ الآراء والمذاهب حلوَّها ومرَّها، ومعوجَّها ومستقيمها، فلم أرَ رأيًا أضعف حجةً ولا أضل سبيلًا من رأي الذي يقول: «إنَّ الدين لا يجوز أنْ يتجاوز عتبة المسجد.» وكيف يستطيع المسلم أن ينفرد بنفسه عن دينه في موطنٍ من المواطن أو مذهبٍ من المذاهب وهو رفيق طَيَّته ولصيق نفسه، في قيامه وقعوده، ويقظته ونومه، وانفراده واجتماعه؟

ذلك أنَّ المسلم لا يستطيع ألَّا يعطف على أخيه المسلم عطفًا خاصًّا به فوق عطفه على غيره من أفراد البشر؛ لأنه مأمورٌ أن يكون منه بمنزلة اللبنة من اللبنة في البناء الواحد؛ أي أن يكون عضدًا له في شئون دينه ودنياه.

ولا يستطيع أن يسمع كلمة سوءٍ يريد بها قائلها النيل من دِينه والغض منه، دون أن يغضب لها؛ لأنه من دِينه على بينةٍ، والغضب لا يزال رذيلةً من الرذائل حتى يكون للحق، فهو أفضل الفضائل.

ولا يستطيع أن يبيع أو يبتاع، ويقرض أو يقترض، وينطق أو يصمت، ويعاشر أو يقاطع، ويوافق أو يخالف، إلا إذا نظر فيما أحل الدين من البيع وحرم من الربا، وفيما رخص للمتكلم أن ينطق به وأوجب عليه أن يُمسك عنه، وفيما شرع من معاشرة

خيار الناس ومجانبة شرارهم، وموافقة المحقين ومخالفة المبطلين. وهكذا حتى لا يخرج عنه في جميع شئونه وحالاته، سواء أكان في المسجد أو البيعة، أو المنزل أو السوق، أو المجتمعات العامة، أو الأندية الخاصة.

وكما لا يستطيع أن يخرج عن أحكام الدين في شيءٍ من هذا، كذلك لا يستطيع أن يخرج عنها في كيفية معاملة المخالفين له في الدين من الرأفة بهم، والعطف عليهم، والإحسان إليهم، ما داموا موالين له، غير خارجين عليه، ولا مادِّين إليه يد سوءٍ.

فلتنعموا أيها المسيحيون بالًا وَلِتَثْلُجُوا صدورًا، ولتعلموا أنَّ المسلم لا يستطيع أن يكون متعصبًا ما دام متمسكًا بدينه؛ لأن في تعصبه هدمًا لأعظم ركنٍ من أركان الدين الذي يتعصب له.

فإن رأيتم أنه يغضب لشتم دينه أو نبيه في صحيفةٍ تنشر في بلاده، أو يضمر في قلبه جزعًا من العهد بشئون المسلمين الدينية إلى غير مسلم، فلا تقولوا إنه متعصبٌ، وإنما هو متمسكٌ بدينه تمسككم بدينكم، ولا تطلبوا عنده أكثر مما تطلبون عند أنفسكم، وارحموه ولا تعذبوه بإدماء قلبه، وإحراج صدره، فإنه يرحمكم ولا يعذبكم.

وإنْ خُيِّلَ إليكم أنَّ في المسلمين متعصبين فاعلموا أنهم متعصبو أقوال لا متعصبو أفعالٍ؛ أي إنهم يبغضون المسيحيين ولا يقاطعونهم، ويدعون عليهم بالهلاك ولا يمدون إليهم يد سوءٍ، ويسيئون الظن بهم وهم يستعينون بهم في جميع أعمالهم، سرها وجهرها، ويتمنون لهم الخسران وهم يحمونهم مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم. فهذا التعصب — لو تبينتم — مظهرٌ من مظاهر الحماقة والبَلَه لا أثر له في نفوسهم، ولا علاقة بينه وبين تدينهم، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يشبه تعصب المعروفين بالتعصب من المسيحيين الذين يضمرون للمسلمين في قلوبهم ما تصمت عنه ألسنتهم، وتنطق به أعمالهم، فترى الواحد منهم لا يبتاع حاجته إلا من المسيحي إن كان مشتريًا، ولا يستعين على عمله إلا بالمسيحي إن كان تاجرًا أو صانعًا، ولا يوظف إلا المسيحيَّ إن كان رئيسًا في مصلحة، ولا يهتم إلا بالدفاع عن المسيحي إن كان محاميًا، ولا يرحم إلا المسيحيَّ إن كان قاضيًا.

إنَّ المسيحي الذي يقول للمسلم: أنت متعصب، قبل أن يرى في سِيمَاء وجهه أثر العداوة والبغضاء له، وإرادة الإيقاع به، لا يريد بكلمته هذه مصارحته برأيه فيه، بل خديعته عن دينه والهجوم على قلبه، والتمكن من مجالسته على مائدةٍ واحدة تختلط فيها الأيدي والأفواه، ويخطئ فيها العد، ويضيع الحساب، فيتناول منها ما لذ وحلا

ويترك له ما مر وتَفُهَ. ولقد بلغ منه في كثيرٍ من الأحيان الغرض الذي أراده، فخدع كثيرٌ من المسلمين عن دينهم، ونالت تلك المكيدة المُدَبَّرَةُ من نفوسهم، وعظم عليهم أن يسموا متعصبين، وكانوا لا يدركون فرق ما بين التمسك والتعصب، فتهاونوا في أمر دينهم وازدروه، واستحيوا من اللصوق به، والأخذ بشعائره، فأصبح الواحد منهم لا يجرؤ أن يفتتح خطابه أو كتابه أو طعامه بالبسملة، ولا يجرؤ على السلام أو رده بالصيغة المأثورة، ولا على إقامة الصلوات في أوقاتها في مجتمعٍ عام، ولا على الاعتذار عن ترك منكرٍ من المنكرات بعذر الدين، بل إنَّ فيهم من يرائي بالفسق والضلال، كما يرائي الفساق والضُّلَّل بالصلاح والتقوى، فيقيم الصلاة في بيته، ويزعم أنه تاركها، ويترك شرب الخمر تدينًا، ويزعم أنه تاركها توفيرًا لماله أو خوفًا على صحته؛ فرارًا من تهمة التعصب، أي تهمة التدين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولم أرَ في حياتي منظرًا أبرد ولا أسمج من منظر المسلم الذي يجالس المسيحي في مجتمع عام، فيقول له: «إني أحبك محبتي لنفسي؛ لأني أعتقد أنَّ كلينا يعبد إلهًا واحدًا، ويدين بدينٍ صحيح يأمر بفضائل الأعمال وينهى عن رذائلها.» وربما كان يضمر له في قلبه في تلك الساعة من العداوة والبغضاء ما لو طارت شرارةٌ منه لأحرقتهما جميعًا وتركتهما رمادًا تذروه الرياح. وعندي أنَّ الأفضل من هذا الرياء الكاذب والدهان المصنوع أنْ يقول له: «إني أعتقد صحة ديني، فلا بدَّ لي من أنْ أعتقد فساد غيره من الأديان؛ لأني لو كنت معتقدًا صحتها لتقلَّدتها وهجرتُ ديني لأجلها، وإني على ذلك لا أحمل لك في صدري ضغينةً ولا موجدةً؛ لأني أعلم أنك إنسان، وديني لا يسوغ لي أنْ أبغض أحدًا من الناس، غير أني لا أسطيع أن أحبك محبتي لأخي المسلم؛ لأني إنْ أحببت الذي يساعدني على حفظ مالي أو صيانة ولدي حبًّا جمًّا، فأَحْرَى بي أن أحب الذي يساعدني على حفظ ديني الذي هو أعز عليَّ من نفسي وولدي حبًّا لا حد له.»

إنَّ المصانعة والمجاملة في الدين ليست سبيل الاتحاد والاتفاق كما يظن الذين يصانعون ويجاملون، وما هي إلا الخداع والغش، وما علمنا أنَّ أمةً أسعدها الغش أو رفعها الخداع. وها هي ذي الجرائد المسيحية والإسلامية في مصر يفتتح أكثرها كل يوم فصول العداوة والبغضاء بعناوين المحبة والإخاء، فلم يفِ خيرها بشرها، ولا نفعها بضرها، بل السبيل إلى ذلك أن يعلم المتدين علمًا صحيحًا أنَّ الاختلاف في الدين شيءٌ، والتباغض فيه شيءٌ آخر، وأنَّ الدين الذي يسوق العالم إلى الهلاك والفناء لا يمكن أن يكون دينًا إلهيًّا.

إنَّ الإبهام والإغماض في التدين يقتل الدين في نفوس المتدينين قتلًا لا حياة له من بعده، فلا بد للمسلم من أن يكون مسلمًا في جميع حالاته وشئونه، وإسراره وإعلانه، فلا يستحيي أن يلبس عمامته في باريس كما يلبسها في مصر. وأنْ يقيم الصلاة لوقتها في قصر الفاتيكان كما يقيمها في مسجد قريته. وأنْ يترفع عن مجاراة الغربيين في عاداتهم التي يرى أنها لا تلائم دينه، فلا يشرب نخب أحدٍ من الناس وإن كان في مجلس الإمبراطور، ولا يأكل لحم الخنزير وإنْ قدمه له بيده القيصرُ، ولا يحمل بساط الرحمة في جنازة ميتٍ من الأموات وإن كان بابا رومة، ولا يحمل سلاحه راكضا إلى مقاتلة أخيه المراكشي إن كان جزائريًّا، أو المصري إن كان هنديًّا، ولو كان دون ذلك موته صبرًا، وليعلم أنَّ ذلك سبيله الذي لا سبيل له غيره إلى العظمة التي يحب أن تكون له في نفوس مخالفيه في دينه أو عاداته. وإن حاول مخادعٌ أن يخدعه عن نفسه ويلقي في رُوعه أنَّ اطِّراح المسلمين للدين وسيلة تقدمهم، كما كان اطِّراحه وسيلة تقدم المسيحيين، فليذكر دائمًا كلمة ذلك الرجل العظيم السيد جمال الدين الأفغاني في قوله: «ترك المسيحيون دينهم فتقدموا، وترك المسلمون دينهم فتأخروا!»

الجامعة الإسلامية بالنسبة للمسلم هي الجامعة الكبرى التي يجب أن يمنحها بناتِ قلبه، وجوهر لبه، قبل أن يمنح ذلك غيرها من الجوامع الأخرى، وما احتاج المسلمون إلى تلك الجامعة في دورٍ من أدوار حياتهم احتياجهم إليها في هذا العصر الذي أصبحوا فيه شتى المسالك والمذاهب بين سمع الأرض وبصرها، وأصبحوا لا موطن لهم إلا تلك البقاع المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها التي يعيشون فيها عيش الأذلاء المستضعفين، بين مهاجرٍ يأكل خبزهم، ومستعمرٍ يشرب دمهم، ومبشرٍ يفتنهم عن دينهم، أو ينغص عليهم عيشهم بمشاغبتهم ومجادلتهم، والاستهزاء بعقائدهم وشعارهم، فإن لم يتعارفوا ويتعاقدوا على التعاون والتناصر تعاقدًا يأنسون به عند اشتداد الكربة، ويفزعون إليه من كَلَبِ الزمان وغدره، كان آتيهم شرًّا من حاضرهم، كما كان حاضرهم شرًّا من ماضيهم.

أنا لا أريد بالجامعة الإسلامية أن يجتمع المسلمون على قتال المخالفين لهم في دينهم، فقد مضى زمن القتل والقتال، بل أريد أنهم إن كانوا يحتفلون بالجامعة الجنسية أو الوطنية مرة — لأنها وسيلة دنياهم — فأَحْرَى بهم أن يحتفلوا بالجامعة الدينية ألف مرة؛ لأنها وسيلة دنياهم وأخراهم، وللآخرة خيرٌ وأبقى.

القِمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعيَّ ويريدون منه جواز أن يكون الإنسان مجنونًا في بعض شئونه عاقلًا في باقيها، وعندي أنَّ الرجل إما أن يكون عاقلًا أو مجنونًا، ولا ثالث لهما.

العقل قوةٌ يقتدر بها المرء على الاستمساك في مزالق الشهوات وبين مهابِّ الأهواء، فموقفه أمامها موقفٌ واحد، فإما أن يغلبها جميعَها أو يغلبُه جميعُها.

أما ما يراه الرائي أحيانًا من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتارًا يستهلك نفسه ويستهوي عقله، وزهده في بعضها زهد الأعفَّاء المستمسكين؛ فذلك لأنه رغب في الأولى فاسترسل وراء رغبته، ولم يدعُه إلى الأخرى داعٍ من خواطر قلبه ونزوات نفسه، ولو دعاه لخفَّ إليه ولبَّاه، ولن يسمى الرجل زاهدًا أو عفيفًا إلا إذا أمسك نفسه عن شهوةٍ تدعوه إليها فيدافعها، وتتلهب بين جنبيه فيطفئها.

لا تقل: إنَّ السكير عاقلٌ إنْ رأيته غير فاسقٍ ولا عاهر، واعلم أنه لا يشتهي الفسق، ولا تجذبه إليه جواذبه، ولو اشتهاه لوقف من المواخير موقفه من الحانات. ولا تقل: إنَّ الفاسق عاقلٌ إنْ رأيته غير سارقٍ ولا مختلس؛ فإنه لا يحب السرقة ولا الاختلاس، ولو أنه أحبهما لكان في تسلق الدور والقصور أبرع منه في التسلل إلى مكامن الفسق والفجور. ولا تقل: إنَّ المقامر عاقلٌ إنْ رأيته لا شاربًا ولا فاسقًا؛ فإنَّ القِمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلةً لسواها، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين وأفسق الفاسقين.

لو كنتُ من المصانعين الذين يزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ويصبغونها من ألوان التعليل، لما

استطعت أن أصانع المقامر؛ لأن حاله من الجهل الفاضح والغباوة المستحكمة أبعد الحالات عن عذر المعتذرين، وتأويل المتأولين.

أيُّ عذرٍ يعتذر به المعتذر عن رجلٍ يريد أن يمشي في طريق الغنى، فيمشي في طريق الفقر؟ والطريقان واضحان مَعْلَمَانِ لا غموض فيهما ولا إبهام.

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار إلا بعد أن استقرَّ في نفسه أنَّ الدرهم الذي في يده سيتحول بعد برهةٍ من الزمان إلى دينارٍ يعود به إلى أهله فَرِحًا مغتبطًا، وأحسب أنَّ العقول العشرة مجتمعةً ومتفرقةً تعجز عن إدراك سر هذه العقيدة ومثارها.

إن كان يؤمل الربح لأنه رأى عن يمينه رجلًا قد ربح، فَلِمَ لا يخاف الخسران لأنه رأى عن يساره مائةً خاسرين؟! وإن كان يضحكه منظر الربح لأنه رأى في بعض مواقفه أحد الرابحين مبتسمًا، فلمَ لا يبكيه منظر أصدقائه ورفقائه الخاسرين وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود الحرب بين يدي القذائف؟

ما أشبهَ المقامرَ الذي يطلب من الدينار الواحد مائةً بالكيماويِّ الذي يطلب من القصدير فضةً، ومن النُّحاس ذهبًا! كلاهما يتاجر بالأحلام في سوق الأوهام، فيربح ربحًا مقلوبًا، ويكسب كسبًا معكوسًا، وما أشبههما جميعًا بذلك الرجل الذي علم أنَّ في صحراء من صحاري إفريقية كنزًا دفينًا لا تعرف له بقعةٌ، وليس عليه دليلٌ، فحمل فأسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفد قوته وتستهلك مُنَّتَهُ، وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ منها كر الغداة ومر العشي، حتى إذا بلغ مستقرها وعلم أنه لم يعثر بضالته تركها، وبدأ يحفر غيرها بجانبها، فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأولى، وهكذا حتى أدركه الموت وهو في بعض تلك الحفر، فكان هو نفسه الكنز الدفين في تلك الصحراء، إلا أنه كنزٌ لا يطمع فيه طامعٌ ولا يرغب فيه راغب!

إن كنت تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتَلاقي الضدين، فاعلم أنَّ المقامر في آنٍ واحدٍ أجشع الناس وأزهد الناس؛ فلولا حبه المالَ لما هان عليه أن يبذل راحته وشرفه وحياته في سبيله، ولولا زهده فيه لما أقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغايةٍ يطلبها، ولا لمأربٍ يسعى إليه.

أنا لا أريد أن أنصح إلى المقامر بترك القِمار؛ لأني أعتقد أنَّ من يملك عقلًا مثل عقله وفهمًا مثل فهمه لا يستطيع أن يفهم كلمةً مما أقول. مَن عجزت حوادث الدهر وعبر الأيام عن أن ترد عليه ضالَّة عقله وتهديه السبيل إلى نفسه فلن تنفعه كلمة كاتبٍ، ولا موعظة خاطبٍ. وإنما أريد أن أقول للذين لم يخطوا خطوة واحدة في هذا الطريق الوعر

حتى اليوم: «لا تقامروا جِدًّا ولا هزلًا، فإن هزل القمار يجرُّ إلى جِدِّه، ولا تمروا بمعاهد القمار، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولا تصاحبوا المقامرين فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا مِلَّتَهُمْ، فإن فعلتم خَسِرتم مالكم وشرفكم وعزيمتكم وحياتكم، من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوض عليكم ما خسرتم، فارحموا أنفسكم إن كنتم راحمين، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين.

الأوصياء

مرض فلانٌ مرض الموت، فلم يحفل بِالمَنِيَّةِ؛ لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها، ولأن الثمانين قد ألحَّت عليه بصبحها ومسائها وليلها ونهارها، فلم تترك له خيطًا من خيوط الأمل ولا شعاعًا من أشعة الرجاء، لولا أنَّ بين يديه ولدًا صغيرًا في السابعة من عمره قد ماتت أمه من عهد قريب، وللشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حنينُ الإبل إلى أعطانها، فنظر إليه وهو يحوم حول فراشه نظرةً طويلةً لم يسترجعها إلا مبللةً بالدمع المنسجم، ثم زفر زفرة شديدة خُيِّلَ لرائيها أنها الزفرة الأخيرة، وأنشأ يقول:

أيْ بُنَيَّ، مَن لي بقلبٍ يرعاك مثل قلبي، وعينٍ تسهر عليك مثل عيني، وروحٍ ترفرف فوق رأسك مثل روحي، ونفسٍ تضم جوانحها عليك مثل نفسي؟!

أيْ بُنَيَّ، كأني بركب الموت وقد نزل بي وحلَّ بساحتي، وكأني به وقد احتملني من فضاء القصر إلى مضيق القبر، ومن نور الحياة إلى ظلمة الموت، وكأني بك وقد طفقت تَنْشُدُني فلا تجدني، وتفتش عني فلا تراني، ففزعت وارتعت، ثم صرخت فصعقت، فلم تجد بجانبك من يمسح دمعك، ويخفف حزنك.

من لي بصديقٍ أثق بوده وإخلاصه ورحمته وحنانه، فَأَكِلُ إليه أمرك، وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يأنس به ويستخلصه لنفسه، وقد سمع آخر نجواه، فقال له: «هون عليك أيها الصديق، فأنا صديقك الذي

تَنْشُدُه، وأنا والد ولدك من بعدك، وخليفتك بعد الله عليه.» ثم ترامى على فراشه يبكي لبكائه، وينشج لنشيجه. فاستنار قلبه بنور الأمل، وقال: «أحمدك اللهم فقد رحمت ولدي، وحفظت بيتي.»

وما هي إلا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده، ثم أجاب دعوة ربه تاركًا في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه وماله وولده.

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقًا له في العامين الأخيرين من أعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف إليه ويطيل اللبث بجانبه، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه، ويخفُّ لقضاء حاجاته ولُبَانَاتِه. ذلك إلى ما كان يراه مُتَجمِّلًا به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات، والتسبيحات المتواليات، وعفةٍ حتى عن لقمةٍ من الزاد يصيبها على مائدته، وتورُّعٍ حتى عن جرعةٍ من الماء يتجرعها في حضرته، فاستخلصه لنفسه، وأنزله من قلبه المنزلة التي لا يجاوره فيها غير ولده، وأصبح آثر الناس عنده، حتى لا يستطيع فراقه لحظةً، ولا يصبر عنه ساعةً، إلى أن أحس باقتراب الأجل، فأوصاه بما أوصى، وعهد إليه بما عهد.

هذا تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ، أما تاريخه بعد مماته، فَسَأُسْمِعُكَ منه ما تهوي له الأفلاك عجبًا وتخرُّ له الجبال هدًّا.

لم تكن صلاته إلا رياءً ونفاقًا، وركوعه وسجوده إلا كيدًا ودهانًا، وعفته وزهادته إلا حِبالةً نصبها لِيَعْلَقَ بها عقل الشيخ وقد علق، فيسلبه ماله وولده وقد فعل. وما كان اختلافه إليه ولا تردده عليه إلا طمعًا في هذا المصير الذي صار إليه، فلما علم أنْ قد تم له من أمره ما أراد، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود، ويبتاع به لنفسه ما شاء الله أن يبتاع من قصورٍ ودورٍ وبساتين وضياع، فَنَبُهَ ذكرُه بعدما كان خاملًا، ونبت ريشه بعدما كان عاريًا، وأصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يُذِلُّ من يشاء ويُعِزُّ من يشاء.

أما شأنه مع الولد، فقد علم أنه سيبلغ عما قليلٍ أشده، ويملك رشده، وأنه سيقطع عليه لذته، ويقف له موقف المعترض سبيله، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم يرَ له بدًّا من أن يعد لذلك اليوم عدَّته، فعمد إلى الولد فقطعه عن المدرسة؛ لأنه لا يحب أن ينشأ متعلمًا. ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الشراب؛ لأنه لا يحب أن ينشأ عاقلًا، وما زال يُنْفِقُ عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجابٍ، حتى عَلِقَ برأسه الشراب علوق السلاسل بالصدور، فأصبح بين الحانات والمواخير كالطائر بين أغصان الأشجار لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقًا.

فكأنما وَكَّلَ بعقله مقراضًا يقرض له كل يومٍ منه قطعةً حتى كاد يأتي عليه، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصيُّ على القاصر قَيِّمًا على المعتوه. ولم يبذل في سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لُقَيْمَاتٍ ألقاها من فتات تلك المائدة إلى المجلس الحسبيِّ، فأدخله تلك الجنة الزاهرة بغير حسابٍ ولا عقاب.

شرع الله شريعة الحَجْرِ على السفهاء والمعتوهين، وإقامة القوام عليهم رحمةً بهم، فاستحالت على يد المجالس الحِسْبِيَّةِ نقمةً عليهم، وأصبح اللص الذي لا يحسن صناعة فتح الأقفال، ويتقي مغبَّة تسلق الجدران قادرًا على أن يسرق ما يشاء حينما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن الوقوف أمام محكمة الجنايات، وجرِّ الأثقال في غيابات السجون. وانتقلت الثروات العظيمة من أيدي أصحابها؛ مخافةَ أن يسرفوا فيها، إلى أيدي آخرين يبددونها تبديدًا، ويمزقون أديمَها تمزيقًا، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسبٍ أو وشيجة رحمٍ، حتى أصبح السعي في جمع المال في هذا العصر وادخاره للوارثين عملًا من الأعمال الباطلة، وضربًا من ضروب الجهل الفاضح، فَمَنْ لِي إنْ أنا دبَّرت المال وجمعته ألا يكون وارثي فيه من بعدي لصًّا من أولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي أن أعيش إلى أنْ أدرك ولدي فأتولى أمر تربيته بنفسي قبل أن يظفر به في حداثته ظفرٌ جارحٌ من أظفار الأوصياء فيميت نفسه ويقتل عقله ويفسد عليه شأن حياته، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها، ويزعج عظامي في مرقدها؟

فلقد حدثني من قصَّ عليَّ تلك القصة الماضية أنَّ ذلك الوصيَّ لما علم أن قد تم له من الحَجْرِ على ذلك الغلام ما أراد، عَمِدَ إلى تزويجه من فتاةٍ حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أنَّ له في ذلك مأربًا من المآرب الفاسدة. فما كادت تخلع العروس خلعة عرسها حتى أنشأ يختلف إليها، ويكثر من زيارتها في الجناح الذي تسكنه في القصر بما له عليها من حق الولايه والرعاية والنظر في شئونها ومرافقها. ثم ما زال يَخْتِلُهَا عن نفسها، ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بحبالته كما علق بها غيرها من قبلها؛ فَفَرِكَتْ زوجَها، وبرِمت به، فرابه من أمرها ما رابه، فرصدها حتى عرف موطن سرها وموقع هواها، فشكا فلم يجد راحمًا، فكان يقضي كثيرًا من لياليه في غرفةٍ من غرف القصر واجمًا مطرقًا، مسلمًا رأسه إلى ركبتيه ودمعه إلى خديه، لا سمير له ولا مؤنس إلا نغمات الضحكات التي كان يسمعها في غرفة زوجته، فتارةً يَثِبُ وثبة الأسد، فيثير في القصر ثائرةً شعواء تضج لها جوانبه، فيتسارع إليه الخدم

فيضربون على يده وفمه بأمر سيدهم، وأخرى يعود إليه بَلَهُهُ فينظر إلى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب.

مَرَّتْ على تلك الحوادث سنواتٌ عديدة استأثر فيها ذلك الوصيُّ بتلك الدائرة الواسعة، وألحَّ عليها بِكَلْكَلِهِ حتى اجتزَّ وَبَرَها، ثم استكشط جلدها، فلم يبقَ منها إلا هيكل العظام. وعلم أن قامت قيامة الناس عليه، وأنَّ قصَّته مع زوجة الغلام وماله قد ملأت مسمع الخافقين، وأنَّ نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول، عمد إلى حيلةٍ شيطانية ختم بها تلك الرواية بمثل ما تختم به الروايات المحزنة.

تفتَّح للغلام بعد انقباضه، وابتسم إليه بعد تقطيبه، وابتاع له ما اقترحه عليه من ثوبٍ فاخر، ومركبٍ فارهٍ، ومزاهر وعيدان، وكئوس ودنان. ثم خلا به في ساعةٍ من ساعات نشوته وارتياحه، فقال له: «أيها الصديق قد آن أوان قيامك بشأنك وانفرادك بأمرك، فَاكْتُبْ إلى المجلس الحِسْبيِّ رقعةً تطلب فيها رفع الحَجْرِ عنك، واكتب توقيعك على هذه الجريدة؛ جريدة الحساب.» فداخل الغلامَ من السرور والغبطة ما طار بِلُبِّهِ، فكتب الأولى ووقع الأخرى، ثم أوعز الوصيُّ إلى المجلس الحِسْبِيِّ بتلبية طلبه، فلبَّاه وقضى برفع الحَجْرِ عنه، فاستقبل الغلام تلك النعمة استقبال الظامئ كأسَ الشراب. وكان لا بدَّ له من أن يشرب حتى يَبْشَمَ، ففتش بين يديه عن مالٍ ينفقه، فلم يجده. وكان الرجل قد وكَّل به عونًا من أعوانه يداخله، ويتحين فرصة حاجته إلى المال فيمتحه، فكان يعطيه باليمين، ويأخذ منه صكَّ البيع باليسار. فما زال هذا يعطي وذاك يأخذ، حتى أصبح نصف تلك الدائرة بعد عامين اثنين مِلْكًا لِعَوْنِ الوصيِّ اليوم، وللوصِيِّ غدًا بثمنٍ لا يساوي عشر مِعْشَارِها، بل بغير ثمنٍ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها وأنفق عليها إلا ثمرتها؟!

هنالك قام الوصيُّ وقعد ونادى في الناس بصوتٍ يشبه صوت الحق، ونغمة تشاكل نغمة الصدق: «أيها الناس قد كنت أنذرتكم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه، فكذبتم قولي وفَنَّدْتُم رأيي، وما زلتم تقولون كَيْتَ وكَيْتَ، حتى أحرجتم صدري ودفعتموني إلى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليَّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولَدِهِ من بعده، وألا أتخلَّى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها، فها أنتم أولاء ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم!»

ثم أعاد كَرَّتَهُ على الغلام، وسعى سعيه في المجلس الحسبيِّ، فأعاده سيرته الأولى، ووضع في عنقه غُلًّا لا فكاك له من بعده إلى يوم يبعثون.

ليت شعري! هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده، وأن المال قد ورثه غَيْرُ وارثه، واستأثر به غير صاحبه، وأن الولد قد أصبح — بعد ذلك

المُلْكِ الكبير، والجنة والحرير — يطلب المضغة فَتُعْوِزُه، والجرعة فتتعذر عليه، وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مُطَّرِحًا في زاويةٍ من زوايا الحانات، لا وِطَاء غير أديم التراب، ولا غطاء غير قطع السحاب؟! وهل أعدَّ عُدَّته للوقوف بين يدي الله في ذلك اليوم المشهود، يوم تكشف الهنات، وتفضح العورات، فيمسك ولده بيمناه ووصيته بيسراه، ثم يناجي ربه ويقول: «اللهم اعْدِنِي على هذا الكاذب الذي خَتَلَنِي وخدعني وخَفَرَ ذمتي، وخَاسَ بعهدي وخان أمانتي، وأفسد وصيتي، وخذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله وهتك عرضه، وعذَّب نفسَه ونغَّص عيشه، فأنت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين!»

العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عامٍ يقف ركب هذا العالم السائر على منزلةٍ من منازل الحياة، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعةً من وعثاء السفر بعد أنْ نال منه الأَيْنُ والكلال، وأنضاه سُرى الليل ومسير النهار خمسةً وستين وثلاثمائة يوم.

هنالك يجتمع السفْر في صعيدٍ واحدٍ، فيتعارفون ويتفقد بعضهم بعضًا، فيجدون أنَّ فلانًا مات جوعًا، وفلانًا مات ظمأً، وآخر افترسه سبع، وآخر قتله لصٌّ، وآخر مات غيلةً، وآخر سقط عيًّا، وآخر طارت به قنبلةٌ، وآخر هوت به طيارة، وآخر اجتاحه بركان، وآخر تردى عليه منجمٌ، ثم يعودون إلى جرائد الإحصاء ليدونوا فيها حاضرهم كما دونوا فيها ماضيهم، ثم يوازون بين هذا وذاك، فيجدون أنَّ الحاضر شرٌّ من الماضي، وأنَّ ميادين الحروب لا تزال ملوثةً بالدماء، ومصانع الموت لا تزال تفتنُّ في عدده وتستكثر من أدواته، وأنَّ أغراس الشر لا تزال عالقةً بنفوس البشر، حتى ما يكاد أحدٌ يتمنى أن تقع عينه على أحد، وأنَّ سحائب البغضاء لا تزال ناشرةً أجنحتها السوداء على المجتمع الإنساني من أقصاه إلى أقصاه شعوبًا وقبائل، وأجناسًا وأنواعًا، ومذاهب وأديانًا، ومنازل وأوطانًا، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه لأنه ينطق بغير لغته، فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه، فإن كان مشاركًا له أبغضه لأنه يزاحمه في حرفته أو صناعته، فإن بَعُدَ عن طريقه أبغضه لأنه يخالفه في رأيه، فإن كان موافقًا له أبغضه لأنه لا يحاكيه في لونه. فإن لم يجد شيئًا من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه لا شخصٌ سواه. كأن قضاءً حتمًا على الإنسان أن يبغض كل صورةٍ غير الصورة التي يراها كل يومٍ في مرآته، فإذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم والموازنةً بين حاضرهم وماضيهم، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب، فتناسوا كل

هذا، ووضع كلٌّ منهم يده في يد أخيه مهنئًا له بالعيد السعيد، داعيًا له بدوام الرفاهية والسعادة، ثم تنادَوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية.

علام يهنئ الناس بعضهم بعضًا؟ وماذا لقوا من الدنيا فيحرصوا على البقاء فيها ويغتبطوا بقطع المراحل التي يقطعونها منها؟ ومن منهم يستطيع أن ينطق بلسانٍ يصدُق الحديث عما في نفسه فيقول: إنه أصبح سعيدًا كما أمسى أو أمسى سعيدًا كما أصبح؟ أو إنه رأى بارقًا من بوارق السعادة قد لمع يومًا من الأيام في سماء حياته ولم يرَ بجانبه مثل ما يرى في الليلة البارقة من نجومٍ هاوية، ورعودٍ قاصفةٍ، وصواعق محرقةٍ، وغيومٍ متلبدة؟

بأي نعمةٍ من النعم أو حسنةٍ من الحسنات تمن الحياة على رجلٍ ينتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة العيش إلى ظلمة القبر، كأنما هو يونان الذي التقمه الحوت فأصبح في ظلماتٍ بعضها فوق بعض؟ وأي صنيعة من الصنائع أسدتها الأيام إلى إنسانٍ يظل فيها من مهده إلى لحده حائرًا مضطربًا يفتش عن ساعة راحةٍ وسلامٍ يبل بها غُلَّته ويثلج بها صدره فلا يعرف لها مذهبًا ولا يجد إليها سبيلًا؟ إن كان غنيًّا اجتمعت حوله القلوب المضطغنة، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة، فإما قتلته وإما أفقرته. وإن كان فقيرًا عدَّ الناسُ فقرَه ذنبًا جنته يداه، فتتناوله الأكف، وتتقاذفه الأرجل، وتتجاذبه الألسن حتى يموت الموتة الكبرى. وإن كان عالمًا ولع به الحاسدون واستُهتروا في تزييفه والتشهير به، وأغروا بنفثاته وآثاره حتى يعطيهم عهده وميثاقه أن يعيش عالمًا كجاهلٍ وحيًّا كميتٍ، وأن يكتم سر علمه في صدره فلا يفضي به إلى لسانٍ ولا قلمٍ، أو يموت دون ذلك. وإن كان جاهلًا اتخذه العالمون مطيةً لا يزالون يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يرحمونها، ولا يرفقون بها، ولا يقيمون صلبها حتى يعقروها. وإن كان بخيلًا ازدرته القلوب، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه، وبرزت له الأنياب، وانقبضت له السرائر، والتهبت له الأنظار، وأرسلت إليه الأضغان ألسنة نيرانها حتى تحرقه. وإن كان كريمًا محسنًا عاش مترقبًا في كل ساعةٍ ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم، إما لأنه منحهم أولًا ثم منعهم آخِرًا، فهم يحاولون أن ينتقموا منه لأنه أذاقهم لقمةً ناعمةً ما كانوا يقدرون لها في أنفسهم حسابًا، فلما ذاقوها استعذبوها، فاستزادوا منها فلم يجدوا ما يريدون، فتمتلئ صدورهم حقدًا على تلك اليد التي هاجت بِطنتهم، وأشعلت نارها ثم لم تطفئها. أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يشعرون كأن المحسن يريد أن يشتري منهم نفسه بما يسدي إليهم من إحسانه، فيتناولون من الإحسان لأنهم طمَّاعون، ويطوون

القلوب على الحقد عليه والموجدة له؛ لأنهم كانوا يريدون أن يتمكنوا من عِرضه ينالون منه كما يشاءون فحِيل بينهم وبين ذلك.

لا سعادة في هذه الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري، ولن ينتشر السلام إلا إذا هدأت أطماع النفوس، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف، فعرف كل ذي حقٍّ حقه، وقنع كلٌّ بما في يده عما في يد غيره، فلا يحسد فقيرٌ غنيًّا، ولا جاهلٌ عالمًا. وأشعرت القلوب رحمةً وحنانًا على البؤساء والمنكوبين، فلا يهلك جائعٌ بين الطاعمين، ولا عارٍ بين الكاسين. وامتلأت النفوس عزةً وشرفًا، فلا يبقى شيءٌ من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدين أو باسم الوطنية أو باسم الإنسانية أو باسم العلم، ولا نرى طبيبًا يدِّعي علم ما لم يعلم ليسلب المريضَ رُوحَه وماله، ولا محاميًا يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما يسلب منه خصمه، ولا تاجرًا يشتري بعشرة ويبيع بمائةٍ ثم ينكر بعد ذلك أنه لصٌّ سارق، ولا كاتبًا يضرب الناس بعضهم ببعضٍ حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزَّند بالزند ليظفر بالشرر المتطاير منهما. وما دامت هذه المطالب أحلامًا كاذبةً وأمانيَّ باطلة فلا مطمع في سلامٍ ولا أمانٍ، ولا أمل في سعادةٍ ولا في هناء، ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده، ولا فرق بين مغفلات أيامه ومعلمات أعياده، فليهنأ بالعيد من عرف من أيامه غير ما عرفت، وذاق من نعمائه غير ما ذقت، وليفرح بالعام الجديد من حمد ماضي أيامه، وسالف أعوامه.

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير — وهي الرواية المعروفة برواية «يوليوس قيصر» — موقفًا لبطلين من أبطال الفصاحة، وفارسين من فرسان البيان، قد وقف كلٌّ منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة بين مضارب الأقدام، تعلو بها حينًا وتسفل أحيانًا، فلا تثبت صاعدةً ولا تستقر هابطةً، فعلمت أنَّ العامة عامةٌ في كل عصرٍ، والشعب شعبٌ في كل مصرٍ، وأنَّ سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر، وأنه في رأس التاريخ اليسوعي مثله في ذَنَبِ التاريخ المحمدي، تدنو به كلمة وتنأى به أخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة، وتطير بِلُبِّه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء.

علم بروتس الشريف الروماني أنَّ يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلًّا ملك عليه حواسه ومشاعره، حتى ما يكاد يشعر بمرارته، وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيءٍ حتى الشعور بنزوله بها. وعلم أنَّ حياة ذلك الشعب في موت ذلك القيصر، فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده افتداءً لأمته، فطعنه طعنةً نجلاء سلبته نفسه، فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه هياج الأمواج المتدفعة على السفن المبعثرة في أكناف الدأماء، فوقف الرجل خطيبًا في وجه هذا الشعب المائج المحتدم حزنًا على خلاصه من يد قاتله وقفةَ المستبسل المستميت، وكان لا بدَّ له في موقفه من أحد المصيرين: إما نصرٌ يعلو به إلى مدار الأفلاك، أو خذلانٌ يهوي به إلى مقر الأسماك، ومن أحد المخرجين: إما مخرجه مرفوعًا على محفة الأبطال، أو محمولًا على أعناق الرجال، فبعد لَأْيٍ ما استطاع بعض الناس أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم إلى سماع دفاع

القاتل عن نفسه، أو التفكُّه بمنظر هذيانه وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جُرمه.

الخُطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة): «أيها الرومانيون، أتعدونني بالصبر القليل على سماع ما أقول من حلو الكلام ومرِّه إكرامًا لموقفي وإكرامًا للعدل؟

أنا لا أريد أن أخدعكم عن أنفسكم، ولا أن أعبث بعقولكم وأهوائكم، بل أريد منكم أن تنظروا إلى قضيتي نظرَ المستيقظ الحَذِر الذي لا يعطي هوادةً ولا يسلس قيادًا، ولا ينام عن شاردةٍ ولا واردة؛ لأني لا أعتقد أنَّ في زاويةٍ من زوايا قضيتي هذه كمينًا أخاف أن تقع عليه العيون.

أيها الرومانيون، إن كان بينكم صديقٌ لقيصر يحبه ويتهالك وَجْدًا عليه فليسمح لي أن أقول له: «أيها الصديق الكريم، إنَّ بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر من حبك إياه.»

أيها القوم، والله لو كذَبتُ الناس جميعًا ما كذَبتُكم، فاعلموا أني ما قتلت قيصر لأني كنت أبغضه، بل لأني كنت أحب رومة أكثر منه.

كان قيصر يحبني فأحببته، وكان شجاعًا فاحترمته، ولكنه كان طماعًا فقتلته، ففي ساعة واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري.

أنا لا أصدق أنَّ بينكم من يحزن لموت قيصر، فأنتم رومانيون، والرومانيُّ لا يحب أن يعيش ذليلًا.

من منكم يكره أن يكون رومانيًّا؟ من منكم يكره أن يكون حرًّا؟ من منكم يحتقر نفسه؟ من منكم يزدري وطنه؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم؛ لأنه هو الذي يحق له أن يثأر لنفسه مني؛ لأني لم أسئ إلى أحدٍ سواه.»

الشعب: «لا، لا، ليس فينا واحدٌ من هؤلاء.»

بروتس: «إذن أنا لم أسئ إلى أحدٍ منكم.»

(وما وصل بروتس من حديثه إلى هذا الحد حتى دخل أنطونيوس صديق قيصر، ورأس الناقمين على قتَلَتِه، والطالبين بثأره هو وآخرون، ومعهم جثة قيصر لتأبينه في هذا المجمع الحاشد، فاستأنف بروتس الكلام، وقال):

ها هي ذي جثة قيصر، وها هو ذا صديقه أنطونيوس قد جاء ليُؤبِّنه فاستمعوا له، واعلموا أنَّ قيصر المذنب غير قيصر الماجد، وقد سمعتم ما قيل عن الأول فاسمعوا ما قيل عن الثاني، واسمحوا لي أن اقول كلمة أختم بها خطابي.

أيها الرومانيون، إنَّ الخنجر الذي ذبحتُ به قيصر في سبيل رومة لا يزال باقيًا عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر إذا أرادت رومة ذلك.»

تأثير الخُطبة

الشعب: «ليحيا بروتس!»
أحد الناس: «أنا أقترح أن نحمله على الأكف والرءوس إلى بيته.»
آخر: «انصبوا له تمثالًا.»
آخر: «امنحوه عرش قيصر.»
آخر: «إنه أفضل من قيصر.»
آخر: «إنَّ قيصر كان ظالمًا.»
آخر: «إنه كان الظلم بعينه.»
آخر: «لتهنأ رومة بالخلاص منه.»
آخر: «ألا نسمع تأبين أنطونيوس؟»
آخر: «نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك.»

وهنا خرج بروتس والقلوب طائرة حوله، والعيون حائمة عليه، وقد نال بتأثير خطابه من نفوس الشعب الروماني ما أراد، ثم صعد أنطونيوس على منبر الخطابة، فهزأ الشعب بموقفه، ولولا كلمة من بروتس ما ثبت في موقفه لحظة واحدة، ثم أنشد قصيدة التأبين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحةً وبيانًا، والتي لا يكاد يوجد إنكليزيٌّ لا يحفظها ولا يمجدها تمجيد الأمم المتعبدة بآيات الكتب المقدسة.

القصيدة

أنطونيوس: «أيها الرومانيون!»
أحد الناس: «اسمعوا ما يقوله أنطونيوس.»
آخر: «لا، لا نسمعه.»
أنطونيوس: «اسمعوني إكرامًا لبروتس.»
أحد الناس: «ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس؟»
آخر: «لا يقول شيئًا.»
آخر: «إذن نسمعه.»

أنطونيوس: «أيها الأصدقاء، أنا ما جئت هنا اليوم لأرثي قيصرَ، بل لأدفن جثته.

أيها القوم، ما من أحدٍ من الناس إلا وله في حياته أعمالٌ حسنة وأخرى سيئة، أما حسناته فتموت بموته، وأما سيئاته فتبقى من بعده خالدة إلى يوم يبعثون.

كذلك كان قيصر في حياته ومماته، وحسناته وسيئاته.

أيها القوم، ما كنت لأستطيع أن أقف موقفي هذا بينكم ولا أن أقول كلمة مما أريد أن أقول لولا أنَّ بروتس قاتل قيصر أمرني بالوقوف، وأمرني بالكلام، وها أنتم أُولاء ترون أنني قد أطعته واستمعت له؛ لأنه رجلٌ شريف.

أيها القوم، يقول الشريف بروتس: إنَّ قيصر كان رجلًا طماعًا، وأنا لا أستطيع أن أخالفه فيما يقول؛ لأنه رجلٌ شريف.

أنا لا أستطيع أن أقول: إنَّ قيصر كان رجلًا قانعًا عادلًا أمينًا؛ لأن الشريف بروتس يقول غير هذا.

كل ما أستطيع أن أقوله: إنَّ الفدية التي افتدى بها أعداؤنا أَسراهم الذين جاء بهم قيصر إلى رومة قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها.

كل ما أستطيع أن أقوله: إني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء، ويحزن لحزنهم، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهرًا لا يغتمض له جفنٌ حَدَبًا بهم وعطفًا عليهم.

كل ما أستطيع أن أقوله: إني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في لوبر كال ثلاث مراتٍ فأباه زهدًا فيه وازدراءً له.

كنت أستطيع أن أقول: إنَّ الطمع لا يسكن قلبًا مثل هذا القلب، ولا يخالط فؤادًا مثل هذا الفؤاد، لولا أنَّ بروتس يقول: إنَّ قيصر رجلٌ طماع. وأنا لا أستطيع مخالفته؛ لأنه رجل شريف.

أيها الرومانيون، إنكم أحببتم قيصر قبل اليوم حبًّا جمًّا، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه؟

إن لم تبكوه لصفاته الكريمة فابكوه لأنكم كنتم تحبونه، ابكوه لأنه كان بالأمس ينطق الكلمة فتدوي في صدور العظماء دويَّ الرعد في آفاق السماء، فأصبح اليوم مُطرحًا في ظل هذا الحائط لا يجد بين الناس من يأبه له، ولا من ينظر إليه.

أيها العقل الإنساني، كيف حالت حالك وتغيرت آيتك؟! وكيف انتقلت من الصدور الإنسية إلى الصدور الوحشية؟! وكيف ضللت سبيلك، وعميت عليك مذاهبك فحسبت الخير شرًّا، والشر خيرًا، واختلط عليك الأمر بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم؟

أيها الرومانيون، عفوًا إنْ هذيت بينكم، أو أسأت إليكم، واعلموا أنَّ الحزن قد قسم فؤادي قسمين: قسمٌ على هذا المنبر، وقسمٌ في ذلك النعش.

أيها الأصدقاء، إنَّ بين جنبيَّ قلبًا يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم، ولولا مخافة أن تنفجر صدوركم حزنًا وجزعًا لقلت لكم: إنَّ قيصر قتل مظلومًا.

إنني أعتقد أنَّ بروتس ورفاقه قومٌ شرفاء عظماء؛ لذلك أحب أن أسيء إلى نفسي وإلى قيصر وإليكم قبل أن أقول: إنهم أخطئوا في قتل قيصر فأسيء إليهم.»

(وهنا أرسل أنطونيوس من جفنيه قطراتٍ من الدموع).

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه): «يلوح لي أن فيما يقول الرجل شيئًا معقولًا.»

آخر: «إنك إذا أَنْعَمْتَ النظرَ وجدت أن قيصر قد أسيء إليه.»

آخر: «لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك.»

آخر: «لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي لبكاء الفقراء.»

آخر: «إنَّ الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعًا ولا ظالمًا ولا قاسيًا.»

آخر: «إذن فسيكون لمقتل قيصر شأنٌ غير شأنه الأول.»

آخر: «لا بدَّ من عقاب القاتل.»

آخر (يقول لجليسه): «انظر إلى أنطونيوس فقد بكى حتى احمرت مقلتاه!»
آخر: «ليس في رومة رجلٌ أشرف من أنطونيوس.»
أنطونيوس: «أتأذنون لي بالنزول من المنبر لأقف قليلًا بجانب جثة القتيل؟!»
الشعب: «نعم، نعم.»

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة قيصر وهو لا يزال في ملابسه التى قتل فيها، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه، ثم قال):

أنطونيوس: «من كان يملك منكم دموعًا فليدعها لهذا الموقف، فإني سأُبكيكم في هذه الساعة بكاءً شديدًا.

إنكم جميعًا تعرفون هذا القَباء، ولكنكم لا تعرفونه كما أعرفه أنا، أنا أعلم أنَّ قيصر لبسه أول مرةٍ في مساء اليوم الذي انتصر فيه على «الدفى» ذلك الانتصار الباهر الذي نالت به رومة فخرًا عظيمًا.»

(ثم وضع يده على الثقوب التي في القباء وقال):

«في هذا القباء الشريف تمزقت جثة هذا الفاتح العظيم، في هذا الثقب طعنه بروتس طعنته، ومن هذا الثقب أطلَّ دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب، وأحسب أنَّ أفراد النوع الإنساني جميعهم قد مروا بخاطر قيصر فردًا فردًا قبل أن يمر بخاطره بروتس.

عرف قيصر أنَّ قاتله هو صديقه وصنيعة إحسانه، ففترتْ همته وعجز عن المقاومة؛ لأن الطعنة التي أصابته في جسمه لم تكن أقلَّ من الطعنة التي أصابته في قلبه، ولم يكن منظر المُدَى والخناجر أبشع في نظره من منظر الخيانة والغدر، هنالك عجز قيصر عن أن يقول شيئًا غير الكلمة التي ودَّع بها قاتله الوداع الأخير: وأنت أيضا يا بروتس؟!

وهنالك تحت تمثال بومباي وُجد قيصر قتيلًا، وقد لفَّ وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل، ها أنتم أُولاء تبكون على قيصر، فشكرًا لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهَّرتم بها ما لوَّث به الخونة تربة الأرض من الدماء.

إنكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته؟!»

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه وقال):

«إنَّ في كل جرح من هذه الجروح لسانًا يشكو إليكم فاستمعوا له، فهو أنطق من لسان الرثاء.»

أحد الناس: «يا له من منظر فظيع!»

آخر: «وا رحمتاه لقيصر!»

آخر: «إنَّ يومًا يقتل فيه قيصر ليومٌ شره مستطير.»

آخر: «يا للدناءة والسفالة!»

آخر: «يا للغدر والخيانة!»

آخر: «الانتقام! الانتقام!»

الشعب (وهو يضج ضجيجًا عظيمًا): «أحرقوا القتلة! مزقوهم! لا تبقوا على أحدٍ منهم!»

أنطونيوس: «مهلًا! مهلًا! أنا لا أريد أن أشعل بينكم فتنةً عمياء، ولا أريد أن تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها، فإني لا أزال أعتقد أنهم قوم شرفاء، وربما كانوا يعرفون أسبابًا لقتله لا نعرفها، وإنما أريد أن أقول لكم: إنَّ قيصر كان يحبكم حبًّا جمًّا، فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه.

لولا أني أوثر الإبقاء عليكم، ولولا أني أحب تخفيفَ ما ألمَّ بقلوبكم من الحزن على فقيدكم، لَتَلَوْتُ عليكم وصيته لتعلموا أنَّ الرجل كان يحبكم، وأنه ما كان خليقًا أن يقتل بينكم وفيكم عينٌ تطرف وفؤادٌ يخفق.»

الشعب: «اقرأ الوصية.»

أنطونيوس: «إني أخاف على صدروكم أن تنفجر حزنًا على القتيل الشهيد.»

الشعب: «نريد سماع الوصية.»

أنطونيوس: «إنه يعطي كل فردٍ من أفراد الرومان خمسةً وسبعين فرنكًا ويوصي بجميع غاباته ومتنزهاته ورياضه لأمته.»

أحد الناس: «يا له من رجلٍ كريم!»
آخر: «يا له من رجل شريف!»
آخر: «ويلٌ للقتلة!»
آخر: «الثورة، الثورة!»
آخر: «سنحرق منزل بروتس ومنازل رفاقه.»

(ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع رومة تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط).

أنطونيوس (في موقفه وحدَه): «أيتها الفتنة العمياء، أيقظتك من مرقدك، فارفعي رأسك، وامضي في سبيلك، واشتعلي حتى يحرق لسانُك أديمَ السماء، وحتى لا تُبقي على شيءٍ مما حواليك.»

(انتهى)

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقفٍ واحدٍ أن يستعبد الشعب الرومانيَّ لنفسه، وما كاد يَخلُص من استعباد قيصر ... وهكذا الأمم الضعيفة، لا مفرَّ لها من العبودية لحملة التيجان، أو حملة البيان!

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل

لي في البلدة التي أسكنها كرامةُ الحاكم؛ لأني أشغل وظيفةً عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاختلفتُ حتى فاجأني يومًا من الأيام ما لم يكن في الحسبان.

حدث أنَّ صعلوكًا يعرفني ويعرف مقامي تمادى في وقاحته وسوء أدبه حتى وقف بجانبي في الصلاة، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر كل الاشمئزاز، وحاولت أنْ أحتمله فلم أستطِع، وخفت إنْ طردته أنْ يؤاخذني الناس به، فهل تعرف مسوغًا شرعيًّا يفرِّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟

سائل

يا مولانا الحاكم

رحماك بهذا الصعلوك المفلوك الواقف بجانبك، لا تضنَّ عليه بظلك الظليل أنْ يمتد إليه فيقيه أشعَّة التصعلك الحارة ساعةً من الزمان، ولا تحرمه نفحةً من نفحات السعادة التي تهبُّ عليه من بين أردانك العطرة، علة يجد في تلك اللذة الخيالية ما يهون عليه مصابرة البلاء، ومعاناة الشقاء، وأحسن كما أحسن الله إليك، إنَّ الله يحب المحسنين.

ليُفرخ رُوعك، وليثلج صدرك، واعلم أنَّ هذا الفقير الصعلوك الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم وبرَّح به الشقاء أن يقتطع قطعةً من سعادتك، أو يفتلذ

فلذةً من شرفك، فسعادتك وشرفك كالمصباح تستنير منه المصابيح، ونوره نوره، وبهاؤه بهاؤه.

لا تظلم الرجل، ولا تقل إنه وَقاح الوجه، أو سيئ الأدب، فإني أعلم بما أعرف من آمال هؤلاء البؤساء وأمانيهم أنه ما وقف بجانبك إلا طمعًا في دورة الفَلَك التي علَتْ بك وأنزلتك منازل العظماء أن تدور به دورتها بك، وأنْ تنزله منزلتك، فاغفرْ له جهلَه وقصورَه، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة!

إنك تريد مني أنْ أتلمَّس لك في أبواب الشريعة الإسلامية مسوِّغًا يسوِّغ لك طرد هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك، فاسمع ما أُلقي عليك: إنَّ الذي وقفت بين يديه في مُصلَّاك أجلُّ شأنًا وأعظم خطرًا من أن يحفل بثوبك اللامع، وجبينك الساطع، ورداءك المطرز، وقميصك المحبر، وأنْ يعرف لك من الفضل والشرف أكثر ممَّا يعرف لصاحبك، فما كان له أنْ يأمرك أنْ تتقدَّمه، أو يأمره أنْ يقِفَ منك موقف العبد من السيد، والمحكوم من الحاكم.

إنَّ للجمعة والجماعة فضائل كثيرة وحِكمًا جمةً أرادها الشارع منهما، وإنك لن تجد بين هذه الحكم وتلك الفضائل حِكمةً أدق، ولا فضيلةً أَنفَسَ من التواضع الذي يُشعره العظيم قلبه كلما رأى أنه قد وقف من الفقير في ذلك الموطن المقدَّس موقف الأخ من أخيه والنظير من نظيره.

إن كنت تريد يا مولانا الحاكم من الاختلاف إلى المسجد ألا تترك للفقير موطنًا من المواطن يملك فيه الخيار لنفسه في مواقفه ومذاهبه حتى موقفه بين يدي ربه، فخيرٌ لك أن تستصحب معك فريقًا من شُرطتك وأعوانك لتأمرهم في ذلك الفقير بما يرضيك من إقصائه أو طرده أو التنكيل به كلما رأيته تمادى في وقاحته وسوء أدبه، فإن تم لك من ذلك ما أردت، فاحذر أن يخدعك خادعٌ عن نفسك، فيزين لك أن تنطق في موقفك هذا بآية العبودية بعدما نطقت بكلمة الألوهية، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتين: رذيلة الظلم ورذيلة الرياء.

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أنَّ الله لا يقبلها منك، ولا يجزل لك ثوابها حتى تقف بين يديه موقف من ألَّت بقلبه الخشية، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره، فلم يعد يبصر شيئًا مما حوله، ولا يعلم إن كان واقفًا في حضرة الملوك أو في زمرة الصعاليك.

أيها العظماء

ليست العظمة التي تعرفونها لأنفسكم إلا منحةً من منح الفقراء عليكم، وحسنةً من حسناتهم إليكم، فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم، ولولا تصاغرهم في حضراتكم ما استكبرتم، فلا تجزوهم بالإحسان سوءًا، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر تستدفعوا النقم وتستديموا النعم.

أيها العظماء

ما هذه القصور التي تسكنونها، ولا هذه النعم التي ترفلون في أثوابها، ولا هذه الحاشية التي تدلون بها إلا ألوانًا وأصباغًا لا علاقة بينها وبين نفوسكم، ولا دخل لها في جوهرٍ من جواهر أفئدتكم وقلوبكم، وما هي إلا أن تشرق عليها شمس الحقيقة فتذهب بها ذهابها بألوان السحاب وأصباغ الثياب، فإذا أنتم عراةٌ مجردون لا تشفع لكم إلا فضائلكم، ولا تنفعكم إلا مواهبكم ومزاياكم.

أيها العظماء

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشئونكم، فإن كنتم من أرباب الفضائل فَحَرِيٌّ بالفاضل ألا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء، أوْ لا، فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهًا ولا أصلب خدًّا من جهلة المتكبرين، فانظروا أين تنزلون؟ وفي أيِّ مقامٍ تقيمون؟

الانتحار

قرأت في الصحف أنَّ رجلًا من تجار المسلمين انتحر، لا لضيق يدٍ، أو شدة مرضٍ، أو بؤس حالٍ؛ بل لأنه حزن على وفاة صديقٍ له، فقتل نفسه.

إنَّ الرجل مؤمنٌ يعتقد — ولا شك — بسوء عاقبة المنتحر، فكيف هان عليه وهو في آخر يومٍ من أيام حياته أن يضم إلى خسارة دنياه خسارة آخرته، وهي العزاء الباقي عن كل ما يلاقي المؤمن في حياته من شقاءٍ وعناء؟

إنَّ الانتحار من حيث هو مبدأٌ فاسد، وعادة مستهجنةٌ رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها.

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك المصريين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في مالهم أو عِرضهم وصحتهم، أو كنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك قلنا: يوشك أن يقتل المصري نفسه بنفسه إذا علم أنَّ ذلك عادة من العادات الغربية، فقد صار قريبًا ما كان بعيدًا، وأصبح مألوفًا ما كنا نعده مثلًا من الأمثال.

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخَوَر، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والهوس. وأحسب ألا يقدم الإنسان على الانتحار وفي نفسه ذرةٌ من العزم، أو في عقله لمحةٌ من الحزم.

حب النفس غريزةٌ وضعها الله — سبحانه وتعالى — في نفس الإنسان لتكون ينبوع العمل، ومبعث الحركة، ومطلع شمس المدنية والعمران. والمنتحر يبغض نفسه بأشد مما يبغض الإنسان أعدى أعدائه، فهو شاذٌّ في طبيعته، غريبٌ في خُلُقه، معاندٌ لإرادة الله تعالى في حياة الكون وعمرانه، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلبٍ ولا عقل.

لا عذر لمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه من الهم ونفسه من الأسى، ومهمَّا ألَّمت به كوارث الدهر ونزلت به ضائقات العيش، فإنَّ ما أقدم عليه أشد مما فر منه، وما خسره أضعاف ما كسبه.

لو كان ذا عقل لعلم أنَّ سكرات الموت تجمع في لحظةٍ واحدةٍ جميع ما تفرَّق من آلام النفوس وشدائدها، وأنَّ قضاء ساعةٍ واحدة فيما أعدَّ الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم الدائم أشد مما يلاقيه من مصائب الحياة وأرزائها لو يعمَّر ألف سنةٍ.

ما أكثر هموم الدنيا وما أطول أحزانها! لا يفيق المرء فيها من همٍّ إلا إلى همٍّ، ولا يرتاح من فاجعةٍ إلا إلى مثلها، ولا يزال بَنُوها يترجَّحون ما بين صحةٍ ومرض، وفقرٍ وغنًى، وعزٍّ وذلٍّ، وسعادةٍ وشقاء، فإذا صح لكل مهمومٍ أن يكره حياته، وكل محزون أن يقتل نفسه، خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها، وتبدَّلت سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

ما سُمِّي القاتل مجرمًا إلا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد، وأقسى منه قاتل نفسه؛ لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول، فهو أجرم المجرمين، وأفظع القاتلين.

يخدع المنتحرُ نفسَه إن ظن أنه مقتنعٌ بفضل الموت على الحياة، وأنه يفعل فعلته عن رَويةٍ وبصيرة، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مآزق الموت حتى يثوب إليه رشده وهداه، ويحاول التخلُّص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلًا.

إنْ ألقى نفسه في الماء تخبط، ومدَّ يده إلى من يرجو الخلاص على يده، وودَّ لو يفتدي نفسه بكل ما تمتلك يمينه. وإن أغلق على نفسه نوافذ غرفةٍ مملوءة بغاز الفحم ودَّ لو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمات الهواء، ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل، فاقد السمع والبصر.

إنَّ فكرة الانتحار نزغةٌ من نزغات النفس، وخطرةٌ من خطرات الشيطان. فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتمهَّل ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت وآلام النزع؟ وكيف يكون حديث الناس عنه بعد موته؟ وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذرٌ له أو ساكتٌ عن ازدرائه واحتقاره ورميه بالعتَه والجنون؟! وليستحضر في مخيلته أشكال العذاب وألوان العقاب التي أعدَّها الله في الدار الآخرة لأمثاله، ثم لينظر بعد ذلك: أيرتكب جريمة الانتحار؟ لا أظنه بعد ذلك فاعلًا إلا إذا كان وحشًا في ثوب إنسان، أو بطلًا من أبطال البيمارستان.

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحيانًا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسية، ومَرَّ مذاقها في أفواههم، حتى ما يغتبط حيٌّ بنعمة العيش، ولا يكره ميتٌ طلعة الموت.

لذلك نرى كل حيٍّ يهرب من الحياة الحسية جِدَّ الهرب لاجئًا إلى الحياة الشعرية من أيِّ بابٍ من أبوابها؛ لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده، ويثلج صدره، وينفي عن نفسه السآمة والضجر من صنوف المناظر، وأفانين المشاهد، وغرائب المؤتلفات، وعجائب المختلفات.

لولا حب الناس الحياةَ الشعرية لما وجد فيهم كثيرٌ من المولَعين بتخدير أعصابهم، كشاربي الخمر ومُدخِّني الحشيشة والأفيون. وهي وإن كانت في نظرهم حياةَ سعادةٍ يتخللها شقاء، إلا أنها عندهم خيرٌ من حياة شقاءٍ لا تتخللها سعادة. ولولا حب الحياة الشعرية لما وجد في الناس هذا الجمُّ الغفير من الشعراء المتخيلين، والمتصوِّفة المتهوِّسين.

لا يجد السكير لذة العيش وهناءه إلا إذا أسلم نفسه إلى كأس الشراب، فنقلَه من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالمٍ هائلٍ غريب يرى فيه كلَّ ما تشتهي نفسه أن يراه، فإن كان قبيح الوجه مشوه الخَلق تخيَّل أنه شَرَك الأبصار، وفتنة النظار، وأنَّ القلوب محلقة على جماله تحليق الأطيار على الأشجار. وإن كان وضيعًا حقيرًا لا يملك فَلسًا توهم أنه جالسٌ على كرسيِّ المُلك، والصولجان في يمينه والتاج فوق رأسه، واعتقد أنَّ عبيد الله عبيده، وجنود الحكومة جنوده، حتى الجندي الذي يسحبه على وجهه إلى السجن. وبالجملة لا تقع عينه على ما يحزنه من المنظورات، ولا تسمع أذنه ما يُنفِّره من المسموعات، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء.

ولا يشعر الصوفيُّ بنعيم الحياة إلا إذا جَنَّ الليل وأوى إلى معبده وخلا بنفسه، فتخيل أنَّ له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في فضاء السماء، فيرى الجنة والنار والعرش والكرسيَّ، ويسمع صرير قلم القدرة في اللوح المحفوظ، ويقرأ في أمِّ الكتاب حديث ما كان وما يكون وما هو كائن!

ولا يستفيق الشاعر من هموم الدنيا وأكدارها ومصائبها وأحزانها إلا إذا جلس إلى مكتبه وأمسك بيراعه، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار، وتنقَّل به بين مسارح الأفلاك، ومسابح الأسماك، ووقف به تارةً على الطلول الدوارس يبكي أهلها النازحين وقُطَّانها المفارقين، وأخرى على القبور الدوائر يندب جسومها الباليات، وأعظمها النخرات.

ليس الأمل إلا بابًا من أبواب الحياة الشعرية، ولا يمكن أن يوجَد بين قلوب البشر قلبٌ لا يخفق بالآمال، فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يشترك في العيش فيها جميع الناس، أذكياء وأغبياء، فُهماء وبُلداء. والأمل هو السدُّ المنيع الذي يعترض في سبيل اليأس، ويقف دونه أن يتسرَّب إلى القلوب، ولو تسرَّب إليها لزهد الناس العيش في هذه الحياة الحسية التي لا قيمة لها في أنظارهم، ولا لذَّة لها في نفوسهم، ولطلبوا الفرار منها إلى الموت تسليًا بالتغيُّر والانتقال، وتلذذًا بالتحول من حالٍ إلى حال.

يقولون: «أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء!» ويقولون: «ما لذة العيش إلا للمجانين!»

أتدري لماذا؟

لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين، وذلك أنَّ عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية، والمغالطات الشعرية، فلا يرى سوى ما بين يديه من المحسوسات، ويمنعه علمه بأحوال الدنيا وشئونها ومعرفته أنَّ الهموم والأحزان لازمةٌ من لوازمها لا تنفك عنها أن يؤمل منها ما ليس في طبيعتها من دوام السعادة واستمرار السرور والهناء، فلا يطلب سَعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤملين، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين.

والحق أقول: لولا الحياة الشعرية التي أحياها أحيانًا في هذه النظرات، لأحببت — زهدًا في الحياة الحسية — أن تطلع الشمس من مغربها، ولو قامت القيامة بعد ذلك، ولتمنيت — حبًّا في الانتقال من حالٍ إلى حالٍ — أن أنتقل ولو إلى رحمة الله.

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات الخيام كما يقف مسافرٌ ضلَّ به سبيله في فلوات الأرض ومجاهلها بوادٍ معشوشبٍ زاهرٍ في وسط فلاةٍ جرداء عند منقطع العمران، فما خطوت فيه بضع خطواتٍ حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوارٍ بيضاء، وورودٍ حمراء، وألوان من النبات، مشتبهاتٍ وغير مشتبهاتٍ، وغدرانٍ مسلسلة مطَّردةٍ تتبسط في تلك الديباجة الخضراء تبسُّط الشهب في الديباجة الزرقاء، وأسرابٍ من الحمائم والعصافير والكراكي والبلابل تتطاير من فرعٍ إلى فرع، وتتناثر من غصنٍ إلى غصن، وتجتمع لتفترق، وتفترق لتجتمع، وتقتتل مرةً وتتلاثم أخرى، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء، ثم تهبط فتقبِّل صفحة الماء، ولا تزال تغرد في صعودها وهبوطها تغريدًا مختلف النغمات متنوع اللهجات، فيتألف من ذلك الاختلاف نغمٌ بديع لا أعرف له شبيهًا إلا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان في فراديس الجنان.

فلم أزل أتقلَّب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء، وأجرُّ ذيول تلك الجداول البيضاء، وأقلِّب في طَرْفي فلا أرى رائحًا ولا غاديًا، وأتسمع فلا أسمع هاتفًا ولا داعيًا. حتى وقف بي الحظ على دوحةٍ فرعاء، ماثلةٍ على رأس بعض الجداول، قد اضطجع في ظلها على قطيفةٍ من ذلك العشب الناعم رجلٌ هانئٌ باسمٌ، يقرأ تارة سورة الجمال في وجه فتاةٍ جالسة بين يديه، ويقبل أخرى ثغر الكأس التي في يمينه، ويترنَّم فيما بين هذا وذاك بمقطوعاتٍ شعرية بديعة، يمثِّل فيها جمال الطبيعة وهدوءها، وسعادة الوحدة وهناءها. ويطير بأجنحة خياله في عالمٍ بديع من عوالم الغيب، كأنما يريد أن يفرَّ بنفسه من هذا العالم المملوء بالآلام والأحزان، ويحاول أن يطارد كل خاطرٍ من خاطرات الهموم التي

تتطاير حول قلبه ليستكمل لذته في العيش، ويتغلغل في أعماق المتعة بوحدته وكتابه، وكأسه وفتاته.

فإن مرَّ بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عزٍّ وسلطان ولذةٍ واستمتاع قال: «ما لي وللملك والسلطان، والحاشية والجند، والقصور الشمَّاء، والجنان الفيحاء، هنالك المحنة والشقاء، والفتنة الشعواء، والهموم والأرزاء، والدماء والأشلاء، والعويل والبكاء، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد، حيث لا سيِّد ولا مسود، ولا عابد ولا معبود. وبين هذين الثغرين: ثغر الفتاة وثغر الكأس، وذينك الصديقين: هذا الكتاب المفتوح، وذلك الغصن المطلِّ، كان ما يقدِّر السعداء لأنفسهم من غبطةٍ في الحياة وهناء.»

وإنْ ذكر الآخرة وما أعدَّ الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال: «إنَّ من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول. أنا اليوم موجودٌ، فلا بدَّ أن أستمتع بمتعة الوجود، أما الغد فلا علم لي به ولا بما قُدِّر لي فيه، وعسير عليَّ أن أتصور أننا — معشرَ الأحياء — كنوزٌ من الذهب تدفن اليوم في باطن الأرض، لينبش عنا النابشون غدًا.»

ثم يعود إلى نفسه مستغفرًا الله من ذنبه في شكِّه وارتيابه فيقول: «اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر لك المؤمنون الموحدون، فاغفر لي آثامي وذنوبي؛ فإني ما أذنبت عنادًا لك ولا تمردًا عليك، ولكنها الكأس غلبتني على أمري، وحالت بيني وبين عقلي، وأنت أجلُّ من أن تقاضيني كما يقاضي الدائن مَدينه؛ لأنك كريمٌ، والكريم يرتجل المنحة ارتجالًا ولا يقرضها قرضًا، ويسبغ نعمته حتى على العصاة والمذنبين.»

وأحيانًا يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحياءهم وأمواتهم، ويقول مخاطبًا فتاته: «رويدًا أيتها الفتاة في خطواتك على هذه الأعشاب، فلعل جذورها تستمدُّ حياتها من كبد فتاةٍ مثلك لها قلبٌ مثل قلبك، ووجدانٌ مثل وجدانك، وجمالٌ ورواء مثل جمالك وروائك، ثم ضرب الدهر ضرباته، فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء، وإذا هي في دجنة تلك الأعماق السوداء، فارفقي بها، واسكبي هذه الفَضْلة من كأسك على تربتها علَّها تتسرَّب إلى نفسها فتطفئ ذلك اللاعج الذي يتأجج بين جوانحها.»

ثم يتخيَّل أحيانًا كأنه واقفٌ أمام رجلٍ خزَّاف يحرق آنيته في تنُّوره، فيقول له: «رحمة أيها الخزاف بهذه الحمأة التي تقلبها في هذه النار، فقد كانت بالأمس

إنسانًا مثلك، وستكونُ في مستقبل الأيام حمأةً مثلها، وربما ساقك الدهر إلى يدي خزَّاف تحتاج إلى رحمته ورفقه، فارفقْ بها اليوم يَرفقْ بك خزَّافك غدًا.» وآونةً يلبس ثوب الواعظ المنذر، فينعى على السعداء سعاداتهم ويذكرهم بما آلت إليه حال الملوك السالفين، والأقيال الماضين، من خراب دورهم، وعمران قبورهم، وغروب شموسهم، واندثار آثارهم. ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه، وترقُّب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته، وتنطفئ جذوته، وتضعف مُنَّتُه، ويمحو نهار مشيبه ليلَ شبابه، فيزحف إلى قبره شيئًا فشيئًا حتى يتردَّى فيه، فيعود كما كان سرًّا مكتومًا في ضمائر الأقدار، وذرةً هائمةً في مجاهل الأكوان.

وهكذا ما زال ينتقل من عِبرةٍ بليغةٍ إلى عظةٍ بديعةٍ، ومن خيالٍ جميلٍ إلى تشبيهٍ رقيق، ومن وصفٍ ناطقٍ إلى تمثيلٍ صادق، حتى أصبحتُ أعتقد أنَّ هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل مرآةٌ صافية قد تمثَّل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه، وليله ونهاره، وناطقه وصامته، وصادحه وباغمه. وأنَّ فخار الأعراب بمُتنبيِّها ومَعرِّيها، والفرنسة بلامَرْتِينِها وفِيكْتُورِها، والسكسون بشكسبيرها ومِلْتُونِها، والطليان بدَانْتِيِّها، والألمان بجِيتِها، والرومان بفِرْجِيلها، واليونان بهُومِيرِها، ومصر القديمة ببِنْتَاؤورها، ومصر الحديثة بأَحْمَدها، لا يقل عن فخار فارس بخيَّامها.

إلى تولستوي

قف ساعةً واحدةً نودِّعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك، فقد عشنا في كنفك — على ما بيننا وبينك من بعد الدار وشطِّ المزار — عهدًا طويلًا كنا فيه أصدقاءك وإنْ لم نرك، وأبناءك وإنْ كنا لنا آباء من دونك. وعزيزٌ علينا أن تفارقنا قبل أن نقضيَ حقَّ عِشْرتك بدمعةٍ واحدة نسفحها بين يديك في موقف الوداع.

حدثنا الناس، أنك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعًا بعد أن أعجزك إصلاحه وتقويمه، فأبغضته وعِفت النظر إليه، وأبغضت لبغضه كلَّ شيءٍ حتى زوجَك وولدك، ففررت بنفسك منه إلى غابٍ تسمع زئير سباعه، أو دَيرٍ تأنس برنَّة ناقوسه. وأَسْجَلْتَ ألا تعود إليه، وأن تقطع كل سبيلٍ بينك وبينه، فعذرناك ولم نعتب عليك، ولم نُسمِّك جبانًا ولا منهزمًا ولا مولِّيًا ولا مدبرًا؛ لأنك قاتلت فأبليت حتى لم يبقَ في غمدك سيف، ولا فوق عاتقك رمح، ولا في كنانتك سهمٌ، والعدو كثيرٌ عدده، صعبٌ مراسه، وافرة قوته، والشجاعة في غير موطنها جنونٌ، والوقوف أكثر من ثمانين عامًا أمام عدوٍّ لا أمل في براحه ولا مطمع في زياله عنادٌ. وهل كان يكون مصيرك إن أنت قاتلت حتى سقطت قتيلًا في المعركة إلا مصير الفلاسفة من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا، فهدرت دماؤهم، واغتمضت عيونهم قبل أن يروا منظرًا من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشريِّ يعزون به أنفسهم عن أنفسهم، ويروحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع، وفي أفواههم من مرارات الموت.

ماذا لقيت من الدنيا؟ وماذا أفدت منها؟ وأين وقع علمك وفضلك، ولسانك وقلمك، وقوة عارضتك ومضاء حجتك من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم، وظلم ألسنتهم وأيديهم؟

قلت للقيصر: «أيها الملك، إنك صنيعة الشعب وأجيره لا إلهه وربه، وإنك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكَّار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجورٌ على عملٍ يعمله فيسدده، وكلاكما مأخوذٌ بتبعة زَللــه وسَقَطه، فكما أنَّ صاحب المصنع يسأل العامل هل وفَّى عمله ليمنحه أجره، كذلك يسألك الشعب هل قمت بحماية القانون الذي وكل إليك حراسته فأنفذته كما هو من غير تبديلٍ ولا تأويل؟ وهل عدلت بين الناس، فآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ وهل استطعت أن تستخلص عقلك من يدي هواك فلم تدع للحب ولا للبغض سلطانًا على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومَحجَّته؟ وهل أصممت أذنك عن سماع المَلَق والدهان، والمدح والثناء، فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم، ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك أو الطمع في غفلتك مذهب التوسل إليك بالكذب والنميمة والتجسس وذلة الأعناق وضرع الخدود؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه، ورآك أمينًا على العهد الذي عهد به إليك أبقى عليك، وأبقى لك سلطانك، وعرف لك يدك عنده، وأحسن إليك كما أحسنت إليه، أوْ لا، كان له معك شأنٌ غير ذلك الشأن، ورأي غير ذلك الرأي.»

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها؛ لأنه لم يجد بين الكثير الذي يعاشره من يُسمعه مثلها، فحقد عليك، ونقِم منك، وأزعجك من مكانك، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذلَّ نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل، لِيعدَّهم لمقاتلة الحق ومصارعته في أيام خوفه وقلقه.

وقلت للجبَّار الروسيِّ: «ليس من العدل أن تملك وحدَك — وأنت نائمٌ في سريرك في قصرك بين روضك ونسيمك، وظلك ومائك — هذه الأرض التي تضم بين أطرافها مليون فدان، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين الذين يحرثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويربون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها، وأجيجها وثلجها، شبرًا واحدًا فيها، فاعرف لهم حقهم، وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأَشْعِرْ قلبَك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك، واعلم أنَّ الأرض لله يورثها من يشاء.» ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلًا من نفسك، فعمدت إلى أرضك، فجعلتها قسمةً بينك وبين القائمين عليها من الزارعين، ثم عمدت إلى فأسك فاعتقلتها، وماشيتك فأخذت بزمامها، وما زلت حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين وخضت مع الخائضين، لتعلم ذلك الجبار بيدك ما عجزت عنه بلسانك، فسخر منك ورثى لعقلك، وألَّف من حادثتك روايةً غريبة يروِّح بها عن قلبه في مجتمعات أنسه ولهوه ما يكابده من ألم السآمة والضجر.

وقلت للكاهن: «إنَّ المسيح عاش معذَّبًا مضطهدًا؛ لأنه لم يرضَ أن يقرَّ الظالمين على ظلمهم، وأبى أن يخفي ذلك المصباح الذي في يده تحت ثوبه، بل رفعه فوق رأسه غير مبالٍ بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوءتهم، ويهتك سترهم، وأنت تزعم أنك خليفته وحامل أمانته والقائم بنشر آياته وكلماته، والمترسِّم مواقع أقدامه في خطواته، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين؟! وما هذه اليد التي تضعها في أيديهم كأنك تأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يقتلوا ويسلبوا باسمك، وفي حمايتك وحماية الكتاب المقدس؟! وما هذا السلطة التي تزعمها لنفسك أن تُدخل الجنة من تشاء، وتخرج منها من تشاء؟! وما هذه القصور التي تسكنها، والديباج الذي تلبسه، والعيش البارد الذي تنعم به وأنت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن زخرف الدنيا ونعيمها إلى عبادة الله والانكماش في طاعته؟!»

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه أن أرسل إليك كتاب الحرمان، وهو يعلم أنك لا تعترف له بالقدرة على إعطاءٍ أو منعٍ، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغضَّ منك، وإغراء العامة بك، وصرف القلوب عنك، فكان ذلك كلَّ ما استفدت من نصيحتك وعظتك.

وأبكاك منظر المنفيين في سيبريا، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من أنواع الآلام، فصرخت صرخةً دوَّى بها الملأ الأعلى والملأ الأدنى، وقلت: «أيها الناس، إنَّ الشر لا يدفع الشر، والأشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم والانتقام يلهب نارها، واجعلوا مكان السجون مدارس، ومكان السجَّانين معلمين.» فلم يسمع صرختك سامعٌ، ولا بكى لبكائك باكٍ، وما زال القضاة يحكمون، والجند يصادرون، والسجانون يعذبون، والمسجونون يصرخون.

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب، وبكاء النساء المعوِلات خلف أزواجهن وأولادهن وأخواتهن، وهم سائرون إلى حربٍ لا يعرفون لها مصدرًا ولا موردًا، وقد حمل بعضهم لبعضٍ بين الجنوب ضغائن وسخائم لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة، فتخليوا أنهم أعداء وهم أصدقاء، فتسلبوا من لباس الإنسانية، ولبسوا فراء السباع، وتقلدوا أظفارها، وأنشب كلٌّ منهم ظفره في صدر أخيه كأنما يفتش عن قلبه، فينتزعه من مكانه فيلوكه في فمه ثم يلفظه، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكانًا عليًّا لولا جور السياسة وضلالها.

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينك، ولا أجدى عويلك وأنينك، فالحرب لم تزل باقية، ومصانع الموت لم يقنعها ما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض، حتى أصبحت تعد مثلها لمعارك السماء!

فهنيئًا لك أيها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة المطمئنة، فقد نجوت بها من حياةٍ لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت فيهلك غيظًا، أو ينطق فيموت كيدًا.

إنَّ الحكيم يستطيع أن يحيل الجهل علمًا والظلمة نورًا والسواد بياضًا والبحر برًّا والبر بحرًا، وأن يتخذ نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء، ولكنه لا يستطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلةً وفساده صلاحًا.

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه، وما دام لا يحسن إليه إلا إذا أراد أن يتخذه عبدًا يعبده من دون الله، وما دام للأثرة هذا السلطان الأكبر على أفراد المجتمع — من أكبر كباره إلى أصغر صغاره — فالإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والأحراش بالأمس، لا فرق بينه وبينه إلا أنه اليوم قد آوى بشروره ومفاسده إلى بيتٍ من الزجاج يفعل فَعَلاته من ورائه، ولكن الزجاج شفافٌ كثوب الرياء.

مقدمة «مختارات المنفلوطي»

عرفتُ حاجتك يا بُنَيَّ — أعزك الله — إلى كتابٍ يجمع لك من جيد منظوم العرب ومنثورها في حاضرها وماضيها، وفي كل فن وغرضٍ من فنونها وأغراضها ما تستعين باستظهاره، أو ترديد النظر فيه على تهذيب بيانك وتقويم لسانك. وعلمت أنك لن تستطيع أن تجد طِلبتك هذه في مختارٍ من مختارات المتقدمين، ولا في مجموعةٍ من مجموعات المعاصرين. أما المتقدمون فهم بين نحويٍّ لا يعجبه من الكلام إلا ما يجد فيه مذاق شواهد العلم الذي يعالجه، ولا تسكن نفسه إلا إلى البيت الذي يرى فيه عقدةً يتفصَّح بحلها أو خطأةً يتفكه بتأويلها، أو نادرةً من نوادر الإعراب والبناء يؤيد بها رأيًا أو يساجل بها خصمًا. ولغويٍّ مولع بما يشتمل على الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها، فلا يكاد يعدل بشعر الجاهلية وما جرى مجراه شعر طبقةٍ من الطبقات، ولا يرى غير كلامهم كلامًا، ولا مذهبهم مذهبًا. وعصر الجاهلية فيما أعتقد هو عصر الطفولة الشعرية؛ أي إنَّ الشعر كان فيه بسيطًا ساذجًا لم يهذبه العلم، ولم تصقله الحضارة، ولم تتصل به أشعة الخيال فتنير ظلمته، فهو وإن كان أصدق الشعر وأجدره أن يكون صفحةً صحيحة لتاريخ عصره، ولكن قلما يستفيد شاعر الحضارة من أكثره أكثر من المادة اللغوية. وما الفرق بين شعر الجاهلية وشعر طبقة المحدثين والمولدين من بعده إلا كالفرق في الموسيقي بين نغمات الحُداة في أعقاب الإبل ونغمات الضاربين على أوتار الأعواد والبرابط في عصر الحضارة الإسلامية.

وعندي أنَّ للنزعة التاريخية سلطانًا على نفوس المولعين بالشعر الجاهلي أكثر من النزعة الفنية، فمثلهم كمثل المولعين بالعاديَّات الذين يؤثرون حجر الغرانيت على حجر الماس، ويعجبهم منظر هرم خوفو أكثر مما يعجبهم منظر برج إيفل. وراويةٍ همه في حياته أن يدور بيده ليله ونهاره في زوايا رأسه علَّه يعثر ببيتٍ لا يعرفه غيره منسوبًا

إلى قائل لا يعرف نسبته إليه سواه، ثم لا يبالي بعد ذلك أحسن أم أساء، فهو بالمؤرخ أشبه منه بالأديب. وأديبٍ جمع ما جمعه لعصرٍ غير عصرك وقومٍ غير قومك، وحال ومجتمع غير حالك ومجتمعك، فإن أفادك قليله لا ينفعك كثيره، وأحسب أن ما جمعه من الشعر بالحماسة ووصف الحروب وأسلحتها، ودمائها وغبارها وأشلائها، ووصف الإبل في مباركها والشَّاءِ في حظائرها، والأبقار في مراتعها، هو آخر ما يحتاج المتأدب إلى النظر فيه في هذا العصر. وبين مطيل قد خلط جيده برديئه، وغثه بسمينه، فلا تصل يدك إلى ما في منجمه من ذرات التبر حتى تنبش عنها ما لا قِبَلَ لك باحتماله من حقائب الرمل. ومقصرٍ يختص بالاختيار عصرًا دون عصرٍ، أو فردًا دون فردٍ، أو قومًا دون قوم، أو بابًا من أبواب البيان دون بابٍ، وهو يعلم أن المتأدب — شاعرًا كان أو كاتبًا — لا يكمل أدبه، ولا تصفو قريحته، ولا تلمع صفحة بيانه، ولا تنحل عقدة لسانه إلا إذا تمهَّل في روض البيان، فاقتطف ألوان زهراته من أنواع شجراته.

وأنَّ الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء عن البكاء والرثاء، ولا العتاب والود عن التشبيه والوصف، ولا البكاء على المنازل والديار وفراق الأحبة وموت الموتى، عن البكاء على المجد الضائع، والملك الساقط، والعِرْضِ المغلوب، والشرف المسلوب، كما لا يغنيه وصف السيف في رونقه وبهائه، عن وصفه في حدته ومُضَائه، ولا وصف البدر في جماله وروائه، عن وصفه في عزته وخيلائه، ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذَنَبِ القطاة، ولا تصوير ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة.

وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة البيان، ولا يصل إلى منزلة القدرة على الإفصاح عن أغراضه ومراميه في جميع مواقفه ومذاهبه، حتى يأخذ بِأَزِمَّة القول جميعها، ويشتمل على أساليب الكلام بأنواعه، ويعلم أنَّ الكتابة في العلم غير الكتابة في الأدب، وأن للخطب أسلوبًا غير أسلوب الكتب، وأن لكل نوع من أنواع العلوم والفنون طريقًا في الكتابة خاصًّا به لا يفارقه إلى غيره، ولا يشركه فيه سواه، وأنَّ الانتقاد غير الهجاء، والهجاء غير التهكم، والتهكم غير التأنيب، والتأنيب غير الإنذار والتهديد.

وأما المعاصرون فهم إما تابعٌ متأثر يعتمد في اختيار ما يختار على نباهة النابه، وفي اطِّراح ما يطَّرح على خمول الخامل، ويعتبر التقدَّم في الزمن شافعًا يشفع في إساءة المسيء، والتأخر فيه ذنبًا يذهب بإحسان المحسن. وإمَّا خابطٌ مُتقمِّم يعتمد في الاختيار على يده لا على بصره، فيأخذ من كل كتابٍ صفحةً، ومن كلِّ ديوانٍ ورقةً، ثم يعرض على الأنظار كتابًا غريبًا في اختلاف ألوانه، وتزايل أوصاله، جامعًا بين معلقة امرئ

القيس وألفية ابن مالك في مكانٍ، وبين مقامات البديع ومقامات السيوطي في مكان آخر. وإما عالم أديب قد حال بينه وبين انتفاع المتأدبين بعلمه وفضله، وسلامة ذوقه وصفاء قريحته، أنه يبالغ في سوء الظن بأفهامهم، ويذهب في تقدير مداركهم مذاهب ما كان لمثله أن يذهب إلى مثلها، فتراه يعمد في اختيار ما يختار إلى ما يزعم أنه القريب إلى أذهانهم اللاصق بقولهم غير الملتوي عليهم، ولا المتعثر بهم، فيتبذَّل كلَّ التبذُّل، ويُسِفَّ كلَّ الإسفاف، ويورد في كتابه من قطع الشعر وجمل النثر ما يشبه أن يكون مادةً للطفل في هجائه، لا مادة للأديب في بيانه.

وسبيل كتب المختارات التي يراد منها غرس مَلَكَة البيان في نفس المتأدب غير سبيل كتب العلم التي لا يراد منها غير حصول ما تشتمل عليه من قواعد العلوم ومسائلها في ذهن المتعلم، ولن تستقر مَلَكَة البيان في النفس حتى يقف المتأدب بطائفةٍ من شريف القول — منظومه ومنثوره — وقوف المتثبت المستبصر، الذي يرى المعنى بعيدًا فيمشي إليه، أو نازحًا فيستدنيه، محلِّقًا فيصعد إليه أو متغلغلًا فيمشي في أحشائه حتى يصيب لُبَّه، ولا يزال يعالج ذلك علاجًا شديدًا ينضح له جبينه، وتنبهر له أنفاسه حتى تتكيف ملكته بالكيفية التي يريدها.

وما أرى هذه النكبة العامة التي أصابت الناشئين في ملكاتهم الكتابية، وما رُزِئُوا به من نضوب مادتهم اللغوية والنزوع إلى تلك المنازع الأعجمية في التصوُّر والتخيل، إلا أثرًا من آثار تلك المختارات التي يجمعها لهم الجامعون جمعًا محفوفًا بالحذر والاحتياط. بل بما هو فوق ذلك من الخوف والوَسْوَاسِ، فيستكثرون لهم من أبواب الحكم والأخلاق، والمواعظ والزهد، وأمثال ذلك مما لا يكاد يتراءى فيه قلب الشاعر، ولا تتجلَّى فيه نفس الكاتب. ويفرون الفرار كله من كل ما يتعلق بوصف جمال الطبيعة، أو جمال الصناعة، أو تصوير عواطف النفوس وخوالجها في الخير والشر والعرف والنكر، كأنما يحسبون أنَّ كلَّ بيتِ غزلٍ بيتُ ريبةٍ، وكلَّ قصيدةٍ خمريةٍ حانةُ شرابٍ، وما سمعنا من قبل ولا نحسب أن سيسمع السامعون من بعد أنَّ متأدبًا أفسده ديوان غزلٍ، أو أغراه بالشراب وصف خمرٍ، لا، بل إنما يرد ذلك على من يرد عليه منهم من فساد الخلطاء أو ضلال المؤدبين.

أما الشعر المشتمل على وصف الجمال، والنثر المتضمن تصوير دقائق المعاني النفسية والخواطر القلبية — ما دام بعيدًا عن فاحش القول وهُجْره — فهو أعون الذرائع على تنمية ملكة الفصاحة والبيان في نفس الناشئ؛ لذلك لم أرَ بدًّا من أن أستخير

الله تعالى في أن أجمع لك — يا بُنَيَّ — في هذا السِّفْر من جيد المنظوم والمنثور ما أعلم أنه ألصق بك وأدنى إليك، وأنفع لك في تثقيف عقلك وتقويم لسانك، وتحليل ما أَسْأَرَتْهُ الأيام من العُجْمَة في قلمك ولسانك، فهززتُ لك دوحة الأدب العربي هِزَّةً تناثرت فيها هذه الثمرات الناضجة التي تراها بين يديك، ولم أترك من ورائي في جميع ما تصفحته من دواوين الشعر، ومجاميع الأدب، وكتب المختارات إلا ما كان رديئًا أو مشوبًا بشيءٍ من هُجْر القول ومعيبه، أو بالغًا من الشهرة والسيرورة منزلةً لا يخطئها نظر الناظر، أو واقعًا في منزلة بين الجودة والرداءة. وقد جعلت قاعدتي في الاختيار جمال الأسلوب أولًا، وجمال المعنى ثانيًا، فربما أختار ما حسن لفظه وتوسَّط معناه، وقد أختار ما توسَّط لفظه وسما معناه. كما صنعت في بعض مختارات قِسْم المنثور من الباب الأول، وهو باب الفصاحة والبيان. ولكنني لا أختار بحالٍ ما كان معناه ساميًا ونظمه فاسدًا، أما الجيد فقاعدته عندي ما يأتي: «كلُّ كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارئ وجد في نفسه الأثر الذي أراده الكاتب منه، من حيث لا يجد فيه مسحةً تدل على أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغًا؛ فهو بليغ.»

ولا أكتمك أني قد استجزت لنفسي ما استجازه لأنفسهم المختارون من قبلي، فتصرفت في قليلٍ من المختارات بعض التصرف بالتقديم والتأخير، والاختصار والتلخيص والحذف، وقد لقيت في هذا السبيل — وفي كل سبيلٍ سلكته — إلى جمع هذه المختارات عناءً كثيرًا لا أسألك يا بُنَيَّ عليه أجرًا سوى أن تنتصح بما أنصحك به في كلمتي هذه، وهي أنك لن تستطيع أن تنتفع بهذه المختارات إلا بشروطٍ ثلاثة؛ أولها: أن تملأ قلبك من الثقة بها والسكون إليها حتى لا يصرفك عنها صارفٌ، ولا يخدعَك عنها خادع. وثانيها: أن تقف بها وقوف الدارس المتعلم لا وقوف المتنزه المتفرج، فلا يمنعك فهم ما فهمته من معاودته وترديد النظر فيه حتى ترشف فيه من الكأس ثمالتها، ولا ريبة تُصعِّب عليك من مراجعته والاختلاف إليه والتغلغل في أحشائه، فإنك لا بدَّ مَاخِضٌ زُبْدَتَهُ ومصيبٌ لُبَّه. وثالثها: أن تحمي نفسك النظر في هذه المخطوطات المختلفة التي تتجدد كل يوم أمام عينيك في أسفار هذا العصر وصحفه، فإنَّ التربية الكتابية مثل التربية الأخلاقية يسري فيها الداء ثم يُعْوِزُ الدواء، اللهم إلا ما كان من أمثال ما يكتبه الكُتَّاب وينظمه الشعراء الذين اخترت لهم في هذا الكتاب في المعاني التي عُرِفوا بها وبرَّزوا فيها. فإن أخذت بنصيحتي وعنيت بها العناية كلها، وكنت ممن رزقهم الله قريحةً خصبة صالحة لنماء ما يُغرس فيها من البذور الصالحة، بلغتَ ما أردتُ لك إن شاء الله تعالى.

وا رحمتاه!

في ذلك البلد القَفْر من تلك الصحراء المحرقة من هذا الإقليم القاحل طائفةٌ من فقراء المسلمين وضعفائهم، لا يملكون من الحول غير قلوبٍ يملؤها اليقين بالله، والثقة به، والاعتماد عليه، ولا من القوة غير ألسنةٍ لا تزال تهتف في صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولَّى أمرهم، ويسدِّد خطواتهم، وييسر لهم السبيل إلى الخلاص من ذلك العدوِّ القاهر الذي نزل بهم في دار أمنهم وسكونهم نزولَ القضاء الذي لا مَرَدَّ له، ولا منتدح عنه، يريد أن يسلبهم ما أبقتْ يد الأيام في أيديهم من لقيماتٍ غير سائغة، وجرعات غير هنيئة، وظلٍّ غير ظليلٍ.

وا رحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس! إنهم عاجزون عن أن يُعِدُّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله ورصاصه غير أجسامٍ ستصبح في الغد أشلاءً ممزقة تطؤها النعال وتدوسها الحوافر، وقلوب لا تزال تدق حتى تسمع دقات المدافع والبنادق فتسكن، وأوراح ستطير في علياء السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء.

وا رحمتاه لهم! إنهم يستغثون فلا يجدون مُغيثًا، ويستصرخون فلا يسمعون مجيبًا، قد تقطعت بهم الأسباب، وأعوزتهم الوسائل وسدَّت في وجوههم السبل، فلم يبقَ لهم منها إلا سبيل الموت، وفي الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها، لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم أراملَ ضعفاء، وأيتامًا صغارًا، وشيوخًا كبارًا لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر في صدره من نعيمٍ أو شقاء.

كأني أراهم وقد غَلَتْ في صدورهم حَمِيَّة الدين والوطن، ودارت في رءوسهم سكرة العزة العربية، فأبوا إلا أن يتقدموا إلى الموت الأحمر تقدم المستقتل المستبسل، الذي يعلم أن باب الحياة الأبدية السعيدة لا يفتح إلا بين يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدرتها، فتجرَّدت من أثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها. وكأني أرى الرجل منهم

وقد دخل إلى بيته ليعد عُدَّته، ويودِّع أهله الوداع الأخير، فبكت أمه وناحت زوجته، وصاح ولده، فبكى لبكائهم، ورنَّ لرنينهم، لا جزعًا من الفراق؛ لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى، ولا خشيةً من الموت؛ لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يضنَّ صاحبها بروحه في سبيل الله حرصًا عليها، بل مخافة أن تستبدَّ بأعراض بيته وحرماته تلك الأيدي الظالمة التي لا ترحم صغيرًا ولا تعطف على كبير، أو أن يهلكوا من بعده جوعًا وفقرًا؛ لأنه لم يترك لهم قوتًا يتبلَّغون به ولا عمادًا يعتمدون عليه، فإذا علم أن موقفه بينهم موقفٌ جللٌ يكاد يُغلب فيه على أمره حزنًا وإشفاقًا، نظر في زرقة السماء نظرةً طويلة أرسل فيها إلى حضرة ربه كلَّ ما تهتف به نفسه القريحة من وَجْدٍ ورحمةٍ وبكاءٍ وحنين، ثم انفتل من بين أيديهم انفتالًا، ومضى لسبيله لا يلوي على شيءٍ مما وراءه حتى يبلغ ساحة الحرب، فلا يزال يقرع باب الحياة الأخرى حتى يُفْتَح له.

هنالك تنوح النائحات، وتبكي الباكيات، وتطير النفوس وتُصعق القلوب، وترنُّ المنازل والدور بالنحيب والتعديد، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم ترَ في حياتها وجه الشمس إلا من كُوَّةِ بيتها بارزة الوجه، عارية الرأس، حَيْرى مولَّهة هائمة في الطرق والمذاهب، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها. فإما بقيت في حَيرتها بياض يومها وسواد ليلها، وإما عادت إلى بيتها بالثُّكْلِ القاتل والحزن الدائم. وترى الشيوخ الكبار، والأطفال الصغار والعاجزين والضعفاء لائِذِينَ بالتلال والآكام يتقون بها صواعق الحرب وشهبها فلا تقيهم، أو عائذين بالمضايق والمنافذ يفرُّون إليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم. وهنالك ترى أولئك القوم الذين يسمُّون أنفسهم مجاهدين أو فاتحين، أو قوادًا عظامًا أو سُوَّاسًا كبارًا يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مِشية الفرِح المختال، وينظرون إلى أولئك القوم الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم نظر السيد إلى مولاه الذي ملك ولاءه بماله، واستعبده بفضله وإحسانه. وربما رمَوا إليهم في تلك الساعة بلقيماتٍ كتلك التي يلقيها سيد الكلب إلى كلبه، أو صاحب الماشية إلى ماشيته؛ ليُشْهِدُوا العالم الإنسانيَّ بأجمعه على كرمهم وسخائهم وعطفهم ورحمتهم، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الأوصال ولا يَتَّمُوا الأطفال، ولا انتهكوا الحرمات، إلا خدمةً للإنسانية العامة وإجلالًا لشأنها.

لا أحسب أنَّ مسلمًا دخل الإيمان قلبه، فملأه رحمة وإحسانًا وعطفًا وحنانًا يستطيع أن يتَّخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعًا، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قرارًا؛ حزنًا على

هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الأرض ومغاربها يتلمَّسون ناصرًا يعينهم على أمرهم، أو مُنجدًا يدفع عنهم عادية البلاء، فلا يجدون إلا أممًا إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل، فهي تعجز عن النظر لنفسها فأَحْرَى أن تعجز عن النظر لغيرها. فلم يبقَ بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يُمِدُّوهُمْ بقليلٍ من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم، ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعًا من بعدهم.

أيها المسلمون

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفًا هو أقرب إلى الله، وأدنى إلى رحمته وإحسانه، وأجلب لمغفرته ورضوانه من موقفكم بين هؤلاء الضعفاء المساكين تطعمون جائعهم، وتكسون عاريَهم، وتسلحون أعزلهم، وتعالجون جريحَهم، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده.

إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا إلى أنفسكم، وإن تنقذوهم من كُربتهم تنقذوا جامعتكم وملَّتكم، فإن بينكم وبينهم لُحْمةً أقوى من لُحمة النسب، ووشيجةً أوثق من وشيجة القربى، وإنكم جميعًا تصلُّون إلى قبلةٍ واحدة، وتهتفون في الغداة والعشي بذكرٍ واحدٍ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم إلى إلهٍ واحدٍ، وتقفون في بيت الله وحرمه بين الركن والمقام موقفًا واحدًا.

أيها المسلمون

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غدًا، وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده، وإنكم إن قدَّمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم، ووفَّى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته، وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

خطبة الحرب

يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، وذادة المعاقل والحصون، صبرًا قليلًا في مجال الموت، فها هي ذي نجمة النصر تخفق في آفاق السماء، فاستنيروا بنورها واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم.

إنَّ الله وعدكم النصر، ووعدتموه الصبر، فأنجزوا وعدكم ينجز لكم وعده.

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار، فوالله إن فررتم لا تفرون إلا عن عِرضٍ لا يجد له حاميًا، ودِينٍ يشكو إلى الله قومًا أضاعوه، وأنصارًا خذلوه.

إنكم لا تحاربون رجالًا أشدَّاءَ بل أشباحًا تتراءى في ظلال الأساطيل، وخيالاتٍ تلوذ بأكناف الأسوار والجدران، فاحملوا عليهم حملةً صادقة تطير بما بقي من ألبابهم، فلا يجدون لبنادقهم كفًّا ولأسيافهم ساعدًا.

إنهم يطلبون الحياة وأنتم تطلبون الموت، ويطلبون القوت وتطلبون الشرف، ويطلبون غنيمةً يملئون بها فراغ بطونهم، وتطلبون جنةً عرضها السموات والأرض، فلا تجزعوا من لقائهم، فالموت لا يكون مر المذاق في أفواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله وتثقون بعدله ورحمته، فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين، فما كان الله ليخذلكم ويكلكم إلى أنفسكم وأنتم من القوم الصادقين.

إنَّ هذه القطرات من الدماء التي تسيل من أجسامكم ستستحيل إلى شهبٍ ناريةٍ حمراء تهوي فوق رءوس أعدائكم فتحرقهم. وإنَّ هذه الأنات المترددة في صدوركم ليست إلا أنفاس الدعاء صاعدةً إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم، والله سميع الدعاء.

إنَّ أعدائكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نسائكم، وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلاء فساقوهم إلى حفائر الموت سوقًا، فماذا تنتظرون بأنفسكم؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم، واصدقوا حملتكم عليهم وجعجعوا بهم، واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيلٍ، وتحت كل أرضٍ وفوق كل سماء، وأزعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقظتهم ومنامهم، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين!

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبورًا، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا يكون حفرةً من حفر النار.

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين، ولا الواسطة بين الطرفين، ولا العيش الذي هو بالموت أشبه منه بالحياة، بل اطلبوا إما الحياة أبدًا وإما الموت أبدًا.

غدا يخفر أعداؤكم حرمة أرضكم وديياركم، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم، ويطئون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم، وينظمون في ثقوب آنافكم مقاود يقودونكم بها إلى مواقف الذل والهوان كما تقاد الإبل المخشوشة إلى معاطنها، فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون.

موت الجبان في حياته، وحياة الشجاع في موته، فموتوا لتعيشوا، فوالله ما عاش ذليلٌ ولا مات كريم.

إنَّ هذه الأساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهها إليكم، والبنادق المسددة إلى صدوركم ونحوركم لا يمكن أن يتألف منها سورٌ منيعٌ يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار، فسيروا في طريقكم إلى آخرتكم؛ فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت.

المستميت لا يموت، والمستقتل لا يقتل، ومن يهلك في الإدبار أكثر ممن يهلك في الإقدام، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغي الموت.

إنَّ كُتَّاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسناتٍ أو سيئات. فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تجدونه في نفوسكم عندما تقرءون تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظماء.

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غدًا أذلاء.

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم، وتنشدوه فيعجزكم.

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم، وتغسلكم دماؤكم، وتصلي عليكم ملائكة الرحمن، قبل أن يسبق قضاء الله فيكم، فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه

مسلمًا يصلي عليه صلاة الجنازة، ثم يرافق نعشه إلى قبره حتى يودعه حفرته، ويخلي بينه وبين ربه.

إنَّ الشيخين أبا بكر وعمر، والفارسين خالدًا وعليًّا، والأسدين حمزة والزبير، والفاتحين سعدًا وأبا عبيدة، والمهاجرين طارق بن زياد وعقبة بن نافع، وجميع حماة الإسلام وذادته السابقين الأولين المجاهدين الصابرين يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم، فامضوا لسبيلكم، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم، وقولوا لهم: «إنا بكم لاحقون، وإنا على آثاركم لمهتدون.»

إنَّ هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم، فإنكم إن فعلتم لن يعبد اللهُ بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا!

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمةٌ، أو نزلت به نازلةٌ، وهي المُطَّلَعُ الذي تُشْرِق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه، وتكشف غماءه. وهي الحَكَمُ العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها. وهي السلطان المطلق الذي يجلس في كرسي عظمته وجلاله، فتخر له جميع الجباه سُجَّدًا، وتبتدر يديه لثمًا وتقبيلًا.

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الجوهرية الثابتة التي رأت طينة آدم أولًا، وسترى نفخة إسرافيل آخرًا، والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره، وسهله وحَزْنه، وحياته وموته، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره، وصلاحه وفساده، واستقامته واعوجاجه، لا يتغير لونها، ولا يتحول ظلها، ولا تستحيل مادتها، ولا تبلى جِدَّتها على كرِّس الليالي ومر الأيام.

ما من جامعة من الجوامع القومية أو الجنسية أو الدينية أو الأهلية إلا وهي تعتمد على الجامعة الإنسانية في سيرها، وتستظل بظلها، وتهتدي بهديها، فالمجاهد الوطني يقول: «إني أدافع عن وطني وأحمي حوزته، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد المناضل؛ لأني أعتقد أنني إن أغفلت ذلك وأغفله في وطني كلُّ مضطلع بمثل ما أنا مضطلعٌ به في وطني، تساقطت الحوجز القائمة في وجه المطامع البشرية، فجرى سيلها متدفعًا لا يقوم له شيءٌ حتى يأتي عليه.» والفاتح الديني يقول: «إني أعتقد أنَّ الإنسانية لا تزال معذبةً يأكل قويها ضعيفها، ويغتال كبيرها صغيرها، ويستضعف حاكمها محكومها حتى تدينَ بالدين الذي أدين به، فأنا إنْ حاربت البلاد وقاتلت العباد،

فإنما أريد أن أخوض هذا البحر الأحمر من الدماء لأصل إلى سفينة الإنسانية المشرفة على الغرق، فأستخلصها من يد الموت الذي يساورها.»

هكذا يقول دعاة الدين، ودعاة الوطن، ودعاة كل جامعةٍ، وهكذا يجب أن يقولوا، فإن لم يفعلوا وأَبَوْا إلا أن يُغفلوا الجامعة الإنسانية في دعائهم إلى جوامعهم التي يدعون إليها، فليعلموا أنَّ الإنسانية مِلاك كلِّ شيءٍ، فإذا ذهبت ذهب بذَهابها كلُّ شيء.

ليس لساكن وطنٍ من الأوطان، أو صاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسكن وطنًا غير وطنه، أو يدين بدين غير دينه: «أنا غيرك، فيجب أن أكون عدوك!» لأن الإنسانية وَحْدةٌ لا تَكَثُّرَ فيها ولا غَيْرِيَّةَ، ولأن هذه الفروق التي بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ومواطن إقامتهم وألوان أجسادهم وأطوالهم وأعراضهم، إنما هي اعتباراتٌ واصطلاحات، أو مصادفاتٌ واتفاقات تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكونه واستتمام خلقه، وتختلف عليه اختلاف الأعراض على الأجسام. ففي كل بلدٍ وفي كل يومٍ يستعجم العربي، ويستعرب الأعجمي، ويسلم المسيحي، ويتهود الوثني، ويلحد المؤمن، ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربي، ويستغرب المشرقي. ولو أشاء أن أقول لقلت: إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ينتهي طرفها الآخر بوطنٍ غير وطنه، ودينٍ غير دينه، وأمةٍ غير أمته.

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره جاز لكل بلدٍ أن يتنكر لكل بلد، بل جاز لكل بيتٍ أن ينظر تلك النظرة الشَّزْرَاءَ إلى البيت الذي يجاوره، بل جاز للأب أن يقول لولده، وللولد أن يقول لأبيه: «إليك عني، لا تمد عينيك إلى شيءٍ مما في يدي، ولا تطمع أن أُوثِرَكَ على نفسي بشيءٍ مما اختصصتها به؛ لأنني غيرك، فيجب أن أكون عدوك!» وهنالك تنحلُّ كلُّ عقدةٍ، وتنفصم كل عروةٍ، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغض والشحناء ما يرنق عيشه، ويطيل سُهْدَه، ويقلق مضجعه، ويحبب إليه صورة الموت، ويُبغِّض إليه وجه الحياة، وهنالك يصبح الإنسان أشبه شيءٍ بذلك الإنسان الأول في وحشته وانفراده، يقلب وجهه في صفحات السماء، ويفتش بيديه في طبقات الأرض، فلا يجد له في الوحشة مؤنسًا ولا على الهموم معينًا.

الجامعة الإنسانية أقرب الجوامع إلى قلب الإنسان، وأعلقها بفؤاده وألصقها بنفسه؛ لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف، وإن كان ذلك المصاب تاريخًا من التواريخ أو خيالًا من الخيالات؛ ولأنه لا يرى غريقًا يتخبط في الماء، أو محروقًا يتقلب في النار حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله، فيقف موقف الحزين المتلهف إن كان ضعيفًا، ويندفع اندفاع

الشجاع المستقتل إن كان قويًّا. ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب، فيخفق قلبه وتطير نفسه؛ لأنه يعلم أنَّ أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية، وإن لم يكن بينه وبينهم صلةٌ في أمرٍ سواها، ولولا أن ستارًا من الجهل والعصبية يُسْبِله كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء والبسطاء، لما عاش منكوبٌ في هذه الحياة بلا راحمٍ، ولا ضعيفٌ بلا معين.

لا بأس بالوطنية ولا بأس بالحمية الدينية، ولا بأس بالعصبية لهما والذياد عنهما، ولكن يجب أن يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها؛ أي أن تكون جميع دوائر المجتمعات باقية في أماكنها دائرةً حول نفسها، بحيث لا تخرج واحدة منها عن دائرة الإنسانية العامة التي تضمها جميعًا وتشتمل عليها. والوطنية لا تزال عملًا من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية، فإذا هي خيالاتٌ باطلة وأوهام كاذبة، والدين لا يزال غريزة من الغرائز المؤثرة في صلاح النفوس وهداها، حتى يتمرد على الإنسانية ويعتزلها، فإذا هو شعبةٌ من شعب الجنون.

فإن كان لا بدَّ للإنسان من أن يحارب أخاه أو يقاتله، فليحاربه مدافعًا لا طاعنًا، وليقاتله مؤدِّبًا لا منتقمًا، وليقف أمامه في كل ذلك موقف المحق المنصف والشفيق الرحيم، فيدفنه قتيلًا ويعالجه جريحًا، ويكرمه أسيرًا، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق، أو صديقه الحميم على ذُرِّيَّتِه من بعده، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله:

إذا احْتَرَبَتْ يومًا ففاضت دماؤها تذكَّرت القربى ففاضت دموعها

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمةً هائمةً متبديةً على الفطرة البيضاء النقية لا تعبث الحضارة بجمالها، ولا تُغبِّر المدنية في وجهها. تطلع الشمس في آفاقها فتتبسط على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها من حيث لا تعترض في سبيلها من المظلات سحبٌ ولا من السقوف حُجبٌ. وينبت نباتها حيث يجري ماؤها لا تعبث فيه الأيدي بتربيعٍ ولا تدوير، ولا تقويس ولا تعريج. ويجري ماؤها في سبيله متدفقًا حيث ينساب به تسلسله واطراده، لا تلوي به عن قصده الحفائر، ولا تتنصب في وجهه القناطر. ويهيم وحشها في جبالها، وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرينٌ موصودٌ، ولا الآخر قفص محدود. والشِّعْر من وراء ذلك كله مِرآة صافية، تتمثَّل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وجوهرها.

ينطق العربي بما يعلم، ويقول ما يفهم، ويصور ما يرى، ويُحَدِّث عما تمثل في نفسه حديثًا صادقًا لا تكلف فيه ولا تعمُّل؛ لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء، وأرض وسماء، وطعام وشراب، ومرافق وأدوات، على الفطرة السليمة الخالصة، فأَحْرَى أن يكون شِعْرُه كذلك.

ذلك كان شأن الشعر العربي — والعرب على فطرتهم — وذلك معنى قولهم: «الشعر ديوان العرب»؛ لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية، وتمثال خواطرهم الحقيقة والخيالية، فإن ظن ظانٌّ أنَّ التماثيل والنُّصُب، والمخطوطات والمنسوجات، والصور والتهاويل، وبقايا الآثار وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان والفينيقيين والفراعنة أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب، قلنا له: «ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وتحدَّث المؤرخون بعبث الأيدي به

ولعبها بسطوره وسجلاته، أما الديوان العربي فصورةٌ صحيحة، وآية مقدسةٌ لا تغيير فيها ولا تبديل.»

ثم جرت بعد ذلك جَوَارٍ بالسعد والنَّحْس، فانتقلت الأمة العربية من بداوتها إلى حضارتها، وهاجر معها شعرها بهجرتها، فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران المجيدان بشار وأبو نواس، فطرقوا معانيَ لم تكن مطروقة، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة، فقلنا: لا بأس، فالشعر العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته في جميع شئونها وحالاتها، حتى جاء أبو تمام شيخ المحسنات اللفظية، فسلك — إلى أكثر معانيه البديعة — طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المزخرف، فثغر في الشعر العربي ثغرةً ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صيروها بابًا أفوه، لا يمنع ما وراءه ولا يدفع ما أمامه. فأصبح الشعر على عهد ابن حجة، وابن الفارض، وابن مليك، والصفدي، والسراج، والجزار، والحلي، وأمثالهم، أشبه شيء بتلك الآنية الفضية — أو الصينية — التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم، وعلى أطراف موائدهم، ظهرًا زاهيًا، وبطنًا خاويًا، لا تشفي غلة، ولا تبض بقطرة، ولا تسمن ولا تغني من جوع، ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلةٍ أدون من هذه المنزلة، فجاءوا بشيءٍ هو أشبه الأشياء بتلك المقاييس والتفاعيل التي وضعها الخليل ميزانًا للشعر لا يروق لفظها، ولا يُفْهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر بضعة قرونٍ وقفةً لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل، حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلًا في هذا العهد الأخير أخذوا بيده، ونشروه من قبره، ونفضوا عنه غباره، فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم أجسام أبي نواس، وأبي عبادة، وأبي تمام، والشريف، وبشار، لا فرق بينهم وبينهم، إلا أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار، وأولئك مبتدعون يفترعون الأبكار.

حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيع أن أتصور الفرق بين رجلٍ يمد يده إلى خزينةٍ من خزائن بيتي فيسرق مالي، وبين آخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه. كلاهما مجرمٌ فاتك، وكلاهما لصٌ مغتال، وإن كان أولهما في نظر القانون وفي نظر الناس أكبرهما إثمًا، وأسوأهما أثرًا.

المال خادمٌ من خُدَّام الشرف، وحاجبٌ من حجابه للوقوف على بابه، ولولا مكان الشرف والكلف بصيانته والضَّنُّ به أن يعبث بجوهره عابثٌ، ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أربٌ أكثر من أن يقيم به صلبه ويمسك به حوباءه، فإن كان سارق المال مجرمًا من حيث كونه هاتكًا لذلك الستار المسبل دون الشرف، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه أن يكون رأس الجانين وأكبر المجرمين.

يكون للرجل من الصحفيين مثلًا عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم، مأربٌ من المآرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقًّا، ولا يمتُّ إليها بسببٍ من الأسباب الظاهرة أو الباطنة، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من مُرَيَّشَات سهامه يصيب به مَقْتلًا من شرفه، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يمكنه من لحيته يلف عُثْنُونها حول أصابعه، ثم يقوده بها إلى حيث شاء كما يقاد التيس إلى مَرْبَعه.

يحب الرجل المجد حبًّا يملأ ما بين جوانحه، ويغري به حتى يصبح آثر في نفسه من نفسه التي بين جنبيه، ويظل يقضي سواد لياليه يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه، ويطوي بياض نهاره بين شمسٍ تحرق عارضيه، وحصباء تمزق قدميه، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حربًا عوانًا، يحمل في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر كلفًا به ووجدًا عليه، حتى إذا أمكنه المقدار منه، وبدأ ينهل أول نهلةٍ من مورده البارد العذب، رآها ممزوجة بذلك العلقم المرِّ مما صبَّه له في إنائه ذلك المجرم الأثيم.

إنَّ بين جدران بعض قاعات الصحف قومًا مفاليك، قد دارت عيهم الأيام دورتها، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ممن وُلِدَ مولدهم، ونشأ في تربيتهم، فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو أنَّ الله أبقى لهم — بعد أن سلبهم فضيلة الفَهْمِ والعلم — مزية العمل الصالح، والسيرة المستقيمة. فلما لم يجدوا بين أيديهم منفذًا ينفذون منه إلى القوت، فتحوا حوانيت للتجارة بأعراض الناس سمَّوها صحفًا، وأكثر مشتملات حوانيتهم من تلك البضاعة: أعراض الأشراف والعظماء، وأرباب الجِدّ والعمل الذين سبقوهم إلى فردوس السعادة، وخَلَّفُوهم وراءهم يتأَكَّلون غيظًا؛ لحرمانهم مما قسم الله لهم، فَهُم إن فتشت عنهم، وكشفت عن دخائل نفوسهم، علمت أنْ لا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل العظماء والأمراء، وأستغفر الله! فللفوضويين مبدأٌ منظمٌ يتقلَّدونه، ورأيٌ في تلك الجرائم على ما به من خطل يتمذهبون به من حيث كونه عقيدةً ثابتة لا تجارةً رابحة، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين، ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزوَّدون وهم مُقْفَرو الأيدي من الزاد.

ولقد كان يكون خطبهم سهلًا ومصابهم محتملًا لو أنهم صرَّحوا عن أنفسهم، وأبدَوا للناس صفحات وجوههم، وطلبوا قُوتَهُم من طريق الكُدْية الواضحة البينة، ولكنهم مُراءون مُخادعون يشتمون باسم الموعظة، ويقرضون الأعراض باسم النصيحة، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية، ويملئون فضاء الأرض والسماء كذبًا وابتداعًا وتدليسًا وتضليلًا باسم الوطنية، ووالله ما بهم من وطنيةٍ ولا دين، ولا عظة ولا نصيحة، ولكنهم قوم محدودون قد بلغت الفلاكة من نفوسهم مبلغها، وضاقت بهم الأرض الفضاء على رحبها، فهم يُرَوِّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء، وتنغيص لذة السعداء، ويطلبون قُوتَهُم فيما بين ذلك من يد تلك الفئة الساذجة من الأمة التي لا تستطيع أن تفرق بين أشراف الصحافة والدخلاء فيها، وبين الكاتب الذي يكتب لِيُقَوِّمَ مُعوجًّا، أو يصلح مختلًا، أو يرفع بدعةً باطلةً، أو يكشف حقيقةً خافية، والآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس صعودًا وهبوطًا، والذي لا يلذه شرب الماء، إلا ممزوجًا بالدماء. ووالله ما أدري من الذي أقامهم هذا المقام وعهد إليهم بهذا العهد؟! ومن الذي وكل إليهم النظر في شئون الناس والفصل في قضاياهم والقيام على حسناتهم وسيئاتهم؟ إنهم ليسوا بالبررة الأتقاء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلةً حسنة في منازلهم فيكونوا قدوةً صالحة في أمتهم، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم ونترسَّم مواقع أقدامهم، ولا بالصادقين المخلصين الذين يؤثرون أمتهم على أنفسهم فنتعبد بإجلالهم

وإعظامهم. بل ليس لواحدٍ منهم فضل الصانع في مصنعه ولا التاجر في حانوته، فضلًا عن الوزير في كرسيه والأمير في عرشه، فيصلح أن يكون حكمًا بينهم، وميزانًا لحسناتهم وسيئاتهم، وعندي أن لو جمعت عيوب الناس جميعها في كفة ميزانٍ ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة، والكذب، والنميمة والتجسس، وهتك الأعراض، واتهام الأبرياء، واستهواء الضعفاء، لثقلت كِفَّتهم أمام كِفَّة الذين يزعمون أنهم يُقَوِّمُون معوجهم، ويصلحون فاسدهم!

الرثاء

ما أنسَ لا أنسى رجلًا كان خير من لقيت من الرجال، وكان يعجبني منه أدبه وفضله وعفَّته وحياؤه وشرف نفسه وطهارة قلبه، وأنه كان صبورًا محتملًا، تقرع الخطوب صفاة قلبه، فترتد عنها نابيةً كما ترتد الكرة عن الحائط إذا قرعتها.

كان فقيرًا لا يملك من هذه الدنيا أكثر مما يقيم صلبه، ويمسك حوباءه، ويستر سوءته، فزوجه أبوه بابنة عمٍّ له ذات مالٍ، لم يكُ مثلها في دمامتها وسوء خلقها وجفاء طبعها ممن يطمع في مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه؛ لأنه كان برًّا به مطيعًا له، نازلًا عند أمره ونهيه، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانقباض عنها؛ لأنه كريم الأخلاق واسع الصدر، رفيقًا بالضعفاء والمنكوبين، فتزوجها وفي نفسه من المضض والارتماض ما يلهب الجوانح، ويذيب لفائف القلوب.

وأذكر أني على طول معاشرتي له ولصوقي بنفسه ما سمعته ولا سمعت عنه أنه شكا إلى أحدٍ من الناس ما يواثب قلبه عند النظر إليها، أو إلى ما يدب من عقارب شرها إليه، ثقةً منه بالله ورحمته، وإيثارًا لفضيلة الصبر، وسكونًا إلى ما جرت به الأقلام في ألواح المقادير، فكنت أرحم صمته وسكونه، وأبكي لجمود عينيه عن البكاء؛ لأني أعلم أنَّ نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات.

وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأنعمها أنه كان يسافر في كل شهرٍ مرةً أو مرتين إلى صديقٍ له في بلد ريفي ناءٍ يقضي فيه يومين أو ثلاثة، ثم يعود وفي ثغره ابتسامةٌ تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح عند انحدارها إلى الغروب، ثم لا تلبث أن تتلاشى، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول، لا يحزن فيبكي ولا يفرح فيبتسم، حتى يُخَيَّل للناظر إليه أنه في عالم غير هذا العالم، لا يظله ليل ولا يضيئه نهار.

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من آلام قلبه ما يحسب أني أجهله، فأكاتمه ذلك العلم جهدي رفقًا به وإجلالًا وإشفاقًا عليه، حتى زرته في منزله ذات يومٍ فرأيته جاثمًا في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد أطرق إطراقًا طويلًا ذهب فيه عن نفسه، فلم يشعر بخفق نعلي حتى أخذت مكاني، فرفع رأسه، فأدهشني من منظره اصفرار وجهه، وذبول عينيه، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه، ثم نظر إليَّ نظرةً طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل، ثم قال بصوتٍ خافتٍ مضطرب: «أتعتقد أنَّ الله موجود؟»

فقلت: «نعم»؛ معالجًا نفسي على كتمان ما كاد يذهب بلبي من تنكر حاله وغرابة أمره.

فقال: «وتعتقد أنه عادل؟»

قلت: «نعم.»

قال: «وراحمٌ؟»

قلت: «نعم.»

فبسط يده إليَّ فعل الضارع المستصرخ، وقال: هل لك أن تحدثني أيها الصديق عن نزول الصواعق، وثورة البراكين، وطغيان البحور، وغرق السفن، وانتشار الأوباء، وفتك الأدواء، ونكبات الفقر والجوع، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بالآلام والأحزان؟ هل تعتقد أنَّ ذلك كله عدلٌ من الله ورحمة؟

قلت: «نعم، إنَّ الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا، فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها.»

قال: «إنَّ الله أكرم من أن يجعل الشر طريقًا إلى الخير، وألا يحسن إلا بعد أن يسلف الإساءة!»

قلت: «ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عاملٍ بعمله إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشر.»

قال: «إنه قد كتب على نفسه الرحمة.»

قلت: «نعم، إنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء.»

قال: «حدثني إذن عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسَه شرٌ ولم يتسرب إلى قلبه كيدٌ، ما لي أراه مفترشًا حجر أمه، وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل شوك القتاد من الآلام التي تساوره، فيثب تارةً ويضطرب أخرى، ويصرخ صرخاتٍ تستمطر المدامع

وتحول بين الجنوب ومضاجعها؟! وما لي أرى أمه باكيةً مولهةً مقرحة الجفون، منحلة الشعور موجعة القلب، تفزع لفزعاته وتصرخ لصرخاته، وقد اختبل عقلها واضطرب أمرها، وعظم يأسها وفنيت حيلتها، وقل مساعدها، وضعف ناصرها، فأنشأت تقلب وجهها في السماء ضارعةً إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها، ويرحم نفسها برحمة ولدها، وبينا هي تنتظر صوت الإجابة يرن في أفق السماء، إذ بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها، وإذا به ينزع نزعًا مؤلمًا يطير باللب، ويذهب ببقية الصبر حتى تفيض نفسه، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة؟!»

قلت: «وما يدريك؟ لعل الله أراد به خيرًا فرحمه بالموت المعجل من حياةٍ علم أنه سيلقى فيها — كما تلقى أنت اليوم — عذابًا أليمًا وشقاء ممضًّا.»

فنالت هذه الكلمة من نفسه وانتفض لها، ثم قال: «أحسنت يا صديقي، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا وحقارة شأنها، فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم، ولم يكتب لهم سطرٌ واحد في ألواح المقادير. وبعد، فهل لك في سفرةٍ معي إلى صديقي الريفي نقضي عنده يومًا واحدًا ثم نعود، على أن تكون معي كما كان فتى موسى مع مولاه فلا تسألني عن شيءٍ حتى أحدث لك منه ذكرًا؟»

فوافيت رغبته، وقبلت شرطه، ثم قام وقمت، وبودِّي لو ملكت الدنيا بحذافيرها لحظة واحدة لأهبها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على نكبته التي زعزعت نفسه وصهرت قلبه وملكت عليه لبه وكادت تعبث بيقينه. وما هي إلا ساعات قلائل حتى كنا في المنزل الذي أردناه، وقد أظل الليل بجناحيه، فقضينا واجب التحية والسلام، ثم خلا الصديق بصديقه خلوةً طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهما، ثم خرجا إليَّ، فجلسنا ساعة نتحدث، ثم قمنا إلى فراشنا، فنمت نومًا متقطعًا مملوءًا بالوساوس والهواجس. فما انتصف الليل حتى شعرت أنَّ صديقي يتحرك في فراشه، وينظر إليَّ ليعلم أنائم أنا أم مستيقظ، فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى حتى وصل إلى مشجب الملابس، فلبس أثوابه، ثم خرج من الغرفة، فخفق قلبي خفقة الرعب والفزع، وقلت: «لا بد أنَّ الرجل يريد بنفسه شرًّا، وإني أكون ألأم صديقٍ إنْ أنا تركته وشأنه!» فقمت على أثره أترسم خطواته، وأتتبع مخرجه ومدخله من مدرجةٍ إلى أخرى حتى بلغ ضاحية البلد، ثم استمر في شأنه حتى أطل على مقبرة واسعة قد جثمت قبورها في أرجائها جثوم الآبال في مرابعها، فوقف هنيهةً ثم مشى، فمشيت على أثره من حيث لا يشعر بمكاني منه، ثم أنشأ يتصفح القبور قبرًا قبرًا، فَخُيِّلَ لي أنه شبحٌ من أشباح

الموتى يتنقل في أرجاء تلك المقبرة، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا إجلالي هذا الموقف المرهب، وشعوري أنني واقف على أبواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين عقولهم، وأطار طائر الاغتماض عن أجفانهم، ونغص عليهم ما يتمنون أن ينعموا به من مطاعمهم ومشاربهم، والتي يفد إليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي آبائهم وأمهاتهم، ليقدموهم بأنفسهم هدايا ثمينة إلى الدود، ثم يخلون بينهم وبينه يأكل لحومهم، ويمتص دماءهم، ويتخذ من أحداق عيونهم، ومباسم ثغورهم مراتع يرتع فيها كما يشاء بلا رقبى ولا حذر من حيث لا يملك مالك عن نفسه دفعًا، ولا يعرف إلى نجاةٍ سبيلًا.

مرت بخاطري تلك الذكرى، فملكت عليَّ نفسي حتى ذهلت عن موقفي، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة في أمر صديقي، وفيما ساقه إلى هذا الموطن، وأين يذهب، وماذا يريد، وعمَّ يفتش؟ ثم استفقت، فرأيته جاثيًا فوق قبر من تلك القبور جثو العابد أمام معبده، فدلفت إليه حتى دنوت منه، فسمعته يقول:

اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بنعمتك، ولا خفرت ذمتك، ولا هتكت حرمةً من حرمك، ولا نزلت عند سخطك، ولا تبرمت بقضائك وقدرك، وأنك جازيتني فأحسنت جزائي، ووهبتني تلك الفتاة، فكانت كل ما أفدت من نعيم هذه الحياة وهنائها، ثم لم تلبث أن سلبتنيها وشيكًا أشوق ما كنت إليها وإلى قضاء ساعات العمر بجانبها، فاغفر لي جزعي وحزني، فكثيرٌ عليَّ ألا أجزع ولا أحزن.

لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وكأنما استحالت في نظري حقائق الأشياء، فأصبحتُ لا أرى في النجمة لألاءها، ولا في الزهرة جمالها، ولا في السماء صفاءها، ولا في البحر جلاله، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى ذهبت فذهب بذهابها كل شيء؟!

ذهبت بي الأيام كل مذهبٍ، وجرعتني من كئوس الشقاء جرعًا ما احتمل فمٌ قبل فمي مرارتها، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي؛ لأنها أسدت إليَّ صنيعةً كانت هي العزاء لي عن هموم الحياة وأحزانها، أما اليوم وقد صفرت منها يدي، وأقفر بفراقها ربعي، وحالت تلك الصفائح بيني وبينها، فلا سلوى ولا عزاء.

من لي بضربةٍ من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي فلا أعود أذكر أيام حياتها ومقعدها بجانبي، وابتسامها إليَّ واعتناقها إياي، وصوتها الرقيق وحديثها العذب، وصفاء عينيها، وجمال وجهها، وقيامها وقعودها، وجيئتها وذهوبها، وضحكها وبكاءها، ويقظتها ومنامها، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي؟! فإني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال إلى أفلاذٍ صغيرةٍ لا يلوي بعضها على بعضٍ.

اللهم إني أعلم أنَّ الدنيا ليست بدار قرارٍ، فلا أمل في البقاء فيها والركون إليها والاستمتاع بلذة الحياة فيها، وأنها الجسر الذي يمر به الأحياء إلى الدار الأخرى، وقد أحسنت إلى كل عبدٍ من عبيدك برفيقٍ يكون عونًا له على قطع تلك الشقة، واختصصتني وحدي بالحرمان من ذلك المعين، فكيف أسير؟ وأين أذهب؟ ومن أين أبتدئ؟ وإلى أين أنتهي؟

اللهم إنك سلبتني كل شيءٍ حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم، ويطفئ بها المحزونون لوعات قلوبهم، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في قدر محكمة الغطاء، فامنن عليَّ بدمعةٍ واحدة أبرد بها غليلي، ولا أحسب أنك تمنعنيها، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك أن تعالج بها جراح المنكوبين.

اللهم لا ريبة في عدلك، ولا ظنة في كرمك، ولا اعتراض على قضائك وقدرك، ولا سخط في ابتلاك ومحنتك، ولكنك سلبتني عقلي بعدما سلبتني راحتي وهنائي وفتاتي، فخرج أمر نفسي من يدي، وأصبحت لا أعرف لي مذهبًا في هذه الأرض ولا مضطربًا.

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة فلا تمنعني حظي من الموت، فاستردَّ إليك عاريتك التي أعرتنيها، فقد عجزت عن احتمالها، وضقت ذرعًا بأمرها، إنك بعبادك رءوف رحيم.

وما أتم كلمته هذه حتى سقط على صفائح القبر مكبًّا على وجهه، فعلمت أنَّ المرجل قد انفجر، وأنَّ الله قد اجتبى هذا الرجل لنفسه، واختار له ما عنده. فصرخت صرخةً كانت ثانيةً لصرخةٍ أخرى بجانبي، فالتفت فإذا صديقه واقفٌ ورائي، فدنونا منه معًا وحركناه فإذا هو ميت. فنقلناه إلى المنزل، وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارةً بالدموع وأخرى بالخشوع، وهنالك قص عليَّ صديقه قصته، وكشف لي عن ذلك السر

الذي كان يكتمه عني، فحدثني أنه قضى زمنًا طويلًا يشكو إليَّ ما يجد في نفسه من البغضاء لزوجته التي زوجه أبوه منها على الرغم منه، فخفت عليه التلف حزنًا وكمدًا، فزوجته منذ عشر سنين بأختي سرًّا من حيث لا يعلم أبوه؛ لأنه كان يخاف غضبه، ولا زوجته؛ لأنه كان يرحمها. فكان يزورنا في كل شهر مرة أو مرتين حتى ماتت تلك الأخت رحمة الله عليها وتركت له هذه الفتاة، فما زال يزورها كما كان يزور أمها، ويعزي بالثانية نفسه عن الأولى. فشغف بها شغفًا بلغ به حد الجنون، وكان كثيرًا ما يقول لي: «إني أشعر أن حياتينا حياةٌ واحدة، وأنَّا إما أن نعيش معًا، أو نموت معًا.» وكأنه ألهم بما سيكون، فحُمَّت الفتاةُ منذ ستة أيام، فما نشبت أن هصر الموت غصنها النضير، ولم تسلخ ثماني حججٍ، فنعيتها إليه بكتابٍ أرسلته له، فجاء وجئت معه، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون.»

دفنت صديقي بيدي، وألحدته بجانب تلك الصغيرة التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظةٍ واحدةٍ شوقًا إليها ووجدًا عليها. ثم عدت إلى بلدتي صفر اليد من ذلك الإنسان الذي كنت مالئًا منه يدي، والذي كنت أجلُّه وأعظمه حيًّا، ولا أزال أبكيه وأذكره ميتًا، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بموقف الصبر والجلد والوفاء والكرم درسًا أتعلمه، وأعلمه الناس حتى يجمع الله بيني وبينه:

كفى حزنًا بموتك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الشعر

كتب إليَّ كاتبٌ يقول: «عرفناك قبل اليوم شاعرًا ما تكتب فقرةً، ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تنظم بيتًا، فلم لم تكتب في عهدك الأول، ولم تنظم في عهدك الثاني؟» كأنما ظن — عافاه الله — أني أكتب اليوم بقلمٍ غير قلم الأمس، أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادي، وهل الشعر إلا نثارةٌ من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعرًا، وينثرها الكاتب إن شاء نثرًا، أو نغمةٌ من نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرةً من أفواه البلابل والحمائم، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر، أو عالمٌ من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين من عروضٍ وقافية، أو خافيتين من فِقَرٍ وأسجاعٍ.

الكاتب الخيالي شاعرٌ بلا قافية ولا بحر، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغٌ تعرض للكلام فيما يعرض له من شئونه وأطواره، لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته، ولولا أنَّ غريزةً في النفس أن يردد القائل ما يقول، ويتغنى بما يردد ترويحًا عن نفسه وتطريبًا لعاطفته، ما نظم ناظمٌ شعرًا ولا روى عروضيٌّ بحرًا.

ما كان العربيُّ في مبدأ عهده ينظم الشعر، ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضه، وما علله وزحافاته، ولكنه سمع أصوات النواعير، وحفيف أوراق الأشجار، وخرير الماء، وبكاء الحمائم، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة، ولذ له أن يبكي لبكائها وينشج لنشيجها، وأن يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم منه إلا أنه ذلك الخيال الساري المتمثل في قريحته، المتردد بين شدقيه، ولا من أوزانه وضروبه إلا أنها صورةٌ من صوره، ولونٌ من ألوانه.

ذلك منتهى نظر العربي إلى الشعر، وذلك ما دعاه إلى أن يسمي النبي الذي بعثه الله إليه شاعرًا، وهو يعلم كما يعلم غيره من الناس أنه ما قصَّد في حياته قصيدة، ولا رجَّز أرجوزةً، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس، وآخذه بالألباب، وأملكه للعواطف والوجدان، وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة والكنايات المستطرفة، وأمثال تيك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري، فشبه له، فسمى ما سمعه شعرًا، وسمى الناطق به شاعرًا، وما هو بشاعرٍ ولا ساحرٍ، ولا كاهن ولا مجنون.

ما كل موزونٍ شعرًا، ولا كل ناظمٍ شاعرًا، فالوزن ملكةٌ تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم، والتغني به مقطعًا تقطيعًا يوازن تفاعليه، فهو نغمةٌ موسيقيةٌ ولحن خاص من ألحان الغناء يتمثل في قول الملك الضليل:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

كما يتمثل في قول الخليل: «فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن.» ويتراءى في أوتار الحلق الناطق، كما يتراءى في أوتار العود الصامت.

أما الشعر فأمرٌ وراء الأنغام والأوزان، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسناء، أو الوشي في ثوب الديباج المعلَّم، فكما أنَّ الغانية لا يحزنها عطل جيدها، والديباج لا يزري به أنه غير معلَّم، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظومٍ ولا موزون.

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم، وهأنتذا ترى أنْ لا صلة بينهما إلا تلك الصلة الاصطلاحية التي لا سبب لها إلا اعتياد الناس أنهم ينظمون ما يشعرون. وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما، وعمت على كثيرٍ من الناس أمرهما، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء، وألقت عليهم جميعًا رداء واحدًا لا يستطاع معه التمييز بينهما إلا للقليل من الناقدين المستبصرين، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيتٍ فلا نجد بيتًا، ونتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة، وأصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئًا غير شاعر؛ لأنه لا يوجد في الناس شخصٌ واحد يعجزه تصور تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين.

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وافتنُّوا في ذلك افتنانًا بَعُد به عن مكانه، وعندي أنَّ أفضل تعريف له أنه «تصويرٌ ناطقٌ»؛ لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير، وميزان جودته ما يترك في النفس من الأثر، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه، وتصوير ما في نفسه للسامع تصويرًا يكاد يراه بعينه ويلمسه ببنانه، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه، يبكي لبكائه ويضحك لضحكه، ويغضب لغضبه ويطرب لطربه، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، ورياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغمها، وناطقها وصامتها، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدمًا، ولا يلاقي في سبيله نَصَبًا.

فإن سمع قول القائل:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ	سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حُنُوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زُلالا	ألذ من المُدامة للنديم
يصد الشمس أنَّى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
يروح حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

خيل إليه أنه يخطر في ذلك الروض البليل، بين أنواره وأزهاره، خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره، وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحات، وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء، فتولَّهن وفزعن إلى جوانب عقودهنَّ يلمسنها بأطراف بنانهنَّ يحسبن أن قد وهت، فانتثرت جواهرها في ذلك الروض الأريض.

وإن سمع قول الآخر:

ودار ندامى عطَّلوها وأدلجوا	بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارس
حبست بها صحبي وجمعت شملهم	وإني على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثًا	ويومًا له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجديةٍ	حَبَتْها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها	مهًا تدريها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها	وللماء ما دارت عليه القلانس

تمثل له كأنه مر في ضاحيةٍ من ضواحي بغداد بدارٍ موحشة، فسمع فيها أصوات قومٍ يلهون ويقصفون ويقرعون الكئوس بأمثالها، فاقترب منها وأطل من خَصَاصِ بابها، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دَنٍّ من الخمر قد تكاملت سِنُّهُ، وشيَّب الدهر فَوْدَيْه ففصدوه، فسال دمه الأحمر في كئوسٍ من الذهب منقوشةٍ نقوشًا فارسية، قد استقرت في قرارتها صورة كسرى فارس، ودارت في باطنها صور فرسانه متنكبي قسيهم، كأنما يطاردون بقر الوحش أمامهم، ورآهم يملئون الكئوس إلى ما يوازي أعناق أولئك الفرسان، ثم يمزجونها بالماء إلى ما يغطي رءوسهم، فتسلل من مكانه مغتبطًا بمجمعهم، وبما هيئ لهم من الهناء والنعمة فيه، ثم مرَّ بتلك الدار بعد أيام، فرآها مقفرةً من أهلها لا تسمع بها نغمة ولا نأمة، فدخلها، فلم ير فيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها مبعثرةً في جوانبها، وخطوطًا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوها ورواحها بين أولئك الندماء، فانصرف حزينًا مكتئبًا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها، فيردد قول القائل:

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالًا بعد حال

وإن سمع قول الآخر:

ويومٍ كتنُّور الإماء سجرنه ... وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسي في أجيج سمومه ... وبالعيس حتى بَضَّ مِنْخَرُها دما

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه، فيشيح عنه فرارًا من لفحاته، ويكاد يبكي رحمةً لذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله، وحالت بينه وبين نفسه، فلا هو بصابرٍ إنْ رام صبرًا، ولا بناجٍ إن أراد نجاءً.

وإن سمع قول الآخر:

وارحمتا للغريب في البلد النا ... زح ماذا بنفسه صنعا!
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه وجدًا على ذلك الغريب الحائر، وتمنى أنْ لو رآه في بعض مذاهبه وعطف عليه وآنس وحشته، وخفض لوعته، ثم أخذ بيده فأنزله من نفسه منزلًا كريمًا، وأبدله أهلًا بأهلٍ وجيرانًا بجيران.

وإن سمع قول الآخر:

وإنَّ الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدًّا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنحسٍ تمر بي ... زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنًى ... وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا ... وما شيمةٌ لي غيرها تشبه العبدا

أكبر تلك المكرمة العظيمة وأجلها، ونظر إليها في علياء سمائها كما ينظر الفلكي إلى كوكبه، وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى جوانب نفسه، فأضاءها.

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ! فلطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيدُ البرامكةَ عندما دسَّ له أعداؤهم ذاك المغني الذي غناه هذا الصوت:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل عليه سديف مولاه، وأغراه في قوله:

لا تقيلن عبد شمسٍ عثارًا ... واقطعن كل رقلةٍ وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم ... وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس

فلقد ساءني وساء سوائي قربهم من نمارقٍ وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب على الحُطَيْئَةِ وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ حمر الحواصل لا ماءٌ ولا شجر؟
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي ﷺ قول قتيلة بنت الحارث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحارث على رحمه منه، واتصال نسبه به:

أمحمد يا خير صنو كريمةٍ في قومها والفحل فحلٌ معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلةً وأحقهم إن كان عتقٌ يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق!

فبكى وقال وهو من لا ظنة في عدله، ولا ريبة في حكمه: «لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته.»

لا مؤثر في نفس الإنسان غير الشعر، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته إلا للشعر، وللشعر الفضل الأول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ من الكمال. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقًا وصامتًا؛ أما الناطق فقد عرفته، وأما الصامت فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال شعرٌ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصور خواطر القلوب ووجداناتها، فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق وعاطفة الحماسة في نفس الجندي شعرٌ، وهدير الأمواج شعرٌ؛ لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام الليل شعرٌ؛ لأنه يطلق دموع الباكين، وحفيف أوراق الأشجار شعر؛ لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق، وبكاء الحمائم شعر؛ لأنه يمثل فجعة البين ولوعه الفراق.

تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرةً، وفم الطبيعة مرةً أخرى، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة والهناء حتى أحببناها وولعنا بها وحرصنا عليها، وأعددنا العدد للبقاء فيها والسكون إليها، فكتبنا ودونا، وألفنا واخترعنا، وتعلمنا فعلمنا، وبنينا فشيدنا، وغرسنا فجنينا، وعملنا فربحنا، واجتهدنا فأثرينا، وأملنا فسعينا، وسعينا فبلغنا، فكأن الشعر سر هذه الحياة

وعلة هذا الوجود، لا تطير إلينا الحقائق إلا على جناحيه، ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره. فلنمجد الشعراء كل التمجيد، ولنكبرهم كل الإكبار؛ فهم مشارق شموس الحكمة، وأفلاك كواكب العلم والفضل، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها ثم يتسرب إلى الأفئدة والقلوب فيملؤها سعادةً وهناءً.

الشهيدتان

لم تغتمض عيناي ليلة أمس؛ لأنني بت أسمع في الدار اللاصقة لبيتي أنين امرأةٍ متوجعةٍ تعالج همًّا ثقيلًا، وتشكو مرضًا أليمًا، وكان يُخيل إليَّ أني لا أسمع بجانبها معللًا يعللها ولا جليسًا يتوجع لها، فلما أصبح الصباح ذهبت إليها، فإذا قاعةٌ صغيرةٌ مظلمةٌ لا تكاد تشتمل على أكثر من سريرٍ بالٍ يتراءى فوقه شبح ماثلٌ من أشباح الموتى، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها، وكأنها شعرت بمكاني، فحركت شفتيها تطلب جرعة ماءٍ، فأسعفتها بها فاستفاقت قليلًا، ثم تقدمت نحوها أسائلها عن خطبها، فأنشأت تقص عليَّ قصتها بصوتٍ خافتٍ متقطعٍ كنت أكاد أنتزعه منها انتزاعًا، وتقول:

زوجني أبي منذ سبع سنين من رجلٍ مزواج مطلاق، لا يكاد يصبر على امرأةٍ واحدة عامًا واحدًا. ولو كان لفتاةٍ أن تستبد بأمرها من دون أوليائها لأحسنت الاختيار لنفسي. بل لو لم يكن في الأمر إلا أن أتبتل أو أصير إلى هذا المصير لكان لي في الرهبانية رأيٌ غير ما يراه فيها النساء. ولكنني عجزت، فأذعنت وزففت إليه، فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه عنده وأكرمهن عليه، فكان يريبني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الأسد، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر القاتل يوم القصاص. فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب، فتزوج فبنى، وأني أصبحت في المنزل وحيدةً لا مؤنس لي إلا طفلتي الصغيرة. فجزعت عند الصدمة الأولى، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا أملك رده، ولا أعرف وجه الحيلة فيه، واحتملت طفلتي إلى بيت أبي، فوجدته مريضًا مشرفًا، فبكى رحمةً بي واستغفرني من ذنبه إليَّ فغفرته له. وما هي إلا أيام قلائل، حتى مضى لسبيله مفجوعًا برزئي

ورزئه، فعلمت أنَّ الدهر قد سجل عليَّ في جريدة الشقاء أيامًا طوالًا لا أعلم متى يكون انقضاؤها، ولا أدري ما الله صانعٌ فيها! فظللت أستكتب الناس الكتب إلى ذلك الرجل أسأله القوت فأستعين به على تربية طفلته، أو التسريح عسى أن يبدلني الله خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمًا، فضن بالأولى، واستعظم الأخرى، فلم أرَ لي سبيلًا غير سبيل العمل. فلبثت بضع سنين ساهرةً الليل قائمةً النهار أستقطر الرزق من سم الخياط، فلا أكاد أبلغ منه الكفاف حتى بلغ مني الجهد. فدهيت بمعضلةٍ من الأدواء خرجت لها عن كل ما أملك من حيلة وذخيرة وكسوة وآنية، وأصبحت لا أملك درهمًا أبتاع به قارورة الدواء، ولا أجد مزقةً أمسك بها قوائم هذا السرير المضطرب. وما قنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر في جانبها كل عظيمٍ من خطوبه ونكباته؛ فقد كتبتُ إلى والد الفتاة منذ شهرٍ أصف له حالتي، وأفضي إليه بذات نفسي، وأسأله أن يمدني وابنتي بقليلٍ من القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتها خطوب الأيام ورزاياها من أعظمنا وجلودنا.

ولبثت أترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإني لجالسةٌ في هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه إليَّ وسيئاته عندي، فلا أفرغ من عقد إلا إلى عقد، ولا أنتهي إلا حيث أبتدئ، وقد جلست طفلتي بين يديَّ أتطلع إلى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلماته إلى نجمة القطب، إذ هجم عليَّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتي من بين يديَّ من حيث لا أملك دفعًا لما نابني، ولا أجد ما أذود به عن نفسي إلا زفراتٍ لا يسمعها سامعٌ، وعبراتٍ لا يرحمها راحمٌ. فشعرت كأن أسهم الدهر التي كانت تروغ هاهنا وهاهنا قد أصابت في هذه المرة المقتل، فبت ليلتي تلك كما يجب أن تبيت امرأة بائسةٌ معدمةٌ فجعها الدهر في نفسها بعد أن فجعها في زوجها وأبيها وولدها، فأصبحت لا تجد أمامها يدًا تنبسط إليها ولا عينًا تبكي عليها. وقد مر بي بعد ذلك عشرون ليلة ونيفًا لا يرقأ لي دمعٌ، ولا يهدأ بي مضجع، حتى إذا اختلست من يد الظلام نعسةً تراءت لي الفتاة كأنها في فراشها مريضةٌ تهتف باسمي، وكأن أباها يوسعها ضربًا وتعذيبًا، وكأنني أحاول أن أستنقذها فلا أجد إليها سبيلًا. وهأنذا أشعر أنَّ سحابة الموت السوداء تغشي على بصري، وأنني مفارقةٌ هذا العالم قبل أن أنظر إلى فتاتي نظرةً أتزودها في سفري إلى تلك الدار.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى جرضت بريقها وحشرجت أنفاسها، وشطر بصرها، فجثوت عند سريرها أدعو لها الله أنْ يعينها على أمرها ويمدها برحمته وإحسانه. فإني لكذلك — وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله — إذ رأيت في خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحًا منتصبًا عند باب الغرفة، فتأملته فإذا رجل يحمل بين يديه فتاةً صغيرة، فتقدمت إليه، فرأيته خاشعًا مستكينًا ينظر إلى تلك التي يحملها نظرات الوجد والرحمة، ورأيت الفتاة كأنها خرقةٌ باليةٌ ملقاةٌ لا يتحرك لها عضو، ولا ينبض منها عرقٌ، فقلت: «من أنت؟ وماذا تريد؟» قال: «أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة.» قلت: «لعلك جئت تستغفر هذه البائسة المسكينة من ذنبك إليها في التفريق بينها وبين ابنتها!» قال: «يا سيدي ما زالت الفتاة منذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءً مرًّا، وتهتف باسمها في يقظتها ونومها، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طبٌّ، ولا ينجح فيها دواء. فلما رأيت أنها وصلت إلى الحالة التي تراها جئت بها إلى أمها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها.» قلت: «ذلك موكولٌ إلى القضاء، ولا يعلم الغيب إلا الله.» ثم تقدمت نحو الفتاة، فرأيتها تجود بنفسها، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي أمها، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها، والأم بفتاتها حتى فاضت نفساهما معًا، كأنما كانتا من الردى على ميعادٍ.

الآن، وقد عدت من دفن الشهيدتين وجلست لكتابة هذه السطور، أشعر أني لا أكاد أمسك قلمي من الاضطراب، ولا مدمعي عن الانفجار حزنًا على تلك البائسة المسكينة، لا بل حزنًا على جميع البائسات من النساء اللواتي يقتلهن الرجال كل يومٍ صبرًا، من حيث لا يجدن راحمًا يأخذ بأيديهن، ولا ثائرًا يثأر لهن.

الدعاء

وهو ملخص قصيدة لفيكتور هوجو (بتصرف)

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد نزل ستار الليل، ودب الشفق الأحمر في حاشية الأفق، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب، وأجرى البدر المنير لِيقَتَه البيضاء على صفحة النهر، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار غبار النهار.

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد مات النهار، وماتت بموته الآلام والأحزان، والأحقاد والأضغان، والمظالم والمآثم، ولم يبقَ من تلك الأعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه إلى أبواب السماء.

قومي يابنية إلى الصلاة، فقد أوى الناس إلى منازلهم، والطيور إلى وكناتها، والوحش إلى أوجرته، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها، ولم يبقَ من أصواتها إلا أنين الراحة المتمثل في رنين هذه المركبة المقبلة في جوف الليل، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها، وهدير تلك الرياح الضاربة في ذوائب الأشجار ورءوس الأبراج.

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الأطفال حول أَسرَّتهم حفاة عراة الرءوس شواخص الأبصار، يطلبون الرحمة من الله تعالى لآبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين، فترن أصواتهم في الملأ الأعلى رنين نغمات الموسيقى في أجواف الفضاء، فيرددها الملائكة طائرين بها إلى عرش الرحمن، فإذا فرغوا من دعائهم، وقضوا حق الله عندهم وحقهم عند أنفسهم، ذهبوا إلى مضاجعهم، وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول ثناياهم الباسمة، كما تتطاير أسراب النحل حول أحواض الأزهار.

قومي يا بنية إلى الصلاة واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الأولى من عالمها، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريرًا قبل سريرك، ومن أحشائها مهادك قبل مهادك، والتي قدم لها الدهر كأسي شقائه ونعيمه، فشربت الأولى وآثرتك بالأخرى.

اطلبي لها الرحمة، فإنها كانت بيضاء القلب صافية النفس تحب من لا يحبها وترحم من لا يرحمها، وتبتسم ابتسامة عذبةً رائقة لا تمازجها ريبةٌ، وتمد يدها إلى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهي عنها. وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتريث المرتاب الذي يتهم سمعه وبصره، وتنظر إليه نظر الحكيم العاقل الذي يعلم أنَّ السعادة الكاذبة أمرٌّ مذاقًا في الأفواه من الشقاء الصادق، وأنَّ هؤلاء الذين يضحكون سرورًا بهذا الصور الخيالية لا يعلمون أنهم يبكون من حيث لا يشعرون، وأنَّ أولئك الجالسين حول مائدة الشهوات إنما يقامرون بأنفسهم، ولا بد أنهم خاسرون، فتغض بصرها، وتشيح بوجهها، وتعود أدراجها بقلب غير مخدوعٍ، وفؤاد غير مصدوع.

اذكري يا بنية أن تطلبي الرحمة لأبيك، كما تطلبينها لأمك، فهو أحوج إليها منها؛ لأن الخطايا قد أثقلت ظهره، فأصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى السماء، وغلَّت يده، فلا يستطيع أن يمدها إلى الله بالدعاء.

إنني أشعر يا بنية حينما أسمع دعاءك لي كأنني أسمع صوت انفصام القيود عن قدمي، وكأن سحابةً سوداء تنقشع عن قلبي قليلًا قليلًا، وكأن جناحي المهيض قد نبت له ريشٌ ناعم جميلٌ أحاول أن أطير به إلى أعالي السماء.

اطلبي الرحمة لجميع الآباء العائدين إلى منازلهم تحت ستار الظلام بدموعٍ منهلةٍ وقلوبٍ واجمة بعد أن سايروا الشمس من مشرقها إلى مغربها، فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم حينما يعودون إليهم.

اطلبي الرحمة لجميع الأمهات الجالسات حول أسرَّة أبنائهن المرضى، وقد خفقت قلوبهن، وحارت أبصارهن مخافةَ أن يذقن مرارة الثكل، والثكل كثيرٌ على قلوب الأمهات.

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجبع بطنه ويشبع صندوقه، والأحمق الذي يبتسم للمعان الحرير في صدره، والذهب في أصابعه، والقاضي الذي يبرئ القاتل المتعمد، ويدين السارق المضطر، والملك الذي يشعل نار الحرب في أمته ليطفئ نار غضبه، والظالم الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوءٍ يقضيها خارج بيته، ويحاسب زوجته على ابتسامة كرم تبسمها لغيره، وسائر البؤساء الذين لا يشعرون ببؤسهم، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء.

اطلبي الرحمة لأولئك الذين عمروا الأرض، وبنوا دورها، وشادوا قصورها، وزخرفوا سهولها وجبالها وأغوارها وأنجادها، فجازتهم سوءًا بما عملوا، وابتلعتهم في جوفها، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمة المخيفة التي تختلط فيها الرءوس بالأقدام، والقوادم بالخوافي، والنعال بالتيجان، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث انطواء اللجج المتراكبة في البحر العميق، يتألمون ولا ينطقون، ويستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم أو يلبي دعاءهم.

اطلبي الرحمة لهم، فإن الدعاء الخالص يستحيل في أنظارهم إلى روضة من رياض الجنان تنبت فوق أجداثهم، فتمد إليهم ظلالها، وتنثر بينهم أوراقها وأزهارها، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم، وتطفئ جذوة الندم المتوقدة في أحشائهم، إنهم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون.

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار، والعصاة والطائعين، والمؤمنين والملحدين، وكل دارجةٍ في الأرض، وكل سانحةٍ في السماء، ولا تيأسي أن يستجيب الله دعاءك، فلكل بدايةٍ نهايةٌ، ولكل سائلةٍ قرارٌ، فكما أنَّ النهر يتسرب إلى البحر، والطائر يقع على الغصن، والشمس تجري لمستقرها، والنفس تصعد إلى عالمها، كذلك أبواب السماء مفتحةٌ لخالص الدعاء.

ليلة في التمثيل

من أراد أن يعرف الأخلاق العامة المصرية كما هي فليزر دار التمثيل العربي؛ فإنه يرى هنالك ما تفرق من أخلاق هذه الأمة وغرائزها وميولها وأهوائها مجتمعًا في بقعةٍ واحدة.

زرت تلك الدار ليلة أمس، وكثيرًا ما أزورها؛ لأني أحب التمثيل حبًّا يكاد يساوي حبي للشعر والموسيقى والجمال، فبدا لي أن أكون في تلك الليلة فيلسوفًا أكثر مني متفرجًا؛ أي أن أكون متفرجًا على المتفرجين، ومطلعًا على المطلعين، فكانوا جميعًا يشاهدون ملعبًا واحدًا، وكنت أشاهد وحدي ألف ملعب لا يقل كل واحد منها عن ملعبهم غرابة وإبداعًا.

كان الزحام في هذه الليلة شديدًا؛ لأن الأدباء يعجبهم من رواية روميو وجولييت ذلك الأسلوب الفصيح، والترتيب البديع الذي انفرد به المرحوم الشيخ نجيب الحداد من بين كتاب الروايات ومترجميها، ولأن العاشقين يهمهم منها أن يروا فيها مواقف العناء والشقاء التي وقفها روميو وجولييت، ليتخذوا منها لأنفسهم تعزيةً عما يلاقونه في أمثال هذه المواقف من عناءٍ وشقاءٍ، ولأن النساء يطربهن منها منظر جولييت وهي قتيلة مخضبة بدمها، ليجدن السبيل إلى الشماتة بها، والسخرية بضعف حيلتها، وعجزها الذي كان سببًا في حرمانها من سعادتها وحياتها، فكأنهن يقلن لها: «لو كنا مكانك أيتها الفتاة الحمقاء، لما بذلنا حياتنا في سبيل رجلٍ لا يفوتنا حظنا من غيره إن فاتنا حظنا منه.»

وبالجملة، فقد كان أصحاب الأعراض المختلفة في هذه الرواية كثيرين جدًّا، وكانوا إذا اشتركوا في هتافٍ أو تصفيقٍ دوى لهم في أرجاء القاعة صوتٌ يصدع الرءوس، ويؤثر في أعصاب السمع تأثيرًا سيئًا، فكنت إذا شرع المغني في نشيدٍ وترقب الناس النغمة

الأخيرة بتشوق وتلهف، ترقبتها بخوفٍ وجزع؛ لأني لا أحب أن تكون آخر نغمة أسمعها في حياتي.

رأيت فيما رأيت في ذلك المعرض العام أنَّ عامة المصريين يحبون التصفيق حبًّا جمًّا ويتهالكون وجدًا عليه.

رأيت من كان يصفق حتى تحمر كفاه، وتكادا تبضان دمًا، ومن كان يضرب الأرض بقدميه حتى يكاد يجمد الدم في عروقهما، رأيت ملكة التقليد آخذةً من نفوسهم مأخذها؛ لأنهم ما كانوا يصفقون في مواقف الاستحسان جميعًا، بل كان يبتدئ أحدهم فيقلده الجالسون حوله، ثم يسري التصفيق تدريجيًّا بين الجميع. ولقد رأيت من استغرق في الضحك حتى كاد يسقط عن كرسيه، ثم سمعته يسأل بعد ذلك جليسه: «مم تضحكون؟»

ولقد كنت أحسب أنهم لا يصفقون إلا في مواطن الاستحسان كما هو الشأن في ذلك، فإذا هم يصفقون لكل مشهدٍ من المشاهد المؤثرة — مفرحًا كان أو محزنًا، هزلًا أو جدًّا — فصفقوا لمنظر جولييت وهي تتجرع السم، وصفقوا لمنظر روميو وهو يتحرق وجدًا حينما فاجأه الخبر بموتها.

أما النساء فملأن خدورهن ضحكًا عندما سقط روميو قتيلًا، ولا أعلم لذلك سببًا إلا أن تكون عداوة الجنسية، وحب الانتقام.

أما آداب الاستماع، فلا تسل عنها؛ لأنك لا ترى في جوابي ما يسرك، وأي منظر يروقك من مجتمع ما اجتمع في مثل هذا المكان إلا للاستماع، ثم لا ترى بينه إلا مصفقًا أو هاتفًا أو راكضًا أو ضاحكًا أو صارخًا أو مصفرًا أو ماضغًا أو متكلمًا، وربما كان ذلك هينًا لو وقع بين الفصل والفصل، أو المنظر والمنظر، أو الجملة والجملة، ولكنه يقع مطردًا حيثما اتفق وكيفما بدا!

وبعد … فقد استنتجت من منظر ذلك المعرض العام أنَّ للجمهور المصري ثلاثة أخلاقٍ هي ألزم من ظله وألصق به من نفسه: يحب التقليد، ويحب الهزل، ولا يستطيع أن يصبر عن إظهار ما تتأثر به نفسه من حزنٍ وسرورٍ لحظة واحدة.

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسدًا أحدًا على نعمة فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره، ولولا أنَّ للأوهام سلطانًا على النفوس لما سجد الفقراء بين أيدي الأغنياء ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابًا من دون الله.

أنا لا أغبط الغني على غناه إلا في موطن واحدٍ من مواطنه، فأغبطه إن رأيته يشبع الجائع، ويواسي الفقير، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون، ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى.

أرثي له إن رأيته يتربص بالفقير وقوع الضائقة به ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان، فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل. وأرثي له إن رأيته يعتقد أنَّ المال هو منتهى الكمال الإنساني، فيرغب عن الفضائل والكمالات؛ لأنه يظن أنه قد كفي مئونة السعي إليها. وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء، وطاول بعنقه السماء، وسلم بإيماء الطرف، وإشارة الكف، ومشى في طريقه يخزر عينيه خزرًا، ليرى هل سجد الناس لمشيته، أو صعقوا من هيبته! وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحًا مقترًا على نفسه وعياله، بغيضًا إلى قومه وأهله، ينقمون عليه حياته، ويستبطئون أجله.

أما الفقير فهو عندي أسعد الناس عيشًا، وأروحهم بالًا، إلا إذا كان جاهلًا ضعيفًا مخدوعًا يملك الوهم عليه مشاعره، فيظن أنَّ الغني أسعد منه حظًّا، وأرغد عيشًا، وأثلج صدرًا، فيحسده على تلك السعادة التي يزعمها له، فيجلس في كِسر بيته جِلسة الكئيب المحزون، يصعد الزفرة فالزفرة، ويرسل الدمعة إثر الدمعة، ولولا جهله وضعف قلبه لعلم أنْ رُبَّ صاحب قصرٍ باذخ يتمنى كوخ الفقير وعيشه، ويرى أنَّ ذلك السراج من

الزيت أسطع ذبالًا وأكثر لألاءً من أنوار الشموع وباقات الكهرباء التي تأتلق بين يديه، وأنَّ تلك الحشية من الأديم أو الوبر أنعم ملمسًا وألين مضجعًا من وسائد الحرير ونضائد الديباج.

لقد بلغ التسفل وضعف النفس بكثيرٍ من الناس أنهم يحفلون بشأن الأغنياء لأنهم أغنياء، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبلُّ غلَّةً أو يسيغ غصةً. وليت شعري إن كان لا بدَّ لهم من إجلال المال وإعظامه لذاته، فما لهم لا يقبلون أيدي الصيارفة، ولا ينهضون إجلالًا للكلاب المطوقة أعناقها بأطواق الذهب — وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء؟

لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعامَلوا به لوجدوا أنفسهم في وحشةٍ من أنفسهم وأموالهم، ولشعروا أن بدرات الذهب أساود ملتفة على أرجلهم، وأغلالٌ آخذةٌ بأعناقهم، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب لا في رنين الذهب، وفي جلائل الأعمال لا في أحمال المال.

فليعظم الناس الكرماء، وليحتقروا الأغنياء، وليعلموا أن الشرف شيءٌ وراء الغني والفقر، والسعادة أمرٌ وراء الكوخ والقصر.

على سرير الموت

مررت منذ سنواتٍ على باب منزلٍ في أحد أزقة القاهرة، فرأيت حوله مجتمعًا حافلًا تصطك فيه الأقدام بالأقدام، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس، وقد تخلله قومٌ من رجال الشرطة، وسمعت قائلًا يقول: «قبح الله الانتحار!» وآخر يقول: «أحسبه شابًّا غريبًا لأني لم أرَ عينًا تدمع عليه.» فعرفت مجمل القصة، وأنَّ في هذا المنزل شابًا غريبًا منتحرًا، وأنَّ هذا الحادث سبب هذا الاجتماع.

لم أقنع بالإجمال، فأحببت معرفة التفصيل، فحاولت الدخول إلى المنزل فما استطعت، فتريثت حتى جاء ضابطٌ أعرفه من ضباط البوليس، فدخلت معه. وهنالك رأيت على سرير الموت شابًّا في نحو العشرين من عمره، رقيق الجسم، أصفر اللون، لم تستطع يد الموت أن تمحو كل آثار جماله، بل بقيت منه بعد الموت بقيةٌ كتلك البقية من الرائحة العطرة التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة.

اهتم الضابط بملابسه، لعله يجد فيها ما يدل عليه أو على سبب انتحاره، واهتم الطبيب بالميت ليعرف علة موته، وجلست بجانبه جِلسة الكئيب المحزون أفكر في مصيبته، وأندب شبابه وجماله، فلمحت حول السرير أوراقًا منثورة، فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب.

قرر الطبيب أنه منتحر بشرب سائلٍ سامٍّ، وقرر الضابط نقل جثته إلى المستشفى، فنُقلت وانفض الجمع المزدحم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئًا.

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق تناول كأس الحب بيده، فارتشف منها الجرعة الأولى فوجدها حلوة المذاق، فاستمر في شأنه يشرب ولا يرفع الكأس عن فمه، فلم يشعر بالمرارة المتجددة في الجرعات الأخرى حتى أتى على آخر جرعة، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته.

قرأت تلك المفكرات فبكيت بكاءً رحمت نفسي منه، ثم طويتها وألقيت بها في بطون الأعوام وبين ودائع الأيام.

وبينا أنا أقلب أوراقي ليلة أمس إذ عثرت بها في ملفٍّ صغير قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه كما يصفر الكفن حول الجثة البالية، فشعرت برعدةٍ تتمشى في أعضائي حينما تخليت أنها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر.

ثم عدت إلى نفسي، فنشرتها للمرة الثانية، وأعدت قراءتها، فرأيت قلب العشق مرسومًا فيها رسمًا صحيحًا في حالي سعادته وشقائه، وهأنذا أنشرها في الناس لتكون عبرةً يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل، سبيل الحب القاتل.

١

رأيتها فأحببتها، وما كنت أعرف الحب من قبلها.

كان قلبي في ظلامٍ حالك لا يرى حتى نفسه، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمسٌ ساطعةٌ منيرة، لها من الشمس نورها وجمالها، وليس لها منها حرارتها ولذعاتها.

كنت أشعر كأن قلبي في صحراء هذه الحياة وحيدٌ موحشٌ لا يعرف القلوب، أو يعرفها ثم ينكرها. فلما أحببت رأيت بجانب قلبي قلبًا لاصقًا به يخفق لخفقانه ويتحرك بحركته، فكنت أجد بين جوانحي من السرور والهناء واللذة والاغتباط ما لو قسم على القلوب جميعها ما خالطها حزنٌ ولا مسها ألم.

كنت أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها، غير أني كنت أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة، والفضة والذهب، والسلطة والجاه، والشهرة والصيت، فلما أحببت اعتقدت ألا سعادة غير الحب، وأيقنت أنَّ الناس جميعًا يطلبون سعادة الأجسام لا سعادة الأرواح، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديباج، وباطنه مسرح الدود، ومرتع الهوام والحشرات.

٢

أحببتها قبل أن أعرفها، أو أعرف شأنًا من شئونها سوى أنها تحبني، فكأني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحتني قلبها، وهو ثمنٌ قليلٌ في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت أحدث نفسي بها، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأماني، ولا سوانح

الأحلام. عشت دهرًا طويلًا بين أقوامٍ لا يعنيهم أمري، ولا يهمهم شأني، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشرٌ، فسمعت من يسألني: كيف حالك؟ ومن يقول لي: ما أشد جزعي لمصابك! ومن يتباكى رحمةً بي وحنانًا عليَّ، ولكن لم أرَ بجانبي عينًا تدمع ولا قلبًا يخفق.

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالًا متقن الصنع، ورأيت من يحب مالي كما يحبه في كيسه أو خزانته، ورأيت من يعجب بحديثي كما يعجب بروايةٍ بديعةٍ، ولكن لم أرَ في حياتي من يحبني.

أما اليوم، فقد وجدت بجانبي القلب الذي يخفق لأجلي، والعين التي تدمع عليَّ، والنفس التي تحبني لا لشيءٍ سواي، فقليلٌ لها مني أن أمنحها حياتي، فكيف أبخل عليها بقلبي؟

٣

خلوت بها للمرة الأولى، فحدثتني نفسي أن أمد يدي إلى يدها، فأضعها على صدري، لأطفئ بها غلتي، فما لمستها حتى نظرت إليَّ نظرة العاتب اللائم، وقالت: كن رجلًا في حبك، واترك الطفولة لغيرك، إن كنت تحبني لنفسي، فهأنتذا قد ملكتها عليَّ، وأحرزتها دوني حتى لا أعرف لي فيها مأربًا، وإن كنت تحبني لهذه الصورة الجثمانية، فما أضعف همتك، وما أصغر نفسك!

أتذرف دمعك، وتسهر ليلك، وتذيب حبة قلبك من أجل عظمةٍ تلمسها، أو جلدةٍ تلثمها؟!

أنت شريفٌ في نفسك، فكن شريفًا في حبك، واعلم أني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد، حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي، وتمنيت أن لو عجل إليَّ أجلي قبل أن يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني، ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي، وما عدت من بعدها إلى مثلها.

٤

الآن عرفت مبلغ عظتها، وفضل هدايتها، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس، فهأنذا أشعر كأن نفسي المرآة التي يغشاها الصدأ، وكأن الحب صيقل يصقلها، فيجلو صفحتها شيئًا فشيئًا.

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغنًا وحقدًا، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل؛ لأن الحب ملك عليَّ قلبي واستخلصه لنفسه، فلم يترك فيه مجالًا لشيءٍ سواه.

كنت ضيق الصدر إن مسني ضرٌّ، سريع الغضب إن فاتني مأربٌ، فأصبحت فسيح رقعة الحلم، لا يستفزني غضبٌ، ولا يحرجني محرج؛ لأني قنعت بسعادة الحب، فأغفلت بجانبها جميع أنواع السعادة.

كنت شديد القسوة، متحجر القلب، لا أعطف على بائسٍ، ولا أحنو على ضعيفٍ، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري، وأتألم لبؤس البائسين وحزن المحزونين؛ لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نورًا، فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلًا بينه وبين القلوب.

وبالجملة كنت وحشًا ضاريًا أعيا العالمين رياضته، فصرت بين يدي الحب الشريف إنسانًا شريفًا، وملكًا كريمًا.

٥

خرجت بها الليلة إلى شاطئ النهر، وكان الماء رائقًا والسماء صافية، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته، فاختلط علينا الأمر حتى ما نفرق بين الأصل والمرآة، ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء.

فمشينا طويلًا لا يكلم أحدنا صاحبه، كأن سكون الليل سرى إلى أفئدتنا، وملأ ما بين جوانحنا، فأمسكنا عن الحديث هيبةً وإجلالًا.

وكنت أشعر في تلك الساعة بخفَّةٍ في جسمي، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل إليَّ أني لو شئت أن أطير عن وجه الأرض لطرت بغير جناحٍ، وأني أستطيع أن أخترق بنظري حجاب السماء، وأنفذ إلى الملأِ الأعلى، فأرى هنالك ما هو محجوبٌ عن نظر الناس أجمعين. وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فلا يهتدي إلى أفقه، وأن يتلفع الليل بردائه فلا يعثر به فجره، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم، وما دام الظلام. فالتفت إليها وسألتها هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها؟

قالت: لا؛ لأني أعرف من شئون الأيام وأطوارها غير ما تعرف؛ ولأني لا أنظر إلى الدنيا بالعين التي تنظر بها إليها.

أنت سعيدٌ بالأمل، وأنا شقيةٌ بالحقيقة الواقعة.

إنك سعيدٌ؛ لأنك تظن أن سعادتك دائمةٌ لا انقطاع لها، وأنا شقية لأني أتوقع في كل ساعةٍ زوالها وفناءها.

إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء، وأن تحول بين الأرض ودورانها، وأن تمنع الساكن أن يتحرك والمتحرك أن يسكن، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها.

وهنا أَمْسَكت عن الكلام، وأطرقت برأسها طويلًا، فرأيت مدامعها تنحدر من مقلتيها كأنها عِقْدٌ وهَى سِلْكُه، فانتثرت حبَّاته، فبكيت لبكائها، وقلت: «لم تبكين؟» قالت: «من خوف الفراق.» قلت: «فراق الحياة أو فراق الممات؟» قالت: «لا أريد فراق الحياة، فليس في هذه الكائنات من ناطقها وصامتها ما يمنعني من الوصول إليك ما دام يجمعني وإيَّاك عالم واحد، أنا لا أخاف إلا فِرَاق الموت.» قلت: «هل لك أن نتعاهد أن نعيش معًا ونموت معًا؟» فتعاهدنا ثم عدنا على أعقابنا، والليل يشمر أذياله للفرار من وجه النهار، ثم افترقنا على ميعاد، وذهب كلٌّ منَّا لسبيله.

٦

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعةً واحدة عن هذا الإنسان؟

ألا يستطيع أن يسقيه كأسًا لا يخالطها كدرٌ ولا يمازجها شقاء؟

ألا يستطيع أن يمنعه السعادة ما دام يمنحها اليوم ليسلبها غدًا؟

إنَّ الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المسلوبة.

يقولون: إنَّ الأمل حياة الإنسان، وما يقتل الإنسان إلا الأمل، فليتني ما سعدت؛ لأنني ما شقيت إلا بسعادتي، وليتني ما أَمَّلْت؛ لأن اليأس القاتل ما جاء إلا من طريق الأمل الباطل، ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي، وأشعة آمالي، وينبوع سعادتي وهنائي.

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا بهاءً وجمالًا، فمات بموتها كل حيٍّ في هذا الوجود.

أرى الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وأرى الطير صامتةً لا تغرد، والغصون ساكنةً لا تتحرك، وأرى النجوم آفلةً، والزهور ذابلة، والطبيعة واجمةً حزينة لا يفتر

ثغرها، ولا يتلألأ جمالها، وأرى الدنيا كأنها عادت إلى عصرها الأول لا يسكنها إنسان، ولا يخطر بها حيوان، وكأنني فيها آدمها يندب جنته، ويشكو وحدته.

أيها الدهر الغادر! إن غلبتني عليها فلن تغلبني على نفسي، لك أن تُخرج من الدنيا من تشاء، وليس لك أن ترد إليها من يخرج منها.

ويا أيتها النفس الهائمة في سمائها! لا تجزعي ولا تعجلي، فوالله لأفين بعهدك، ولأُذهبن عما قليل وحشتك، وليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا، فما تعارفنا في العالم الأول إلا بأرواحنا، فلنكن كذلك في العالم الثاني.

غدر المرأة

يقصون في القصص الخرافية أنَّ حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبًّا ملك عليه عقله وقلبه. وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد، وكان يمازج هناءه الحاضر شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها فيموت، ويفلت من أشراكه ذلك القلب الذي كان مغتبطًا باعتلاقه إلى صائدٍ آخر يعتلقه من بعده. وكان كلما أبث زوجته سره، وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم حنت عليه، وعللته بمعسول الأماني، وأقسمت له بكل محرجةٍ من الأيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حيًّا وميتًا، فكان يسكن إلى ذلك سكون الجُرْح الذَّرِب تحت ميزاب الماء البارد، ثم يعود إلى هواجسه ووساوسه. حتى مر في بعض روحاته إلى منزله في ليلةٍ من الليالي المقمرة بمقبرة المدينة، فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفةٍ بين قبور الموت، وكثيرًا ما يتداوى شارب الخمر بالخمر، ويدفع الخوف الخائف إلى مبعث خوفه، ويلذ للجبان — وهو يرتعد فرقًا — الإصغاء إلى حديث الأفاعي وقصص الجان، فرأى في بعض مسالكه بين تلك القبور امرأةً متسلبةً جالسةً أمام قبرٍ جديد لم يجف ترابه، وبيدها مروحةٌ من الحرير الأبيض مطرزةٌ بأسلاك الذهب تحركها يمنةً ويسرة، لتجفف بها بلل ذلك التراب. فعجب لشأنها، وتقدم إليها، فارتاعت لمرآه، ثم أنست به حينما عرفته، فسألها ما شأنها، وما مقامها هنا، ومن هذا الدفين، وما الذي تفعل، فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها.

فجلس إليها، وتناول منها المروحة، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب، فحدثته أن هذا الدفين زوجها، وأنه دفن منذ ثلاثة أيام، وأنها منذ الصباح جالسةٌ مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاءً بيمينٍ كانت أقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج

من غيره حتى يجف تراب قبره، وأنَّ هذه الليلة هي موعد بنائها بزوجها الثاني، فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحنث بيمين كانت أقسمتها له، أو تخيس بما عاهدته عليه. ثم قالت له: «هل لك يا سيدي أن تقبل هذا المروحة هدية مني إليك، وجزاءً لك على حسن صنيعك معي؟» فتقبلها منها شاكرًا بعد أن هنأها بزواجها الجديد، ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية. ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدث نفسه ويقول: إنه أحبها وأحسن إليها، فلما مات جلست فوق قبره، لا لتبكيه ولا لتذكر عهده، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي أقسمتها له، فكأنما وهي جالسة أمام زوجها الأول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني، وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها، وتصفف طرتها، وتلبس حليتها بين سمعه وبصره للزفاف إلى غيره!

وما زال يحدث نفسه بمثل ذلك حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر، ورأى زوجته ماثلةً أمامه مرتاعةً لمنظره المحزن، فقال لها: «إنَّ امرأةً خائنةً غادرة أهدت إليَّ هذه المروحة، فقبلتها منها لأهديها إليك؛ لأنها أداةٌ من أدوات الغدر والخيانة، وأنت أولى بها مني.» ثم أنشأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها، وأنشأت تسب تلك المرأة، وتنعى عليها غدرها وخيانتها، وتلقبها بأفحش الألقاب وأقبحها، ثم قالت: «ألا يزال هذا الوسواس عالقًا بصدرك ما دمت حيًّا؟ وهل تحسب أن امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟» فقال لها: إنك أقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي، فهل تفين بعهدك؟» قالت: «نعم، ورماني الله بكل ما يرمي به الغادر إن غدرت.» فاطمأن لقسمها، وعاد إلى راحته وسكونه.

مضى على ذلك عام، ثم مرض الرجل مرضًا شديدًا، فعالج نفسه، فلم يجد العلاج حتى أشرف، فدعا زوجته، وذكرها بما عاهدته عليه، فادَّكرت، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه، فأمرت أن يسجى في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني، ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكي عليه وتندبه، وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادم وأخبرتها أن فتًى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته لما سمع بأمر مرضه، وأنها حدثته حديث موته، فصعق في مكانه حزنًا ووجدًا، ولا يزال عند باب المنزل مطرحًا لا تدري ما تصنع في أمره! فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف، وأن تتولى شأنه حتى يستفيق، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها. فلما مر الهزيع الثاني من الليل دخلت عليها الخادم مرة أخرى مرتاعةً مولهة، وهي تقول: «رحمتك وإحسانك يا سيدتي، فإن

ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذابًا أليمًا، وقد حرت في أمره، وما أحسبه إن أغفلنا أمره ساعةً واحدة إلا هالكًا.» فراعها الأمر، فقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة المريض، فرأته مسجًى على سريره والمصباح عند رأسه، فاقتربت منه ونظرت في وجهه، فرأت أبدع سطرٍ خطته يد القدرة الإلهية في لوح المقادير. فتخيلت أن المصباح الذي أمامها قبسٌ من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير، وتمثلت كأن أنينه نغمةٌ موسيقية محزنة ترن في جوف الليل البهيم. فأنساها الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك، وعناها أمره، فلم تترك وسيلةً من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى استفاق. ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء، ثم أنشأ يقص عليها تاريخ حياته، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعلمه، فعرفت مسقط رأسه، وصلته بزوجها، وأنه فتًى غريبٌ في قومه لا أب له ولا أم ولا زوجة.

وهنا أطرقت برأسها ساعةً طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت، ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده وقالت له: «إنك قد ثكلت أستاذك وأنا ثكلت زوجي، فأصبح همنا واحدًا، فهل لك أن تكون عونًا لي وأن أكون عونًا لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعدًا ولا معينًا؟» فألمَّ بما في نفسها، فابتسم لها ابتسامة الحزن والمضض وقال لها: «من لي يا سيدتي أن أكون عند ظنك بي، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليَّ عيشي وأفسد عليَّ حياتي، وقد أنذرني الطبيب باقتراب ساعة أجلي إلا أن تدركني رحمة الله، فاطلبي سعادتك عند غيري، فأنت من بنات الوجود، وأنا من أبناء الخلود.» فقالت له: «إنك ستعيش، وسأعالجك، ولو كان دواؤك بين سحري ونحري.» قال: «لا تصدقي يا سيدتي، فأنا عالمٌ بدوائي، وعالمٌ بأني لا أجد السبيل إليه.» قالت: «وما دواؤك؟» فامتنع عليها هنيهةً لا يجيبها، فلما أعياه إلحاحها قال: «حدثني طبيبي أن شفائي في أكل دماغ ميت ليومه! ولقد علمت أن ذلك يعجزني، فأسجلت ألا دواء لي ولا شفاء.» فارتعدت وشحب لونها، وأطرقت طويلًا ثم رفعت رأسها هادئةً ساكنة، وقالت: «لا أزال أقول لك: إني سأعالجك، وإن كان دواؤك في ذهاب نفسي.» ثم أمرته أن يأخذ قسطه من الراحة، وخرجت من الغرفة متسللةً حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها، فأخذت منها فأسًا، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاسًا حتى وصلت إلى غرفة الميت، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريرًا مزعجًا، فجمدت في مكانها، وقد امتلأ قلبها رعبًا وخوفًا، وذهبت بها الظنون كل مذهب، ثم عادت إلى سكونها، فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير، ورفعت الفأس، وما كادت تهوي بها

حتى رأت الميت فاتحًا عينيه ينظر إليها، فسقطت الفأس من يدها، وسمعت حركةً وراءها، فالتفتت، فرأت الضيف والخادم واقفين يتضاحكان، ففهمت كل شيء.

وهنالك تقدم إليها زوجها وقال لها: «أليست المروحة في يد تلك المرأة الغادرة أجمل من الفأس في يدك؟! أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه؟!» فصارت تنظر إليه نظرًا غريبًا، ثم شهقت شهقةً كانت فيها نفسها.

الضاد

إذا كان العرب الأولون يعبرون بالرأس عن مئينٍ من الأعضاء والعظام، والأعصاب والشرايين، فلم لا نعبر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفًا؟ ونحن عربٌ مثلهم، تجري في عروقنا دماؤهم، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل، فسهمنا في الضاد سهمهم، وحقنا فيها حقهم، فلم يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم، ومرافقنا أوفر عددًا من مرافقهم وأوسع فصولًا وأنواعًا؟

أين باديتهم الخلاء الجرداء المقفرة المصفرة إلا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل، ومراتع الشاء، ومرابض الوحش، ومغاور الجن، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات، وأنواع الآلات والأدوات، وغرائب المصنوعات والمنسوجات، وأكثرها مستحدثٌ مستطرف لم تغبر في وجهه عواصف البادية، ولم تلوثه الإبل والأبقار بأبوالها وأرواثها؟

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش أن تضيق حاجاتهم عن لغتهم فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد، وأربعمائة للداهية، وثلاثمائة للسيف، ومائتين للحية، وخمسين للناقة، وتضيق لغتنا عن حاجاتنا، فلا نعرف لأداةٍ واحدةٍ من الآلاف المؤلفة من أدوات المعمل الواحد اسمًا عربيًّا إلا قليلًا من أمثال المسبر، والمبرد، والمنشار، والمسمار؟!

أيكون لسفينة البر — وهي لا تحمل إلا الرجل أو الرجل ورديفه — مائتا اسم، ومئينٌ من الأسماء لأعضائها وأوصالها ورحلها وكورها، ولا يكون لسفينة البحر، وهي المدينة المتنقلة في الدأماء قليل من ذلك الحظ الكثير؟!

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمرٌ لغويٌ يعقدونه في كل عامٍ بالحجاز بين نخلة والطائف يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم، يتناشدون ويتساجلون ويتحاورون،

ويعرضون أنفسهم على قضاةٍ من نوابغهم يوازنون بينهم، ويحكمون لمبرزهم على مقصرهم حكمًا لا يرد ولا يعارض. ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتفرق لغتهم بين اليمن والشام، ونجدٍ وتهامة؛ لصعوبة التواصل في تلك البقاع، وبُعد ما بين قاصيها ودانيها؛ فكان مطمح أنظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغاتهم، وجمع شتاتها والرجوع بها جميعها إلى لغة قريش التي هي أفصح اللغات وأقربها مأخذًا، وأسهلها مساغًا وأحسنها بيانًا.

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن؟! إننا إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه؛ لأن تفرق اللغات في عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغ تفرقها في عصرنا بين لغات العامة المتباينة، ولغة العلماء، ولغة الدواوين، ولغة القصاصين، ولغة الصحافيين.

إن كان الجاهليون في حاجةٍ إلى مجتمع لتوحيد اللغات المتفرقة، فنحن في حاجة إلى مجتمعاتٍ كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة جميعها، وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتابٍ واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به، ومجتمع دائمٍ لوضع أسماء للمسميات الحديثة — سواء كانت أعيانا أو معاني — بطريق التعريب أو النحت، أو الاشتقاق الكبير أو الصغير، وآخر للإشراف على الأساليب العربية المستعملة، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر، والوقوف بها عند الحد الملائم للعصر الحاضر ولأذهان المعاصرين، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرز منهم والمقصر، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر.

سياحة في كتاب

أعجب ما أعرف من أمر نفسي أني أحب الجمال خيالًا أكثر مما أحبه حقيقة، فيعجبني وصف الروض أكثر مما يعجبني مرآه، ولا أطرب لمنظر الفتيات الجميلات طربي لمنظر القصائد الغزليات، وأحب أن أسمع وصف المدن الجميلة، وأن أقرأ ما يكتبه الكاتبون عن رياضها ومنازهها، وقصورها ودورها وسهولها وبطاحها، وأنهارها وجداولها، وميادينها وتماثيلها، وأنديتها ومجامعها، ولا يهمني أن أراها، كأنني أريد أن أستديم لنفسي تلك اللذة الخيالية، وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها، وأحسب أني لو كنت عاشقًا لأصبحت أضحوكة العاشقين، وأعجوبة الهازئين والساخرين، ويكون مثلي مثل ذلك الرجل الذي أحب امرأةً فاستزارها فمانعته حينًا، ثم زارته، فلما رآها تركها وذهب لينام، فعجبت لشأنه وسألته ما باله! فقال لها: «أريد أن أنام علني أرى طيفك في المنام!»

جاء يوم شم النسيم، فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال الجيش المدجج، للملك المتوج، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق بعد طول الفراق، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها، فمن صاعدٍ إلى رءوس الجبال، وسارٍب في سهول الرمال، وواقفٍ موقف الإعجاب والإجلال، بين جمال الأنوار وأنوار الجمال، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات، وحسن الفتيات، لا يعلم أتشبه القامات الغصون، أم الغصون القامات؟

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب، وما كان لي أن أذهب مذهبهم؛ لأني لا أعجب بما يعجبون، ولا أُسَرُّ بما يُسرون، فقبعت في كِسْر بيتي أبحث عن ضالة خيالٍ أجد فيها من السعادة والهناء ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء، فلمحت بجانبي كتاب بلاغة الغرب — وهو الكتاب الذي ترجمه بعض فضلاء الكُتَّاب، وجمع فيه

نفائس اللغة الفرنسية، وزبدة ما جادت به قرائح كُتَّابها وشعرائها — فقلت: «حسبي من الرياض هذه الزهرات، ومن النسائم تلك النفحات.»

خطوت الخطوات الأولى من سياحتي في هذا الكتاب، فرأيتني واقفًا تحت نافذة قصر اللوفر في باريس، ورأيت الناس وقوفًا في ذلك الميدان الفسيح، وقد ماج بعضهم في بعضٍ حتى ضاقت بهم رقعة الأرض، ورأيتهم يمدون أعناقهم إلى تلك النافذة، وينظرون إليها نظر المنجم في الأسطرلاب، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحاب. وإنهم لكذلك وإذا نابليون الأول قد أطل من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق، يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس، وملك رومة كما يسميه أبوه، فضجَّ الناس لمطلعه ضجيجًا ملأ مسمع الخافقين، وابتسموا لمرآه ابتسامًا أضاء ما بين المشرقين والمغربين. وهنا سمعت الشاعر الكبير يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلًا له: رويدًا أيها الرجل المغرور بالتاج والسرير، والملك الكبير، والجيش الخاضع، والشعب الطائع، أنت تقدر لطفلك في مستقبل الأيام ملكًا كملكك، ومجدًا كمجدك وعزًّا وسلطانًا كعزك وسلطانك، غير عالمٍ بما تكتمه ضمائر الأيام من الحوادث العظام والخطوب الجسام، هل أخذت على الأيام عهدًا لنفسك فتأخذه لولدك؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك؟

أيها الملك المغرور! إنك ستفارق عما قليلٍ هذا القصر الكبير إلى ذلك الكوخ الحقير، وسيحيط بك الجند في منفاك إحاطة الإخضاع والإذلال، لا إحاطة الإعظام والإجلال، وسيموت ولدك محرومًا هذا العرش الذي هيأته له، بل محرومًا بضعة أشبار من تربة فرنسا، يضطجع فيها ضجعة الموت.

أيها الملك المغرور! لا تقل: إنَّ المستقبل لي، فإنما المستقبل لله.

تركت هذا الموقف الفخم الجليل، وقد امتلأت نفسي عبرةً بمصائر الأيام، ومصارع الكرام، وتقلبات الدهور ما بين رفعٍ وخفضٍ، وإبرامٍ ونقضٍ، ومشيت حتى وصلت إلى بريةٍ جرداء، ودويةٍ قفراء، لا يطرقها إنسانٌ، ولا يدب بها حيوانٌ، فلمحت على البعد رجلًا يمشي على شاطئ بحرٍ فوق أرضٍ رملية، يخدع ظاهرها ويقتل باطنها، ويدب الماء في أحشائها دبيب الصهباء في الأعضاء، ويكمن في صدرها كمون الأسرار في صدور الأقدار.

فما هي إلا بضع خطوات، حتى رأيت الرجل المسكين، وقد غاصت قدماه في الرمل، فحاول نزعهما فغاص إلى ركبتيه، فتحلحل فغاص إلى صدره، وما زال يساعد على نفسه

بمنازعته ومحاولته حتى لم يبقَ له فوق ظهر الأرض غير فم يصرخ بالنداء، وعين تذرف بالبكاء، ثم ما لبثا أن غطاهما الرمل، فرفع يديه بالدعاء، فلم يجد من رحمة في الأرض ولا في السماء.

وقفت بين يدي هذا المشهد المؤثر المحزن وقفةً أرسلت فيها قطراتٍ من الدموع على هذا البائس المسكين، وقلت في نفسي: «إنني قد عجزت عن إسعاده في نكبته، ومعونته في شدته، فلا أقل من أن أسعده بقليلٍ من الزفرات، ووشل من العبرات.»

ثم فارقته ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر «لا مارتين» فرأيته جالسًا في غرفته، وليس معه في منزله من يؤنسه غير كلبه، فسمعته يخاطبه، ويقول له: «أيها الكلب الأمين، قد هجرني الناس وبقيت بجانبي، وخانني الأصدقاء ووفيت لي، فأنت في نظري أوفى الأوفياء، وأصدق الأصدقاء، ولولا أنك كريم الأخلاق متواضع تأبى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السادة عليك، وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة إليك، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة الباب، ولأجلستك بجانبي؛ لأنك صديقي ومؤنسي، ولأنك أحق بالإكرام من كثيرٍ من أولئك الذين يفترشون الطنافس، ويتوسدون الوسائد، حسبي منك نظراتك التي تنظر بها إليَّ بود وإخلاصٍ، كأنني أشعر حينما أراك تحدق بي أنك تفتش عن سريرتي في أسرَّتي، وتقرأ في صفحة وجهي ما غاب عنك من دخيلة أمري، وكأنني أسمعك تقول: «ما باله؟ وما شأنه؟ وما الذي يحزنه؟ وما الذي يبكيه؟» حسبي منك ذلك، وهل يجد الإنسان من أوفى أصدقائه أكثر مما أجده في لفتاتك، وألمحه في نظراتك من الاهتمام بأمري، والعناية بشأني، والحزن لحزني، والبكاء لبكائي؟»

سمعت «لامارتين» يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق، فانسللت وذهبت لشأني، وأنا أقول في نفسي: «إذا كان لامارتين، وهو أشعر شاعر في فرنسا — وفرنسا مهبط وحي الشعر — لم يجد صديقًا وفيًّا غير كلبه المقعي على عتبة غرفته، فأين يذهب سائر الشعراء؟ ومتى يجدون الأصدقاء؟»

تركت منزل «لامارتين» وذهبت إلى منزل «دي موسيه» فرأيته معتزلًا في غرفةٍ من غرف منزله يبكي بكاء مرًّا، ويزفر زفيرًا تكاد تتقطع له أحشاؤه، فقلت: «ليت شعري ما أبكاه، وما الذي دهاه؟!» فسمعته يترنم بقصيدةٍ من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه شرحًا مؤثرًا مؤلمًا، حتى خيل إليَّ أن كل بيتٍ من أبياتها جذوة نارٍ ملتهبة، وسمعته يشكو فيها خيانة حبيبته «جورج صاند» ويعالج نفسه على أن يسلوها، ويتناسى عهدها وذمامها، فلا يجد إلى ذلك سبيلًا، وما هو إلا أن أتم قصيدته حتى تغير لونه، وشخص

بصره واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة بين أيدي الرياح العاصفة، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم، ويخلط في كلامه خلطًا شديدًا، فعلمت أنَّ الرجل قد جُنَّ، وأنَّ العالم الشعري قد فجع فيه، فمضيت لسبيلي وأنا أسأل الله العافية، وأقول: «إنَّ جمال المرأة أحقر من أن يقتل أوفر عقل، وأعجز من أن يطفئ أكبر قريحةٍ، ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا، وأمر الغيب سر محجب.»

تركت منزل «دي موسيه» ومشيت في شارعٍ من شوارع باريس، فرأيت شيخًا رث الثياب زري الهيئة، يمشي مشيةً هادئة مطمئنة، ويجر في رجليه نعلًا بالية قد أطلت أصابعه من خروقها كما تطل الحيات من أجحارها، فأتبعته نظري، فرأيته لا يرفع طرفه سكونًا وإطراقًا، ولا يحرك عضوًا من أعضائه رزانةً ووقارًا، فقلت في نفسي: «إنَّ لهذا الرجل شأنًا!» فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت إسكافٍ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه، فجلس على الأرض ينتظره حتى يعود، فيخصف له نعله، فسألت بعض المارة عنه، فقال: «هذا كورني شاعر فرنسا.» فأخذتني الدهشة، وملكني العجب حتى كاد يحول بيني وبين عقلي، فقلت في نفسي: «ويحٌ لكم معشر الناس، أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر على رجل يقلد أعناقكم الدر والجوهر؟! أعجزتم عن أن تجمعوا أمركم على أن تمسحوا هذه الغصون في تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يومٍ بما يفرج كربتكم، وينعش نفوسكم؟!» ثم رجعت أدراجي، وأنا أقول: «كأن قضاءً حتمًا على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون، ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون!»

إنَّ في جلسة «لامارتين» منفردًا في منزله لا مؤنس له غير كلبه، وفي عزلة «دي موسيه» في غرفته وخلوته ببكائه ونحيبه، وفي ضجعة «كورني» أمام حانوت الإسكاف، لآيةً للمتفكرين، وعبرةً للمعتبرين.

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب أشكر للكاتب ما كتب، وللمترجم ما ترجم، وأقول: «من لي في كل يومٍ بسياحةٍ مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب؟»

دمعة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودي، وإمام النثر محمد عبده، فجزعنا ما جزعنا، وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا، ثم كفكفنا من تلك الدموع، وخفضنا من زفرات الضلوع، حينما سمعنا قول القائل: إنَّ في الباقي عزاءً عن الفاني، وإنَّ في الأبناء خلفًا من الآباء، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر، والدهر إثر الدهر، والأدب جاثٍ في مكمنه جاثمٌ، لم يبعث من مرقده بعدما قبرناه، ولم ينشر من قبره بعدما وارياه، فتساءلنا: أين الباقي الذي يزعمون، والخلف الذي يذكرون؟

أين فطاحل اللغة الأدبية لا السياسية، وأرباب الأقلام العربية لا الأعجمية؟ عذرنا المويلحي الكبير واليازجي؛ لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما، فهل مات شوقي، وحافظ والبكري، والمويلحي الصغير؟ ما مات منهم أحد، وإنما كانت حياة الرجلين حياة الصناعتين، وكان لوجودهما سرٌ من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها، والأقلام فيجريها، وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء، تشتعل المصابيح بتيارها وتضيء بأسرارها، فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها عم الظلام واشتد الحلك، والمصابيح كما هي جسم بلا روح، ولفظٌ بلا معنى.

أما شوقي فقد طار في جوٍّ غير هذا الجو، وهام في وادٍ غير ذلك الوادي، وما زالت تعبث به الأنواء حتى أغرقته في شبرٍ من الماء! وأما حافظ فقد انقضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء، أما حياته الشعرية، فلم يبقَ منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان؟ وأما البكري والمويلحي، فقد قضيا حق التأليف هذا بصهاريجه، وذاك بفتراته، ثم لحقا بالسابقين، ومضيا على أثر الماضين.

أين سكانك لا أين لهم أحجازًا أوطنوها أم شآما؟

أين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها، ونهصر أغصانها، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها؟ وأين البلابل التي كانت تتنقل بين أشجارها، فتطرب بالأغاريد، وتستهوي بالأناشيد؟

فاسألنها واجعل بكاك جوابًا تجد الدمع سائلا ومجيبا

أنا لا أعجب لشيءٍ عجبي لهؤلاء الأدباء، يحزنون فلا يبكون، ويطربون فلا يضحكون، ويتألمون بلا أنين، ويعشقون بغير حنين.

أيطرب البلبل فيغرد، ويشجى الحمام فينوح، ويطرب الشاعر ويشجى الكاتب فلا ينطق لسانهما ولا يهتز قلمهما؟!

لما أسنَّ عمر بن أبي ربيعة ورأى أن الغزل والتصابي غير لائقٍ بشيبه ووقاره عزم على هجره، فما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وغلب على أمره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه؛ فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتًا من الشعر إلا أعتق رقبة، فشكا إليه رجلٌ حبًّا برح به، فحن واهتاج، ونظم أبياتًا في شأن الرجل ووجده، ثم أعتق عن كل بيت رقبة.

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبي ربيعة، وهم في شرخ الشباب وإبان الفتوة؟ إن كانوا فعلوا ذلك، فأسأل الله لهم قصةً كقصة عمر تهيج أشجانهم فتحنث أيمانهم، والأمة كفيلةٌ لهم بوفاء النذور، وكفارات الأيمان:

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوقٌ حين يلقى العاشقينا

الصحافة

يا صاحب النظرات

أنا عاملٌ من العمال في دائرةٍ من دوائر الحكومة أتناول منها في كل شهر عشرةً ذهبًا، وقد أشار عليَّ بعض الذين يعتقدون أنني صاحب قلمٍ أن أستقيل من ذلك العمل وأشتغل بالصحافة، وحجتهم في ذلك أن الصحافي يخدم أمته أكثر مما يخدمها غيره، وأنه يربح من المال أكثر مما يربح سواه، وقد أوشكت أن أصغي لقولهم، وأعمل برأيهم، فماذا ترى؟

أَشِرْ عليَّ برأيك، فقد أصبحت أعتقد أنك أعقل الكُتَّابِ وأكثرهم إخلاصًا، والسلام.

موظف

أيها الرجل، لا تفعل، فإنك إن فعلت خسرت ماضيك من حيث لا ينفعك مستقبلك، فاحذر أن يخدعك عنك خادعٌ، واربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين!

إنك لن تستطيع أن تكون صحافيًّا رابحًا إلا إذا كنت صحافيًّا كاذبًا، فإن كانت منزلة الأخلاق عندك دون منزلة المال فامض لشأنك.

أنت في مستقبل أمرك بين اثنتين: إما أن تكون صاحب الصحيفة، أو أحد المحررين فيها.

فإن كنت الأول، فأنت بين خاصةٍ لا يرضيهم إلا أن تصعد عندهم، وعامةٍ لا يعجبهم إلا أن تهبط إليهم، فإن صعدت إلى الأولين هلكت؛ لأن الخاصة هم الأقلون عددًا والأقلون مالًا. وإن نزلت إلى الآخرين خسرت؛ لأن العامة يبغضون الحقيقة، ويبغضون

لأجلها المحقين. وإن وقفت في منزلةٍ بينهما سخط الفريقان عليك وارتابا بك، وأقسما جهد أيمانهما أنك من المرائين المتقلبين. وإن كنت الثاني، فسيبتليك الله برئيسٍ يحرج صدرك بمقترحاته، ويجرح قلبك بمؤاخذاته، ويطلب عندك من الرأي والفهم والأسلوب والنسق ما عند نفسه، وهيهات أن يجد عندك ما يريد منك إلا إذا صح مذهب التقمص، واستطاعت نفس كل منكما أن تتسرب في أطواء صاحبتها وتتلاشى فيها.

ذلك إلى ما يرزؤك به كل يوم من الوقوف بينك وبين عقلك، فيستكتبك ما يريد، ويحول بينك وبين ما تريد، فكأنما يعمد إلى عقلك — وهو أثمن من الجوهر — فيبتاعه منك بلقيماتٍ لا تكاد تقيم بها صلبك، وكأنما إدارة الجريدة التي تعمل فيها آلةٌ ميكانيكية أنت فيها عمود يدور اضطرارًا لا إنسانٌ يتحرك اختيارًا.

إنَّ هؤلاء الكاتبين الذين تراهم جلوسًا على مقاعدهم في إدارات الجرائد المصرية أسوأ الناس حظًّا، وأعظمهم شقاء، يكتب أحدهم في الصباح ما يستحيي له في المساء، ويقول في المساء ما يكتب غيره في الصباح، ويظل طول حياته كرةً تتلقفها الأحزاب في أنديتها. ولقد يكتب أحدهم الرسالة يذيب فيها دماغه، ويريق فيها عصارة مخه حتى إذا استوت له، وظن أن قد بلغ من الإحسان غايته، رفعها إلى رئيسه، فما هو إلا أن يقرأها ويرى فيها مدح من لا يحب أو نقد من لا يكره حتى يرمي بها وجهه، ويردها عليه ردًّا المبتاع على البائع سلعته، فيعود بها باكيًا مستعبرًا، ولا يعلم إلا الله ما يلم بقلبه في تلك الساعة من الحزن على حياةٍ كلها نفاق ورياء، وذل وضرعٌ، يتلمس فيها عقله فلا يجده؛ لأن الصحافة قد ملكته عليه، وسلبته إياه، ويسائل عن فهمه وإدراكه فلا يهتدي إليهما، ولا يعرف لهما وجودًا خاصًّا بهما؛ لأنه أصبح لا ينطق إلا بلسان غيره، ولا يكتب إلا بقلم سواه.

لولا أنَّ الله سبحانه وتعالى صنع لهؤلاء المحررين فرحمهم بتلك البساطة التي أودعها عقول السواد الأعظم من هذه الأمة، لما وجدوا في الناس من يسمع لهم قولًا، أو يعتمد لهم رأيًا.

من ذا الذي يحفل بفكرةٍ يعلم أنها لم تخالط قلب الكاتب، ولم تمتزج بأجزاء نفسه، ولم تلتئم مع ما يعرف له من أخلاقه وطباعه وميوله وأهوائه، وما هي إلا طريدةٌ من طرائد الحاجات، وصنيعة من صنائع الحوادث، تعرض ثم تزول كما تعرض وتزول نقائضها وأضدادها، كالأمواج يأخذ بعضها برقاب بعض، وتحل أخراها محل أولاها؟

من ذا الذي يحفل بفكرة كاتبٍ يحرر في «المؤيد» اليوم، فينتقد «اللواء» وكاتبه، ويحرر في «اللواء» غدًا، فيذم «المؤيد» وصاحبه، حتى إذا صار إلى «الجريدة» ذم الجريدتين، واستهجن الخطتين؟

أنا لا ألوم المحررين على تقلبهم في المذاهب، واضطرابهم في الآراء، ولا ألوم أصحاب الصحف على وقوفهم في حياتهم هذه المواقف التي ساقهم إليها العيش، ونزولهم تلك المنازل التي ألقتهم فيها يد الحاجات، وإنما ألوم الأمة على استهانتها بأدبائها، واحتقارها لكتابها، وأنها لا تقيم من الوزن لحملة المحابر والأقلام ما تقيمه لحملة المزامير والعيدان، حتى إنك لترى الرجل الذي لا بأس بعقله ولبه وفهمه وإدراكه، يسهل عليه أن يمنح مائة دينارٍ لمغنٍّ واحدٍ غنَّى له صوتًا واحدًا في ليلة واحدة، ولا يسهل عليه أن يمنح مائة قرش لجمعية من جمعيات التأليف والنشر في كل عام، وتراه ينفق في العام على مسح نعاله عشرة دنانير، ولا ينفق واحدًا منها على مجموعة ثمينة مؤلفة من كتاب «التربية الاستقلالية» و«روح الاجتماع» و«البؤساء» و«سر تقدم الإنجليز» و«تحرير المرأة» و«عيسى بن هشام».

إني أتمنى على الله الغنى، لا لأني في حاجةٍ إلى المال، فقد رزقني الله منه ما يغنيني أن أطلب لنفسي من بعده مزيدًا، بل لأجمع خمسةً من كتاب هذه الأمة، وخمسة من شعرائها، وعشرة من علمائها في منزلٍ واحد، وأسبغ عليهم وعلى عيالهم من نعمة العيش، ونعمة المال ما تثلج به صدورهم، وتطمئن به نفوسهم، ثم أقول لهم: «دونكم هذه الأمة فاكتبوا لها من الرسائل، وانظموا لها من القريض، وألفوا لها من الكتب ما تعلمون أنه يأخذ بضبعيها، ويطير بها من قرارة الجهل إلى سماء العلم، وكونوا فيما تأخذون به أنفسكم أحرارًا غير مقيدين، وطلقاء غير مأسورين، لا يزعجكم عن مكانكم مزعجٌ، ولا يكدر صفاءكم مكدرٌ، ولا يعجلكم من أمركم معجل، ولا يصدنكم عن سبيلكم خوفٌ من كساد بضاعتكم، أو حذرٌ من هياج الجاهلين عليكم.» ثم أعمد إلى نفثات أقلامهم، فأنثرها على رءوس الناس نثرًا من حيث لا أبتغي لها ثمنًا، أو أطلب عليها أجرًا غير ذلك الأجر الذي يدخره الله في دار جزائه لعباده الصالحين. فليت شعري! هل يمنحني الله طِلبتي، أو يلهم قومًا من الأغنياء فكرتي؛ فيتم للأمة على يد تلك الجمعية العلمية الأدبية الحرة في عملها المستقلة برأيها في عشرة أعوام ما لا يتم لها على يد هؤلاء الصحافيين المقيدين، والمؤلفين المغلولين في عشرة أعوام؟!

أمنيةٌ شغفت روحي بها زمنًا واليوم أحسبها أضغاث أحلام

أيها السائل، لا تحسد حملة الأقلام على صناعتهم، ولا يغرنك ما ترى لهم في نظر الأمة أحيانًا من مظاهر الإجلال والإعظام، وما يطرق آذانهم كل حين من أصوات التحبيذ والاستحسان؛ فإنما هي صورةٌ لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تقل: إنهم يخدمون الأمة، فلن يخدم الأمة مثل الغني عنها الذي لا يبالي بها رضيت أم سخطت، قامت أم قعدت، ولا تقل: إنهم يربحون، فإنما هم يستنبطون أرزاقهم من شق القلم، وشق القلم لا يجود بالرزق إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال.

التماثيل

جاءني الكتاب الآتي من حضرة الكاتب الفاضل محرر جريدة «ثمرات الفنون» ببيروت، وقد ناشدني الله أن أنشره بنصه، فلم أر بدًّا من تلبية طلبه، وها هو ذا:

سيدي المنشئ الفاضل

أحييك بتحية الإسلام، وأبثك الشكر والثناء على ما تزين به صدر «المؤيد» الأعز من أبكار الأفكار، ونفائس الآثار، مما يتلقاه أبناء هذا الثغر بالارتياح والابتهاج، حتى إننا حلينا جيد الثمرات بعدة من هاتيك الدراري اللامعات، فجزاك الله عنا جزاء الخادم لأمته، المحب لوطنه، الغيور على دينه، وزادك همة ونشاطًا في هذا السبيل، سبيل الإصلاح والهداية.

ما كتبت إليك هذه الكلمات بقصد الإدلال على فضلك والاعتراف بخدمتك، فإن نفثات قلمك تدل على أنك من ذوي الأخلاق الفاضلة، والنفوس الكبيرة الذين لا تغرهم أمثال هذه الزخارف الباطلة، فضلًا عن أنك غنيٌّ بنفسك عن كل مدحٍ وثناء، وإنما كتبت إليك لألفت نظرك الكريم إلى أمر كان له عندنا أثر سيئ في نفوس المسلمين قاطبة، وهو عزم المصريين على نصب تمثالٍ لفقيد مصر مصطفى كامل باشا رحمه الله، كأن إخواننا المصريين أصبحوا أغنياء عن كل مشروع علمي أو أدبيٍّ أو اجتماعيٍّ، فلم يبقَ بين أيديهم ما ينفقون فيه أموالهم إلا أمثال هذه المشاريع التافهة، أو كأنهم لا يعلمون أنها محرمةٌ في دينهم — دين الإسلام — أو كأنه صار من المحتم اللازم علينا أن نقلد الأوروبيين في كل ما يعملون شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا — كما قال عليه الصلاة والسلام — جحر ضبٍّ لدخلناه، أو شربوا نخبًا لشربناه،

أو صنعوا صنمًا لصنعناه، كل ذلك يدل أصرح دلالةٍ على أنَّ الجمود ما برح مستحكمًا فينا؛ لأن التقليد الأعمى شأن العاجز الضعيف الذي لا يدري بماذا فاقه القوي القادر، فهو يقلده في جميع حركاته وسكناته، ظنًّا منه أنها سر قوته وقدرته.

لو أقام المصريون لكل عاملٍ بينهم تمثالًا لعادت مصر إلى عهدها الأول في زمن الفراعنة حيث في كل بقعةٍ هيكل وتمثال، وظني أن لو كان المرحوم مصطفى كامل باشا حيًّا، لما رضي عن مشروعٍ كهذا يمس الأمة المصرية في وطنيتها ودينها.

فناشدتك الله يا سيدي أن تنشر كلماتي هذه بنصها على صفحات المؤيد الأغر، فإن اليراع عندنا مغلولٌ، إلى درجةٍ ألف معها الخمول، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

محرر ثمرات الفنون
أحمد حسن طباره

هذا نص كتابه، وقد كتبت إليه الرد الآتي:

حضرة الكاتب الفاضل

قرأت كتابك، فهبَّت عليَّ من بين سطوره نسمةٌ شرقية، تمر بي الساعات والأيام، والأشهر والأعوام في مصر أترقب هبوبها، فلا أجد إليها سبيلًا.

كتبت إليَّ كلمة كان في استطاعتك أن تكتبها في جريدتك، ولكن حال بينك وبين ذلك ظنٌّ قام في نفسك أنَّ اللسان في مصر أطلق منه في بيروت، وأنك واجدٌ في بلدنا ما لا تجد في بلدك من حرية الفكر وسعة الصدر، وليتك تعلم يا سيدي أنَّ كلمتك هذه لم يستطع أن ينطق بها في مصر غير رجلين، فكان نصيب أحدهما السب، والآخر الضرب.

ليتك تعلم ذلك، فلا تبالغ في حسن ظنك بحرية الأقلام في مصر؛ فإنها حرية موهومةٌ لا يغتر بها من يعرف حقيقة الحرية، ومن يعتبرها بنتائجها وآثارها لا بزخارفها وتهاويلها.

نعم لا توجد في مصر شكائم في أفواه الناطقين، ولا جوامع في أيدي الكاتبين، ولكن محكمة الرأي العام فيها محكمة وجدانية أكثر منها قانونية،

فهي إما أن تبرئ المتهم فتعلو به إلى مدار الأفلاك، أو تدينه فتهوي به إلى مقر الأسماك.

إنَّ كثيرًا من عقلاء الرجال في مصر يهابون التصريح بالحقائق التي يعلمون أنها نافعة لأمتهم أكثر مما يهاب الكتاب في سوريا الشكائم والأغلال؛ ذلك لأن الرأي العام هنا متهورٌ في مذاهبه ومراميه، ظالمٌ في أحكامه لم يخطُ إلى اليوم الخطوة الأولى في احترام الآراء، وإجلال الأفكار وإنزالها المنازل التي تستحقها.

إنَّ منظر العقلاء في مصر منظرٌ محزن مؤثرٌ يبعث الرحمة، ويستمطر العبرة. إنهم يعالجون من العامة فوق ما يعالج طبيب البيمارستان من مرضاه. إنهم يعانون من مجاراة الجاهلين في جهالاتهم، وكتمان الحقائق التي تغلي في صدورهم غليان الماء في المرجل، ما يرنق صفاء العيش، ويشوه وجه الحياة، إنهم في حيرة لا يجدون إلى الخلاص منها سبيلًا، إن نطقوا بكلمة إصلاحٍ في الدين سماهم الجاهلون كفارًا، أو في السياسة سموهم خونة، وإن سكتوا أغضبوا الله وأغضبوا الحق، فهم بين هذا وذاك كهاربٍ من سبع مفترس لم يجد أمامه إلا الماء، فالهلاك إن أحجم، والغرق إن أقدم.

ربما تقول: إنَّ الصحافة في مصر تملك زمام الرأي العام، فكيف تعجز عن حبس تيارة وكسر شرته وقيادته إلى رشده وهداه؟

والجواب على ذلك أنَّ الصحافة المصرية ناقصةٌ نقصًا كبيرًا، ومشتملة على عيوب ورذائل لو تجردت منها لبلغت الغاية التي تريدها من تعليم الشعب وتهذيبه، وتقويم المعوج من ميوله ومذاهبه.

الكُتَّابُ في مصر ثلاثة: جاهلٌ لا يميز بين ما ينفع أمته وما يضرها، وعاقلٌ يهاب مصادرة الرأي العام في مألوفاته ومعهوداته، فيسكت مغلوبًا على أمره، ومنافقٌ يعرف الحقيقة ويعبث بها. فمن أيِّ واحد من هؤلاء الثلاثة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

وأكبر هؤلاء الثلاثة جرمًا، وأشدهم ضررًا، وأسوأهم أثرًا، ذلك الكاتب المنافق الذي هو أشبه شيءٍ بالنائحة التي تسدل على وجهها نقابًا تتباكى من ورائه لتستبكي اللواتي يردن البكاء من النساء، وما في جفنها — يعلم الله — قطرةٌ من الدمع، ولا في قلبها لاعجٌ من الحزن، ولكن هكذا قدر لها أن

يجري رزقها من بين العبرات والزفرات، وإن شئت فقل: إنه كشاعر القهوات يسرد على السامعين قصص الوقائع والحروب بين الأبطال الخياليين حتى يثير عواطفهم، ويهيج أحقادهم، فإذا قسمهم على أنفسهم وضرب بعضهم ببعضٍ خلص من بينهم إلى منزله فرحًا مغتبطًا برنين الدراهم في كيسه، وقد ترك وراءه أولئك البسطاء أسرى الهموم والأحزان، قتلى الضغائن والأحقاد.

الكاتب العاقل يخدم عواطف الأمة بتنميتها وتهذيبها، وتحويل تيارها إلى الخطة المثلى، أما الكاتب المنافق فإنه يستخدمها لنفسه وإن أفسدها على أصحابها.

ولقد دخلت مرةً على بعضِ الكتَّابِ، فعتبت عليه أنه يكتب غير ما يعتقد، ويقول غير ما يعلم، وقلت: «إنَّ خطتك هذه مضرةٌ بالأمة التي أنت أحد قادتها، وإنك قد سلكت في مذهبك هذا سبيلًا ما كنا نعرفه لك قبل اليوم، فقد عهدناك تصدع بالحق، لا تبالي أغضب الناس أم رضوا، وتجهر به، وإن لم تجد أذنًا واعيةً أو صدرًا رحيبًا.» فأطرق طويلًا ثم رفع رأسه، وأحسب أني رأيت قطرة من الدمع تترقرق في عينيه، وقال: «والله ما سلكت هذا السبيل وأنا أعلم أن فيه رضا الله أو رضا الحق، ولكني امرؤ لا أعرف لنفسي صناعةً غير صناعة القلم — قبحها الله وقبح كل ما تأتي به — وكنت أحسبني أستطيع أن أجمع فيها بين شرف النفس، ورغد العيش، فخاب ما أملت، إذ رأيت نفسي كسفينةٍ ماخرةٍ في بحر زاخر من شعبٍ قاصر يطلب مني ما يلذه لا ما يفيده، ويتقاضاني ما يعجبه لا ما ينفعه، فطفقت أرتئي بين أن أرضي الحقيقة فأهلك جوعًا، أو أرضي الأمة فأعيش سعيدًا، فغلبني حب الحياة على أمري، فلم أرَ بدًّا من الدخول على الأمة من ذينك البابين المعروفين: باب الوطنية، وباب الدين، فاصطنعتهما لنفسي بعدما كنت أصطنع نفسي لهما، فرغد عيشي، وحسن حالي، وأصبحت لا يكدر عليَّ صفائي غير الأسف على الحقيقة الضائعة.»

هذه الأمة المصرية أيها الكاتب الفاضل، وهذه صحافتها، وهذا مبلغ الرأي العام فيها، وهذا موقف العقلاء بين يديه، فهل تظن بعد ذلك أنَّ كاتبًا يستطيع أن يقول للأمة ما لا تهوى، أو يجرؤ على التصريح بحقيقةٍ يعتقدها بين هذا الشعب الهائج، وتلك الصحافة المتملقة؟

إنَّ كثيرًا من عقلاء مصر ينكرون — كما تنكر أنت — نصب تمثالٍ للمرحوم مصطفى كامل باشا، لا لصفته الشخصية، فإنه ممن يستحقون الإجلال والإعظام؛ بل لأنه مسلمٌ شرقيٌّ والأمة التي تريد نصب تمثالٍ له مسلمةٌ شرقية كذلك، فإسلامها يحرم عليها نصب التماثيل، وشرقيتها تنعى عليها هذا الإسفاف في تقليد الغربيين في جميع عاداتهم ومألوفاتهم، في حين يترفعون عن الاعتراف باستحسان شيءٍ من عاداتنا وصفاتنا فضلًا عن الأخذ بها أو محاكاتها.

إنَّ نصب الغربيين التماثيل لنوابغ الرجال فلسفةٌ تاريخية أرادوا بها تمثيل التاريخ اليوناني القديم، وإنزال عظمائهم ونوابغهم منزلة الآلهة وأنصاف الآلهة في ذلك التاريخ، أي إنها عادةٌ منحوتة من الديانات الوثنية، فهل يجمل بنا معشر المسلمين أمة محمد ﷺ هادم الأصنام وكاسر الأوثان، أن نحفل بعادةٍ هذا منشؤها، وتلك غايتها، وأن نستقبل بصدرٍ رحبٍ نصب التماثيل في بلدٍ هي بقعة الإسلام، وباب البيت الحرام، ومعهد الأزهر الشريف، ومدفن الصحابة والتابعين، والأئمة المطهرين؟!

أيجمل بنا أن نتخذ هذه العادات الوثنية في عصر ندعو فيه إلى الإصلاح الإسلامي، ونحارب العوائد الخرافية الداخلة في الدين لنرجع به إلى عصره الأول، عصر السلف الصالح حيث لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله؟!

على أنه إن كان الغرض من نصب التمثال للرجل العظيم تخليد ذكره واستبقاء صورته مرتسمةً في أذهان الأجيال المستقبلة حتى لا تنساه، فإن جميع رجال الإسلام — من علماء الدين إلى علماء الفنون — لا تزال محفوظةً بين الجوانح مآثرهم ومفاخرهم، مذكورةً على الألسنة أسماؤهم وألقابهم، ولا نعرف لواحدٍ منهم صورة مرسومة أو تمثالًا قائمًا.

إن كان في أعمال الرجل وآثاره ما يضمن له بقاء ذكره في صدور الأجيال، ومستقبل القرون، فلا حاجة به إلى تمثالٍ يخلد ذكره، أوْ لا، فمن المغالطة التاريخية الاحتيال على بقاء ذكره بنصب تمثاله.

إنَّ المسلمين لم يألفوا قبل اليوم أن يعتبروا نصب التمثال للرجل عنوان عظمته، أو جائزة أدبية يكافأ بها على عمله، أي إنه لا يوجد فيهم من إذا رأى تمثالًا قائمًا يقول: «ليتني أنفع أمتي أو أخدم وطني فينصب لي بعد موتي

تمثال كهذا التمثال!» فإذن لا يمكن أن يكون نصب التماثيل في البلاد الإسلامية داعية الجد والاجتهاد في الأعمال، أو باعثًا على التشبه بعظماء الرجال.

إنَّ للرجل العظيم بعد موته جلالًا في القلوب لا يذهب به إلا نصب تمثاله على قارعة الطريق تحت نظرات الرجال والنساء والأطفال، والأذكياء والأغبياء، ومن يعرف قيمة الرجال، ومن يجهل فائدة التمثال، ومن لا يرى فرقًا بينه وبين الصور الخشبية المنصوبة في حوانيت التجار.

وغاية ما يستنتجه السواد الأعظم عند رؤية تمثالٍ لأحد عظماء الرجال معرفة صورته الظاهرية، وأنه طويل أو قصير، ونحيف أو بدين، وهي اعتبارات لا يعتد بها في رجولة الرجل، ولا علاقة بينها وبين علمه وجهله، وذكائه وغباوته، وجبنه وشجاعته، وإنما تظهر رجولة الرجل واضحةً مفهومة حتى للبلداء والأغبياء في ثمرات عقله، ونتائج أعماله، وفي مكرمةٍ يخلدها، أو مدرسة يشيدها، أو كتب يؤلفها، أو عقول يثقفها.

هذه — أيها الأخ الفاضل — آراء كثيرٍ من عقلاء المسلمين في مصر يتحدثون بها في مجالسهم، ولا ينشرونها في الصحف مخافة أن تلتصق بهم تهمة الخيانة للوطن، وهي الكلمة التي يتسلح بها الكتاب المنافقون في مصر ليحاربوا بها كل من خالفهم في رأيهم أو نازعهم حرفتهم، كما كان يصنع رجال الإكليروس في العصور الوسطى في استخدام تهمة الكفر للفتك بأعدائهم، والانتقام من خصومهم، والله أعلم بالخيانة أين مكانها، وفي أي قلب مستقرها!

أحسن أثرٍ يقام لفقيد الوطن أن تنشأ باسمه مدرسةٌ تربي فيها الناشئة الحديثة تحت رعاية الحزب الوطني — على ما كان يحب الفقيد أن يكون عليه النشء الحديث في المعارف والأخلاق والآداب الدينية، والمذاهب الوطنية — وينتخب لها معلمون متدينون مخلصون لله والوطن، يستطيعون أن يقدموا للأمة في كل عامٍ رجالًا، يكون كل واحد منهم صورةً حية من صورة الفقيد، وتمثالًا أنفع من تماثيل البرنز والأحجار.

هذا ما أراه، أكتبه إليك، وأملي ضعيفٌ أن يحقق الله رجائي فيه، ولكنها الحقيقة لا بدَّ من الجهر بها، والسلام عليك ورحمة الله.

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية مبلغًا يؤهلها لمجاراة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي، وألا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها.

أصبحت أعتقد أنَّ مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان وأخوان متحابان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها، فكيف أتمناها لأمةٍ هي أعز عليَّ من نفسي التي بين جنبي؟!

قرأت حوادث الانتحار في الغرب، فقلت: «قومٌ ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف بين يديها وقفة الشجاع المستقتل، ففروا من وجهه إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في كسور القبور، وما أكثر الجبناء في مواقف الحروب!»

قرأت حوادث المبارزة هناك، فقلت: «قومٌ عجزت يد المدنية الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدونه في عهد الهمجية الماضية من أن العرض إناءٌ إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيرًا ما أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف.»

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت ستار الليل إلى المقابر، فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات، شوقًا إلى لثمةٍ من خد يرشح صديده، أو رشفةٍ من ثغر يتناثر دوده، حتى إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام، فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام، وقرأت أنَّ الحكومة طاردتهم عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومعاهد عشقهم وهيامهم، فأرادوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالًا لما فاتهم الإلمام بهم حقيقة، فأنشئوا لأنفسهم تحت الأرض قاعةً كبرى كسوا حيطانها بالأستار السوداء، ووضعوا في وسطها صندوقًا من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها، وإسبال جفونها، وسكون أعضائها، وتعليق

أنفاسها! فإذا لج بأحدهم الشوق إلى قضاء حاجةٍ من فتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبرًا مظلمًا موحشًا يضم بين أقطاره فتاةً ميتة لا حراك بها، فَيلمُّ بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارةٍ أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال.

قرأت هذا، وقرأت أنَّ من الناس ناسًا في تلك الديار تجاوزوا ذلك الحد إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان، حتى إنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج إلمام غيرهم بالنساء البغايا، فقلت: «لا عجب في ذلك، وهل هو إلا فنٌ من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلًا؟»

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها، فإني لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قومٌ من الأمريكيين في وسط مدينةٍ من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرةً من حيث لا يرون في ذلك بأسًا، ولا يجدون فيه متلومًا، وقد وضعوا لها هذا البرنامج الآتي:

يوم الأحد: دروس استعدادية.

يوم الإثنين: الغزل.

يوم الثلاثاء: المطارحة.

يوم الأربعاء: صناعة التقبيل والتجميش.

يوم الخميس: فلسفة الدلال والتصبي.

يوم الجمعة: انتقاء مواعيد اللقاء.

يوم السبت: الامتحان.

هذه هي المدرسة الغرامية، وهذا نظامها، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها بالأمم البهيمية — إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من الشبه في حب الشهوات، والاستهتار فيها — بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها: إنها زهرة المدنية الحديثة وتاجها المرصع؟

لماذا نسمي قبائل الزنوج قبائل متوحشة، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيلٌ إلى مخالطة النساء، فيأخذونهم جميعًا إلى مكان خاص بهم خارج القرية، يبيتون فيه فوق هضبةٍ مرتفعة،

ينثرون حولها ترابًا مُعَبَّدًا، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نَمَّ أثره عليه؟ كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى من نسائهم حتى لا يحدث أحدٌ من الرجال نفسه بقرع ذلك الباب إلا مالكه وصاحب الحق فيه! ولماذا نسمي الأمة الأمريكية أمة متمدينة، وها هي ذي تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحدٍ من الناس غضاضةٌ في دخولها، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها؟

إن كان توحش الأولين لإغراقهم في صون الأعراض، فالآخرون أكثر منهم توحشًا لإغراقهم في هتكها وابتذالها، ولإغراق في الخير خيرٌ من الإغراق في الشر.

فيا أيها الزنجي المسكين، لقد ظلمك من سماك متوحشًا، ويا أيها الأمريكي المتوحش، لقد كذبك من سماك متمدينًا.

أيها الزنجي الأسود، إن كنت أسود اللون، فالفضيلة أشرف عنصرًا من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنبًا تنفر منه وتأبى أن تأوي إليه، وإن كنت جاهلًا، فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفننا لا أحسبك تحن إليه، أو تتقطع نفسك حسراتٍ عليه، وإن كنت عاريًا، فربما لبست من الفضيلة ثوبًا يحسدك عليه لو يعقل ذاك الذي يفخر عليك بخزِّه وديباجه، ودمقسه وحريره:

ولو بتما عند قدريكما لبت وأعلاكما الأسفل

أمس واليوم

مثلنا، ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده، كمثل رجلٍ ضل به طريقه في ليلةٍ ليلاء غدافية الإهاب، حالكة الجلباب، قد تجسد ظلامها حتى كاد يُلمس بالراح، فانقلب جوهرًا بعد إذ هو عرضٌ، فأصبح كأنما هو فحمٌ سائلٌ، أو مدادٌ جامد، فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد وتخفضه الوهاد، لا يرى علمًا فيهتدي به، ولا يتنور نجمًا فيعتمد في سراه عليه.

وإنه لكذلك، وقد استوت في نظره الجهات الست، فسماؤه أرض، وأرضه سماء، ووراءه أمامٌ وأمامه وراء، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق، وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطراتٍ ملتهبةً من ذائب أشعته المتلألئة، فعَشى بعد أن كان بصيرًا، فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئًا، وما زال في ضلاله القديم إلى أن زال ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء، وهو شر الضلالين، وأقتل الداءين، فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة التي همى سيلها على هذا العالم الإنساني، فرأى الغرب تربة طيبةً صالحةً فسقاها، فاهتزت وربت، وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، ورأى الشرق تربةً صامتةً متحجرةً قد نجم فيها كثيرٌ من الأعشاب الضعيفة والجذور الفاسدة، فأما ما تحجر منها فلم تغنِ عنه السقيا شيئًا، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسدًا كأصله، وكان خيرًا له لو ذهب ذلك الفيضان به وبجذوره.

أي إنَّ المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متثاقلةٍ، فما خفق لها قلبه ولا اضطرب، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين، فصعدت بهم إلى سمائها خطوة خطوة — كما يعوَّد الطفل الصغير على المشي — وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا وهوينا إلى أعمق مما كنا، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو، فإذا ارتد ارتد إلى حفرةٍ يدفن نفسه فيها.

أي إنَّ الغربيين أحسوا فنهضوا، فجدوا، فأثروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم، ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات، ووثبنا إلى الغاية وثبًا فسقطنا.

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالًا وأروح بالًا، وأهنأ عيشًا وأسدَّ خطوات في سبل الحياة، وكانت المعيشة فيهم اجتماعيةً أكثر منها أفرادية، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيءٍ بالمملكة الدستورية المنظمة، يدبرها عقلٌ واحدٌ في جسومٍ كثيرة متفقةٍ في الرأي، والدين والمذهب، والأخلاق والعادات، تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساحة المتنزه، يحبون الله ولا يختلفون إلا في الطريق إلى رضاه، ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم، ولغاتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية، ويفرون من العادات والمشارب الغربية عنهم فرارهم من الأسد، مخافة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتموت نفوسهم، فإذا هم ميتون، ثم لا يبعثون.

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمةٍ واحترام، يحترم الصغير الكبير، فيكبر عمله وإرادته ومذهبه، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآةً له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب، حتى إذا أصبح الصغير كبيرًا وجد من صغيره ما وجد منه كبيره، فلا تزال سلسلة التوارث في العائلة متصلةً اتصالًا تعيا به الحوادث، وتكبو دونه عاديات الليالي.

ويرحم الكبير الصغير، فلا يألوه نصحًا في حاضره ومستقبله، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ، فإذا هو هو، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئًا.

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أثكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالبة، وزخارفها اللامعة الباطلة، فانقلبت المعيشة البيتية الاجتماعية أفراديةً محضة، فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقيٌ بأبيه،

والأب شقيٌ بولده، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب، لا ترى فيها غير وجوهٍ مقطبة، ونفوسٍ منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء إثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء!

ومن كان في شك من هذه الحقائق، فإني أَكِله إلى جداول القضايا في المحاكم، فإن لم يرَ أن أكثر المخاصمات فيها — خصوصًا المدنية منها — واقعةٌ بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

وإن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها، فاسمع قصة رجلٍ مصري كان ذا ثروةٍ متوسطة، عاشرت آباءه أجيالًا متعددة، فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة أولادٍ و«امرأة جديدة» متعلمة تعرف كل شيءٍ إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها، وليتها جهلت كل شيء غير هذا، فتكون قد علمت كل شيءٍ! وتحب مطالعة الروايات الغرامية حبًّا ملك عليها مشاعرها وخوالجها، فربما عرض لها المهم من الأمر، فلا تخف له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه، وتحب التمثيل، فتقضي ليلها في مشاهدته، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على أخدانها وأترابها، وربما كانت تهمس في آذانهن أن ليتها ترى «روميو» فتكون له «جولييت»، وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور، فيومها نصفان نصف للخروج، ونصف للتهيؤ له، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس إلى مغربها. بنى بها زوجها بعد وفاة زوجته الأولى، فلم يغتبط بها غير عام واحد، ثم ضرب الدهر ضرباته، فإذا بينهما عيشةٌ لا أظن أنَّ الجحيم أشد نكالًا منها.

أما أولاده، فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغاتٍ مختلفة: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ثم تخرجوا هذا إنجليزيٌّ بفظاظته وخشونته، وهذا فرنسيٌّ بخلاعته واستهتاره، وذاك ألمانيٌّ بخيلائه وكبريائه، وجمعيهم متفرنجون مشربًا ومذهبًا، ومطعمًا وملبسًا ومسكنًا، وما فيهم من تفرنج همةً وعملًا.

خرجوا من المداس بلا دين ولا وطن، أما الدين، فلأن أكبر مدارسنا — حتى الأهلية منها — مادية محضة، لا تعلق للدين بشأنٍ من شئونها، والدين خلق، شأنه كبقية الأخلاق لا يرسخ في النفس إلا بتكرر الصور الدينية، وتداولها عهدًا طويلًا، فإن بعد عهدها به أغفلته وأنكرته. وكذلك كان شأن هؤلاء الأولاد المساكين، فقست قلوبهم، وجمدت نفوسهم، وفقدوا بفقد دينهم أطيب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب، الحافلة بالكوارث والهموم.

والإنسان مهما طال حوله، وكثر طوله، واتسعت مذاهب قوته، فليس ببالغ من هذا الدهر المعاند ما يريد، لولا زهرة الأمل التي يتعهدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن،

فيستروح منها ما يروح عن قلبه، ويسري عن نفسه، ويقينه أن هناك حولًا أكبر من حوله، وطولًا أعظم من طوله، وإلهًا قادرًا يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وقصرت عنه قوته.

وأما الوطن، فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستارٍ أيدٍ أجنبيةٌ تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم.

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمعٌ من مجامع السفراء، عثمانيٌّ متمسك بعثمانيته، وإنجليزي يهتف ليله ونهاره بأن دولة الإنجليز سيدة البحار، وأنَّ الشمس لا تغيب عن أملاكها، وفرنسيٌّ يعبد فرنسا، ويسبح بحمدها، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة، وأنَّ أسعد المستعمرات مستعمراتها، وألمانيٌّ يستظهر خطب الإمبراطور غليوم، ويُنجِّم أنَّ المستقبل لألمانيا يوم يمحى اسم إنجلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا. وكثيرًا ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاع الطويل في شأن الألزاس واللورين، وبين المتألمن والمتجلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلو، وأي القائدين كان له الغلب والفضل في كسر نابليون، بلوخر أو والنغتون! ولا يتفقون إلا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيلٍ، ويلبسونها ورجالها — قديمًا وحديثًا — أثواب المراقع المضحكة غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من عينَيْ والدهم الجالس ناحيةً يندبهم، ويندب نفسه معهم. فبئس الاختلاف حين يختلفون، ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون!

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل، وتفرق أفراد تلك العائلة أيما تفرق، وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام. فلا يصطحبون في متنزه، ولا يجتمعون لصلاةٍ، ولا يتصادفون في سمرٍ، ولا يتفقون في شأنٍ من شئونهم البيتية، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملبس، وجميع مرافق الحياة، ما يطالبه به خُلقه المباين خُلق أخيه أو أبيه.

فأنَّى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة؟! وأنَّى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم، والمنزل قوام الأمة، تسعد بسعادته، وتشقى بشقائه؟!

وأي شأنٍ لهذه المعلومات المتكثرة التي حشروها إلى أذهانهم، وهل أفادوا بها إلا هذرًا في المنطق، وثرثرةً في اللسان، وشغلًا للأذهان لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلًا؟

ولو عقلوا لعلموا أنَّ المخترعات الحديثة والمكتشفات الجديدة، والعلوم العصرية إنما هي خدمٌ وحاشية بين يدي السعادة، والسعادة هي اللذة الباطنية التي يحس بها

الإنسان عند أداء الواجب عليه لنفسه وعشيرته ووطنه ودينه، فما لم تكن مقدمةً لهذه النتيجة كان وجودها أشبه شيءٍ بالعدم.

ولو عقلوا لعلموا أنَّ الغربيين إنما يحفلون بجميع العلوم العصرية حتى علوم الأخلاق والآداب والدين باعتبار أنها وسائل مادية يتوصل بها إلى تحصيل مرافق الحياة المحصلة لرفاهية العيش وسعادة الحال، ولا اعتبار عندهم لذواتها وأعيانها. فهم يعلمون للعمل، ويخترعون للمتاجرة، ويكتشفون للربح، ومن ظن غير ذلك فقد ضل ضلالًا مبينًا.

ولو عقلوا لعلموا أنَّ ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا — ونسميه نحن جهلًا وهمجيةً — هو خيرٌ من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به، وننعى عليهم تاريخهم من أجله؛ لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه بكثيرنا.

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وأنَّ مصر في أفريقيا، وسوريا في آسيا. ولكنهم كانوا يعلمون أنَّ وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوبٌ لديهم، وأنَّ أبناء وطنهم إخوةٌ لهم يسعدون معًا ويشقَون معًا، وأنَّ سعادتهم في استقلالهم، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية إليهم. وكانوا يجهلون الفرق بين المملكة والإمبراطورية والجمهورية، ولكنهم كانوا يعلمون أنَّ صاحب الأمر فيهم — كيفما كان لقبه — يجب طاعته والالتفاف حوله؛ للذود عنه وعن سلطته التي هي سلطتهم وقوتهم. وكانوا يعتقدون كثيرًا من الخرافات والأوهام، وأنَّ هناك أرواحًا خيريةً وشريةً تنفع وتضر. وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد، ويذعنون لرؤساء الأديان تحنثًا وتعبدًا، ورأيي أنَّ دينًا خرافيًّا وهميًّا خيرٌ من لا دين؛ لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس المتعبدين سلطانًا قاهرًا على نفوسهم يقاوم أهواء الشر فيها، ويطهرها من كثيرٍ من الرذائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية؛ كالخيانة والكذب، والحقد والحسد، وسفك الدماء، واغتيال الأموال، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التي لا تنزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجرٌ، والتي فشت اليوم بين أكثر المتعلمين الذين أخذوا العلم مجردًا عن التربية الصحيحة، كأكثر المتعلمين في مصر.

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم — من بيع وشراءٍ، وهبةٍ وقرض ورهنٍ — على صدق ألسنتهم ووفاء قلوبهم، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ولا شهادة شاهد، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت، والويل ثم الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه، أو أنكر شهوده، وكثيرًا ما يفعلون!

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم، ولكن لم يجنِ عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا! وكانوا محرومين أكثر ما ننعم به اليوم من مساكن زاخرةٍ، ومراكب فاخرةٍ، وملابس زاهية، ومناظر زاهرة، وفرشٍ وثيرةٍ، وآنية صقيلة، وأدواتٍ للمأكل والمشرب ثمينة، ولكنهم لم يكونوا محرومين في أنفسهم وفي خطرات عقولهم شيئًا من هذا كله؛ لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة، فنحن وهم سواءٌ في الرضا بحالتينا، إلا أن معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء.

وها هي ذي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنًى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم إلى حاجاتٍ، فبنوا القصور، وشادوا الدور، وما شادوا — لو يعلمون — إلا قبورًا دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبلهم، ومستقبل ذريتهم من بعده؛ فإن هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أرادوا ألا يُبقوا في قوس الحرية منزعًا، فأطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكاسات، وغزل الغانيات، ثم ينامون النهار بين التمطي والثؤباء حتى نَبَتْ بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم فأبعدتهم عنها، فأصبحوا كلًّا على أبيهم وعلى الناس، لم ينفعهم عملهم، ولم تغنِ عنهم شهاداتهم بعد أن نفخت الكبرياء في صدورهم فأبوا أن يتنزلوا للاحتراف بما يقوم معاشهم، كما يفعل أولئك القوم الذين أنضوا ركائب حياتهم في طريق تقليدهم، وباعوا في سوق التشبه بهم كل ما تملك أيمانهم وقلوبهم، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم، فما وجدوا في أنفسهم متسعًا لسواها، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تاراتٍ، وقد كانوا قلصوا ظلالها أولًا بنفقات دراستهم، وثانيًا بابتياع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الإفرنجية التي تفني خزائن روكفلر وروتشيلد قبل الوصول إلى إشباع بطون تجارها، فنضب معينها، ولم يبقَ منها حتى الذماء، فتبدل ذلك النعيم شقاءً، وتلك السعادة والرفاهية فقرًا وعدمًا.

أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف، والمخترعات والمستحدثات، وأما الأولاد فاغتالت أحدهم يد الزهري، وكانت لأمثاله من المغتالين، واحتوى الآخر فراش السلُّ حيث لا زائر ولا طبيب، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جنايةٍ دفعه إليها العوز والحاجة، وفرَّت المرأة الجديدة إلى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمنٍ بخسٍ، وهو فيها من الزاهدين.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزلٍ من منازلنا، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله، فلو أن باكيًا بكى على ما آلت إليه حالة هذه الأسرة الشقية، فهو إنما يبكي أسرًا متعددة، وأمة كاملة.

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقلت له: إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك

وجملة القول: إنَّ للحاضر سيئاتٍ فوق الماضي، فلا خير في العصرين، ولكن ويلًا أخف من ويلين، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر، فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرين، ولئن دام هذا الحال واطرد المقياس، فالغد شرٌّ من اليوم، كما كان اليوم شرًّا من الأمس.

المرقص

إن كان حقًّا ما يقولون من أن الكاتب لا يجمل به أن يصف مشهدًا من المشاهد، أو يحدث عن موقف من المواقف إلا إذا رآه بنفسه واضطلع به وأحاط علمًا بحقيقته، فقد أُسقط في يدي، وارتقيت في هذه النظرة مرتقًى صعبًا، واستحال عليَّ أن أكتب في هذا الموقف الذي أحاول الكتابة فيه سطرًا واحدًا؛ لأني لا أعرف من تقويم «الأزبكية» أكثر من أنها بقعةٌ واقعةٌ بين بساط الغبراء وقبة السماء.

ولولا أنَّ الله أعانني بصديقٍ من أصدقائي زار المرقص مرة واحدة في حياته ووصف لي المشهد الآتي من مشاهده لنفضت يدي منه نفض المودع يده من تراب الميت، فرارًا من تهكم المتهكمين، وسخرية الساخرين!

حدث ذلك الصديق قال: «ذهبت ذات ليلةٍ إلى مرقص من مراقص الأزبكية، فرأيت على بابه جنديًّا يتمشى في عرصته مشيةً هادئةً مطمئنة، فذعرت لمرآه، وتراجعت قليلًا قليلًا، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق إلى المرقص، وأنني بين يدي دارٍ من دور الحكومة يحرسها حاجبها، لولا أنني لم أرَ في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب، والذل والانكسار الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين.

وقفت ساعةً أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامسٌ، فالتفتُّ ورائي، فإذا صديقٌ من أصدقائي يسألني: «ما وقوفك هاهنا؟» فقلت له ما قاله أبو العيناء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره: «أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب!» قال: «أنا أفتش عن ابن عمي.» قلت: «وأنا أفتش عنك.» فابتسم ابتسامة المتهكم، وقال: «هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث لا تنتهي حلقاتها!» وأمسك بيدي حتى جاز بي باب المرقص، فسألته: «ما هذا الجندي الواقف أمام الباب؟» قال: «كيف ذهب

عليك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومةً مدنية مادية، لا أدبيةً ولا دينية، فتساوت في نظرها «المصالح» والمراقص، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء، ومعاهد البغاء، فأصبح الجندي يحمي أبواب العاهرات، كما يحمي أبواب النظارات، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات.

وإنَّ العين لا تكاد تملك مدامعها سحًّا وتذرافًا كلما أبصرت هذا الجندي الشريف واقفًا هذا الموقف الذليل يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء، ويحمي الفسق والفجور لا القلاع والثغور، وما أعجب لشيءٍ عجبي لهذه الحكومة التي تضن بجنديها أن يشتمه شاتمٌ أو يلمسه لامسٌ، فتغضب له غضبةً مضريةً تتراءى فيها الشهامة والحمية، والعزة والنخوة، ثم لا تضن به أن تؤجره نائحةً في الجنائز، أو قوادًا في المراقص، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفاته، وينوب عنها في غدواته وروحاته!» وهذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق، وهو سائر بي إلي قاعة المرقص حتى وصلت إليها فماذا رأيت؟

إن كنت لم تسمع في حياتك أنَّ فدانًا واحدًا من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه، أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان وما يكون.

رأيت الدنانير ذائبة في الكئوس، والعقول جامدةً في الرءوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددةً لاصطياد القلوب، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلًا وأذكاهم قلبًا ومن كنت أراه فأغضي بين يديه إجلالًا وإكبارًا واقعًا في حبالة بغيٍّ تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها، وهو في غير هذا المكان قيصر الروم عزةً وفخارًا، وكسرى فارس أنفةً واستكبارًا!

رأيت من يزعم أنَّ الله قد وهبه عقلًا تخترق أشعته حجب الغيب، وعلمًا تتساوى أمامه المادة وما وراءها، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر:

وعلمت حتى ما أسائل واحدًا عن حرف واحدةٍ لكي أزدادها

يجهل بديهيةً من البديهيات التي يشترك في فهمها الأذكياء والأغبياء، والعلماء والجهلاء.

رأيته يجلس في المرقص، فتمر به البغي، فما هي إلا لمحة طرف، أو غمزة كف، حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها، وملأ فراغ قلبها، فيدعوها إليه فتجلس بجانبه، فما هي إلا ابتسامةٌ خالبة، وكلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الأيمان، أن نفسه صادقة فيما حدثته، وأنَّ الفتاة علقت بحبه علوقًا لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

هنالك يبذل لها ما تشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى أنَّ ذلك قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه، وابتساماتٍ تجود بها عليه.

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل، فها هي ذي المرآة بجانبك، فهل ترى فيها منظرًا رائعًا أو جمالًا ساطعًا يأسر أقسى النساء قلبًا وأعصاهن عنانًا؟

إنَّ الفتاة التي أسمعتك كلمة الحب قد أسمعتها قبلك — وستسمعها بعدك — كل صاحب جيبٍ مثل جيبك، وعقلٍ مثل عقلك.

إن كنت في شك مما أقول، فأمسك عن فتح الزجاجات لحظةً قصيرة، ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها، وموقعك من قلبها؟ فإن لم تمطر عليك سحائب اللعنات، وتجعلك غرضًا لسهام التهكمات، فأنت أصدق الصادقين، وأنا أكذب الكاذبين!

رأيت هنالك كل حاسةٍ من الحواس قد لبست منظارًا يكبر المنظورات، ويضاعف المسموعات، تغني المغنية بصوت مضطرب النغمات، بارد الترجيعات، ثقيل الحركات والسكنات، فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات، وتدوي فيها الصيحات المزعجات، وتطل العجوز الدردبيس على الناس بوجهٍ مغضن، وجفنٍ مقرح، وسن بارز، وخد غائر، فتطير حولها القلوب، وتتحلب لها الأفواه، وتترامى تحت أقدامها الوجوه! فقلت في نفسي: «أهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة، وتذبل فيه الرياض الزاهرة؟! أهذا هو الذي تتدفق فيه الأموال الغزار تدفق الأنهار في البحار، وتقبر فيه نفوس الكرام، قبل أن تقبر تحت الرغام؟! والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورَجْلِه، وأساطيله وقنابله، ولا تبلغ السماء منا بصواعقها ورجومها، ولا الأرض بزلازلها وبراكينها، ما يبلغ منا المرقص ببغاياه!»

قال المحدث: «والحق أقول إني دخلت المرقص وأنا أحسب أني أنفس عن نفسي كربةً، فرأيت ما زاد نفسي همًّا، وملأ قلبي غيظًا، فقلت لصاحبي: «هل لك في القيام؟» فقام وقمت، وأنا أقول: والله ما أدري ما ترك هذا المكان للبيمارستان!»

البعث

هي قصةٌ خياليةٌ الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه، لم يُكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية.

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلةً لهمٍّ نزل بي، والهم رسولٌ من رسل الشر ينزل بأهداب العيون، فلا يزال يسعى حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها، فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته، وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا، فلما تقضَّى الليل إلا أقله، ولم يبقَ إلا أن تنفرج لمة الظلام عن جبين الصباح، سمعت طارقًا يدق الباب دقًا ضعيفًا ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه، فقلت: «من الطارق؟» قال: «غريبٌ حائرٌ ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء، وأعوزه المأوى يطلب كريمًا يعتمد عليه، ومضجعًا يأوي إليه، وقد أعد لمن يسدي إليه تلك النعمة ذخيرةً صالحةً من شكرٍ لا يبلى ودعاء لا يخيب.» فأعجبت بعابر سبيلٍ يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيا على جهد المتكلفين، وتزويق المزورين، وقلت في نفسي: «ما لهذا الرجل بدٌّ من شأن!» وفتحت الباب، فإذا شيخٌ كُنْتيٌّ من حملة أعباء الدهر، قصير القامة، ناحل الجسم، زري الهيئة، قد نيَّف على الثمانين من عمره، فخيل إليَّ أن ظهره المحدودب قوسٌ، وأنَّ عصاه التي يعتمد عليها وترٌ قد شد إلى تلك القوس، وأنه قد أعد من هذه وتلك سلاحًا يذود به عن نفسه عادية المنون، فلما شعر بمكاني رفع رأسه إلى ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي، وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمي. فرأيت وجها أسمر اللون

قد انتثرت في أكنافه حفائر الجدري، وأسارير تنطوي تارةً على عِبر القرون وحوادث الدهور، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى، ولحيةً بيضاء إلا أنها شعثاء، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نورٌ ساطعٍ خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالًا وإعظامًا، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها. وأحسب أن لو كان بين يدي مثالٌ من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها فمشيت إليه مشية الهائب الوجل، وقلت: «على الرحب والسعة يا سيدي، لقد حللت بمنزلٍ أنت صاحبه، وولي الأمر فيه.» ثم قدمت إليه يدي، فمشى معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة:

ما أوسع الموت يستريح به الجســـم المعنَّى ويخفت اللجب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف، فأعاد النظر إليَّ، وقال: «اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسي.» فتركته وذهبت إلى غرفة منامي، وقد أخذ منظر الرجل مكانًا من قلبي، وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي، فلم أزل أقلب النظر في حاله وأذهب المذاهب في استبطان سره حتى أخذ عينيَّ نومٌ ثقيلٌ لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل.

سألت الخادم عن الضيف، فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب، والمضجع والمستحم، وأنه لا يزال في مصلاه، فهبطت إليه في خلوته أَهْيبَ ما أكون له. فرأيته جالسًا إلى قبلته يقلب وجهه في السماء، ويكرر هذا الدعاء: «اللهم لا رادَّ لقضائك، ولا سخط على بلائك، أمرت فأطعنا، وابتليت فرضينا، فأمطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك، فلا عون إلا بك، ولا ملجأ إلا إليك، إنك أرحم الراحمين، وأعدل الحاكمين.»

ثم أطرق بعد ذلك إطراقًا طويلًا خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد، وأنَّ الذي أراه بين يدي جسدٌ هامدٌ قد أُسري بروحه إلى الملأِ الأعلى، فجعلت أختلس الخطى إليه حتى صاقبته، فرفع رأسه إليَّ ذاهلًا، وقال: «أنت هنا؟» قلت: «نعم.» قال: «في أي سنة نحن من تاريخ الهجرة؟» فعجبت لسؤاله، وقلت: «في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة والألف.» قال: «ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه؟» قلت: «القاهرة المعزية» قال: أفي هذه الأمة كثير مثلك؟» قلت: «لم أفهم ما تريد يا سيدي!» قال: «لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفًا لا يلبث أن يراني حتى يرعد مني فرَقًا، فيوصد بابه في وجهي، أو ضنينًا يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم

ينصرف عني، أو أعجميًّا لا يفهم ما أقول، ولا أفهم ما يقول.» قلت: «ما في هذه الحلة التي تراها أعجمي.» قال: «إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه، وإن شئت أعدته عليك كما سمعته.» ثم أخذ يسرد عليَّ الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه إليَّ سردًا متواصلًا كما تسرد الببغاء كلماتها، فقلت: «إنك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري، فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميًّا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه.» فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه، ورأرأ بمقلتيه، وزحف إليَّ حتى اصطكت ركبتانا، فعجبت لأمره، وما رأيت من استحالة حاله. ثم قال لي: «من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه؟» قلت: «رجلٌ من علماء الأمة العربية وشعرائها، عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة، نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب، ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب.» قال: «وما ظنكم به؟» قلت: «إنَّ الناس في أمره مختلفون، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له.» قال: «ومن أيهم أنت؟» قلت: «ممن يتشيع له، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبتٍ مستبصرٍ، فما شككت في مذهبه ودينه.» قال: «أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه؟» قلت: «ما أعدل بهذه الأمنية غيرها.» قال: «قد بلَّغك الله طلبتك.» قلت: «لم أفهم يا سيدي شيئًا مما تقول!» قال: «أكاتمٌ أنت عليَّ سري؟» قلت: «نعم.» قال: «أتقسم؟» قلت: «إنَّ للوفاء عندي حرمةً مثل حرمة القسم، ولو كنت متهمًا نفسي لأقسمت.»

قال: «الآن عرفتك، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري» فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أُسقط في يدي، وعلمت أني قد هلكت، وكان أول ما كان مني أن التفتُّ ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لي من هذا المجنون عارض سوء. وكأنه ألم بما في نفسي فقال: «لا ألومك على ما ظننت، فقد قدرت قبل أن ألقي إليك كلمتي هذه أنها بالغةٌ منك ما بلغت، فهل تؤمن بالله؟» قلت: «نعم.» قال: «وتؤمن بالبعث؟» قلت: «نعم.» قال: «وما يريبك من رجلٍ أماته الله ثم بعثه بعد موته؟» قلت: «ذلك يوم يبعثون.» قال: «هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وبعد فوالله يا بني ما كفرت مذ آمنت، ولا كذبت مذ عرفت أنَّ الصدق منجاةٌ من النار، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعدما منحني إياها، ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتك؛ فقد أسلفتَ إليَّ من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبةٍ أتنفَّق بها عليك، أو أزدلف بها إليك،

وإني قاصٌّ عليك قصتي، فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك.» فسري عني قليلًا ما كان ألمَّ بنفسي من القلق، فأقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول:

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي، فقد حوسبت حسابًا غير يسير على الكبير والصغير، والدقيق والجليل، والقومة والقعدة، والخطرة واللمحة، وكل ما وجدته حاضرًا بين يدي في صحائفي، فكادت حسناتي تكافئ في الميزان سيئاتي، لولا تلك الكلمات التي كنت أرددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج، فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري، وطال حسابي عليها وحجاجي فيها، وكان لا بدَّ من العقاب، ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعًا بها لا أريد رد القضاء ولكن أريد اللطف فيه، فتعلق محمد ﷺ بقوائم العرش الإلهي وقال:

اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهًا لها، متبرمًا بها، متسخطًا عليها، حابسًا نفسه في كِسر بيته فرارًا من أهلها، يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته، حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها، ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها، وقضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل، فأسألك بقلمك النوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت، أن تقي جسمه — الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها، والصبر على آلامها وأهوالها — من عذاب النار، وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه، فعاقبه بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه ومستقر عذابه، وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخرًا ما لقي فيها أولًا، إنك بعبادك لطيف خبير.

فقبل الله شفاعة نبيه، وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضي فيها الأيام بعدد ما قضيت فيها من السنين، وقد علم سبحانه وتعالى أني كنت العهد الأول أحمده على العمى كما يحمده غيري على البصر، فرد إليَّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي، فله الحمد على سرائه وضرائه.

هذه قصتي قصصتها عليك، وهذا أول يوم من الأيام التي سأقضيها في داركم هذه، فاكتم عليَّ أمري حتى ينقضي أجلي، وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك، وعلمت أنَّ الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى.

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثمًا وتقبيلًا، وعلمت أني قد أحرزت في بيتي كنزًا لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرورٍ ما كان يكدره عليَّ إلا خوف انقضائه.

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل، فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره، ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غدًا.

اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره، ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعةٍ غير طبيعته، ورأيٍ غير رأيه، فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجاتٍ ربلاتٍ كنت أعددتهن للضيفان من قبل، فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرةً وإليَّ أخرى، ثم قال: «ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إليَّ؟» قلت: «إنهن دجاجاتٌ لم يكن للخادم الصغرى عندي شأنٌ غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به طعام وشرابٍ، وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن واستدرن للذبح، وكنت أبقي عليهن كلما طرقني طارقٌ إبقاءً على الفتاة أن ينفجر صدرها حزنًا على أترابها الصغيرات، أما اليوم فلم أرَ من ذلك بدًّا فذبحتهن إكرامًا لك، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائهن!»

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقًا طويلًا سمعته يهينم فيه بهذه الكلمات: «وا رحمتاه! ألا تزال هذه المدى موكلةً بهذه الأعناق؟ ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى حسه ووجدانه، ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم؛ لأنه صامتٌ لا ينطق، وأخرس لا يبين؟! وربما كان زقاء الديك، وقوقأة الدجاجة، وصرصرة البازي، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور، وثغاء الشاة، ومواء الهرة، وخوار الثور، وحنين النيب، بكاءً بغير دموعٍ، وشكوى بغير لسانٍ، وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماءً، وفجر الصخر عيونًا!»

ثم رفع رأسه إليَّ وقال: «أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئًا عندما أردت ذبحهن؟» قلت: «لا يا مولاي، ومتى قلن للناس شيئًا فيقلن لي؟!» فنظر إليَّ نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت، ثم قال: «أما لو أنَّ الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له: مهلًا! رويدًا أيها القاتل السفاك! لا تدن مني، ولا تمدد يدك إليَّ، فلا شأن لك معي، ولا ترة لك عندي!

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي، وأنا لا أريد أن أموت، ولا رغبة لي في فراق الحياة؛ لأن ورائي أفراخًا صغارًا هن إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي، وليس من الرأي أن أَكِل أمرهن إليك من بعدي؛ لأنك شرهٌ طماعٌ، لا يشبع بطنك، ولا تهدأ مديتك.

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة، فلا تملك أن تسلبني إياها.

كل ما تستطيع أن تمن به عليَّ أنك كنت تطعمني وتسقيني، فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلا فتات مائدتك، ولا تسقيني إلا غسالة يديك، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحسانًا إليَّ، بل لتهيئ لنفسك ما يسد شهوتها ويطفئ لوعتها، وهل تعلم أنك أنت الذي سجنتني في أقفاصك، وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أنى ذهبت، وأين حللت من حيث لا يساومني فيه مساومٌ، ولا يحاسبني عليه محاسب؟

أمن أجل تلك الخشارة القذرة والجرعة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي أفراخي، ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك، وحماة آلك من بنات الأرض وهوامها ورسل الفجر المنير إليك؟

لا تظلم السبع بعد اليوم، ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه، فكلاكما وحش، وكلاكما مفترس، لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن، فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفري الأوداج بمداك، لا بل إنَّ جريمتك أكبر من جريمته، وعذرك أضعف من عذره؛ لأنه يفترس ليشبع بطنه، وأنت تفترس لترفه نفسك، ولأنه يعجز عن الاحتيال لقوته، وأنت على ذلك من القادرين.

استضعفتني فبرزت إليَّ، فهل برزت لشبل الأسد أو ديسم الدب، أو فرعل الضبع، أو حرش الحية، أو هيثم النسر، أو ناهض العقاب؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزًا! وما أظلمك قادرًا! وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك!

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرةً كالبصائر، ولكن الناس لا يعلمون.

هيه يا صاحب الدجاجات! حدثني عنك، ألم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي، وأنت تعلم أنني رجلٌ سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى أربعين سنةً ونيفًا لم أذق فيها لحم الحيوان، ولا ثماره، ولا نتاجه، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء، وأقنعتها بالبلسن طعامًا، والبلس حلوى لأني كنت أعلم أنَّ النبات طعامي الذي لا يلائمني غيره ولا يشبهني سواه، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة والأنياب العريضة، والأظفار الحادة، والجلود المزأبرة، والأعضاء المتوثبة والهامات الضخمة. وكنت أرى أنَّ أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها، ويجترونها إلى طبائعهم اجترارًا؛ لأنهم لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف والتقديد، والشي والقلي، ومزجوها بالخضر والتوابل والأباريز والأقزاح مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات. حتى إذا نزل بهم عارض مرضٍ نزعوا عنها، وبرئوا إلى الله منها، وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم، كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له.

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون عليَّ رأيي في ترك ذلك الطعام، ويمعنون في مساءلتي عنه، وحجاجي فيه، وحملي عليه، ويلحون في ذلك إلحاحًا شديدًا حتى ظننت أنهم قاتليَّ من دونه، كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم، أو أنَّ الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا ألا يقيم لهم يوم القيامة وزنًا، ولا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا إلا إذا قدموا عليه ببطونٍ بجرٍ مكتظةٍ بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب، لتفتح لهم أبواب الجنان! وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه، وترك ما أمرهم أن يتركوه، فلم يبقَ بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم؛ مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حرامًا، كما ترك النبي ﷺ صلاة التراويح بعد أدائها؛ مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضةً.

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير، أو أموال الناس بالباطل، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح، ما تركته نقمةً على الشريعة، أو تبرمًا بها، أو تمردًا عليها. ولكنني كنت امرءًا جزوعًا، يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي؛ لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه. وكنت فقيرًا بائسًا لا أملك في كل عام من الرزق إلا عشرين دينارًا

ونيفًا لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين، وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف؛ أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين، وقد علم الله من شأني أنني رجلٌ لو علمت أني إن أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزيرٍ أمطرت السماء عليَّ ذهبًا واستحالت الحصباء تحت قدمي درًّا ما فعلت؛ ضنًّا بنفسي على هذا الموقف المستوبل، وإيثارًا للرضاء بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده.

فلم أرَ خيرًا من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه، ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل.

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلالٌ مطلقٌ من لذائذ هذه الحياة وشهواتها، ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات وانتهاك الحرمات، فقد كان النبي ﷺ يجيع نفسه من غير عوزٍ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «إنَّ رسول الله لم يمتلئ قط شبعًا، وربما بكيت رحمةً له مما أرى به من الجوع، فأمسح بطنه بيدي، وأقول: «نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك!» فيقول: «يا عائشة، إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم».» وكان يقول: «شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة.» وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة، إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم يأكله قائلا: «كسرةٌ وملحٌ حتى يتهيأ في الآخرة الشواء.» ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوذاب والكباب، ولا بالخل والزيت.

فهل كان واحدٌ من هؤلاء بَطِرًا بنعمة الله أو مُحرمًا ما حلل الله؟ لا، فما كل من أبغض حلالًا حرمه، ولا كل من أحب حرامًا حلله، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحلِّ النبيذ، فلما أريد عليه قال: «لو قُطعت إربًا إربًا ما حرمته، ولو قُطعت إربًا إربًا ما شربته.» وعلم النبي ﷺ بحل الطلاق، ثم قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق.» بل لو تبينت لعلمت أنَّ قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها، والنفوس لا تنفر إلا مما حل لها، ولا تشتهي إلا ما حرم عليها.

فويلٌ لي من هؤلاء الناس! شركتهم في دنياهم فقالوا: شره طماعٌ، وصدفت لهم عنها فقالوا: زنديقٌ ملحدٌ فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون.»

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد فتفصَّد جبينه عرقًا، واستسر حديثه حتى ما يكاد يبين، فرثيت له مما به، وأمرت برفع المائدة من بين يديه، وقدمت له مقترحه من الطعام. فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا، فأردت أن أرفه عليه ما ألمَّ به من الهم، فقلت له: «يا مولاي إنَّ للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه من قبل، فقد ذهب كثيرٌ من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قومٌ من الراحمين المحسنين، يأخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة، فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل، أو يسوطها سوطًا عنيفًا، رفعوا إلى الحاكم أمره. أو رأوا حيوانًا هزيلًا أو مهيضًا حملوه إلى مكانٍ خاصٍ بمعالجة أمراض الحيوان، فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلًا، وإلا قتلوه رحمةً به وإشفاقًا عليه.»

قال: «لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى، ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال، وها نحن أولاء نرى كل يوم مريضًا يبلُّ بعد إشرافه، وبكاء الباكيات حوله، وصحيحًا يُخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر، فهلَّا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئةً مطمئنةً حيث يسوقها القدر إليه؟!

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا مرائين مصانعين، وما هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم: إنهم رحموا الحيوان فأَحْرَى أن يرحموا الإنسان، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالًا تذرعًا إلى البدرة حرامًا.

يا بَني آدم دعوا النوق في مراحها، والشاء في زروبها، والوحش في كناسه، والضب في جحره، والذئب في وجاره، والقطا في أفاحيصه، ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها، ولا الحمام عن محاضنها، ولا اليعاسيب عن خلاياها، ولا الأسماك عن مسارحها، وجنبوها فخاخكم وشباككم وقتركم وزباكم ومداكم وشفاركم؛ فإن لها نفوسًا كنفوسكم، ووجدانًا كوجدانكم، ورجاء في الحياة كرجائكم، واعلموا أنَّ الله تعالى ما أغرى بعضكم ببعضٍ، ولا سلط قويكم على ضعيفكم، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضريتم بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها، وقطعتم إلى المتعة ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر، فارحموها ترحموا أنفسكم، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم، إنكم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون.»

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه، فشعرت أن سِنةً من النوم قد رنقت في عينيه، فانسللت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن ألقاه غدًا.

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث، فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها، وتوسد أعشابها، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها، ويبسم للعصافير تنتقل بين أنجمها وأشجارها، ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها، فعرفت المدخل إلى قلبه، والوسيلة إلى سروره وغبطته، فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد، ليرفه عن نفسه ما ألمَّ بها من الحزن والألم، فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى، حتى وصلنا إلى وادٍ أفيح يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، ويتراءى في ألوانٍ من النبات مشتبهاتٍ وغير مشتبهات، من هائجٍ وعميم، وبارضٍ وجميم وكروم وأعناب، وسنابل وأعشاب. وتفيض أرجاؤه بالجداول والغدران، والقنا والخلجان، مطرداتٍ ومنعطفات، ومجتمعات ومفترقات. يفضي أولاها إلى أخراها، ويتصل أقصاها بأدناها، ويعطف كبيرها على صغيرها، وقويها على ضعيفها، فكأنها صلالٌ رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته، ومصاعده ومنحدراته. فهي تنقبض وتنبسط، وتنساب وتتمعج، وتقبل وتدبر، وتقوم وتقعد، وتتواثب وتتراجع، وتتواصل ثم تتقاطع. وكأن حفيف أوراقه، وخرير مائه، وغريد أطياره، وضجيج نواعيره، وعجيج سائمته، أنغامٌ مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع، فيخيل إليه أنه هابطٌ من أبواب السماء. أو أن سكان الألب فوق عروشهم يغنون، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون.

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه، وقد ملكت عليه مشاعره، وحيل بينه وبين نفسه، فجمد في مكانه كأنه نصبٌ من الأنصاب، ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه، فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول:

لـلـمـلـيـك الـمـذكـرات عـبـيـدٌ وكـذاك الـمـؤنـثـات إمـاء

فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثـ ـرة والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إليَّ وقال: «كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها؛ لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ، والمؤرخون يصانعون ويدهنون، أو من أفواه الفقهاء، والفقهاء تجارٌ يرتزقون لا هداةٌ يرشدون، أو من خطرات عقولهم، وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون، والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها؛ لأنهم لا يعرفون الطريق إليها.» قلت: «وأين تجدها؟»

قال: «في هذه الأودية الفيحاء، تحت تلك القبة الزرقاء، بين ذلك الظل والماء.

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة، فإذا هي نبتةٌ زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع. ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة، التي لا تلبث أن تأخذ مكانها من مغرسها، حتى تصير نخلةً سحوقًا تملأ الأرض خيرًا بجذوعها وسعفها، وجريدها وقنواتها، وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها. ويراه في الكواكب الماثلة في السماء، والأسماك السابحة في الماء، والأجواء المملوءة بالهواء، والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، فيمتلئ قلبه يقينًا صافيًا رائقًا لا تعبث به المناظرات، ولا تشوه جماله المجادلات، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر، ولا فقيه يلقنه الجدل، فلا دليل على الله غيره، ولا هادي إليه سواه.

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب، والعشب يأكل التراب، والتراب يأكل السائمة، فيستحيل الجماد نباتًا، والنبات حيوانًا، والحيوان جمادًا، فيعلم أنَّ المواليد الثلاثة مادةٌ واحدة تتلون ذراتها، وتتشكل جواهرها. ويعلم أنَّ هذا الإنسان الفاخر بنفسه، والمدل بعظمته واقتداره ربما كان بالأمس صفيحةً ملقاةً على جانب قبرٍ، وربما يكون في الغداة جلدةً بالية في ذؤابة نعلٍ.

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها، فيعلم أنَّ الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها، وأنَّ الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون.

هنا يرى الإنسان الشمس طالعةً من مشرقها مصفرة اللون، متقاربة الخطوات؛ مخافة أن تطير إليها رشاشةٌ سوداء من مآثم هذا العلم ومخازيه، ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة، فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألمَّ به من تلك الأدران والأوحال. ويرى الليل مقبلًا يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويربد شيئًا فشيئًا حتى يسود غضبًا على هذا المجتمع البشري، فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور، ولا يزال مادًّا يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين النهار. ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمةً، لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد، فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقًا وانفتاحًا؛ مخافة أن يصيبها سهمٌ نافذٌ من سهام الأشرار التي تتطاير يمنةً ويسرة، وصعودًا وهبوطًا، فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه.

هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم، ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين، ولا خداع الخادعين، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين.»

فقلت: «حسبك يا مولاي، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء، وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلًا أحسبه فلاح هذه الأرض، فامضِ بنا إليه علَّه ييسر لنا ظلةً نفيء إليها، وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارَّة.» فمشينا إليه حتى بلغناه، فرأيناه مكبًّا على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهام، فتصبب عرقًا حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم. فحييناه بتحية حيا بأحسن منها، وأفضينا إليه بطلبتنا، فأشار بيده إلى كوخه، وكان منه على كثب. فإذا عريشٌ من عيدان القصب مسجج قد ارتفع فوقه سقفٌ من جذوع الأشجار، واعتمد على أُسَيْطِينة من اللبِن الأسود، وامتدت أمامه صفةٌ مستطيلة، واستدار به نؤيٌ يمنع عنه مسيل الماء، فدخلناه فلم نرَ فيه إلا رثة من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق للخبز اليبيس، وخلقانٍ من القمص والأبراد، وقدرٍ وأثفيةٍ، وجرةٍ مملوءة ماء، وحشية باليةٍ مفككة، تضطرب في جوفها حشوةٌ من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل، فشربنا حتى ارتوينا، وأخذنا من تلك الحشية مضجعنا. وما زلنا على حالنا تلك سكوتًا لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل في مشيته، ويحمل فأسه على عاتقه، ويجر وراءه

ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة. فجلس وجلس ولداه بين يديه، وأنشأ يلقي إلينا معاذيره، ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب، فعذرناه، ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي، وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان:

الشيخ: «من يملك هذه الأرض؟»

الفلاح: «هي لسيدي ومولاي — أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته — صاحب هذا القصر الذي تراه.» وأشار إلى قصرٍ فخيم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء، رفرفة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء.

الشيخ: «أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة، فلعلك سعيد بجواره مغتبط بمكانك منه، ولعله يمدك ببره وإحسانه ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه!»

الفلاح: «حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يومٍ أو يومين ممتطيًا فرسه الدهماء في ركبٍ من أصحابه وحاشيته مارًّا بهذه الأجمات الملتفة يتنزه ويتروَّح، ويطارد الثعالب والذئاب مطاردة الشجاع المستقتل، ثم يعود إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصبحه وممساه.»

الشيخ: «إنما أسألك عن أياديه عندك، وصنائعه لديك، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته.»

الفلاح: «وهل يوجد في باب النعم، جليلها ودقيقها، نعمة أجل قدرًا وأسنى قيمة من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد رفيع الجاه جليل القدر واسع النعمة، تطأطئ بين يديه رءوس العظماء ويختلف إلى حضرته كبار الأمراء؟»

الشيخ: «أيها الرجل ما عن هذا أسألك، أسألك: هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر ببابك، أو يخلو بك أحيانًا ليتعرَّف همَّك، وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك؟»

الفلاح: «الحق أقول يا سيدي إني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي، أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر، أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتهذيب؟ ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا، فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمري ونهيي وزجري وتأديبي. وقد أعد لي — حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته — عصيًّا غلاظًا يتعهدني بها من حينٍ إلى حينٍ كلما نسيت أمرًا من أوامره، أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه،

فأغتبط بذلك الاغتباط كله؛ لأني أعلم أني منه على ذكرٍ، وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه.»

الشيخ: «وأين أم هذين الولدين؟»

الفلاح: «ماتت — رحمها الله — في سبيل خدمة سيدها، فقد كنا يومًا نمتح على حافة بئر، فزلقت أقدامنا وانبتَّ بنا الحبل فسقطنا، أما هي فاستأثر الله بها، وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة، فما أسفت على شيءٍ أسفي على أن لم أكن قد لحقت بها، فأكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليترحم عليَّ كما ترحَّم عليها، ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها.»

الشيخ: «ربما كنت قانعًا من إحسان سيدك إليك وعطفه عليك، بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها!»

الفلاح: «لا والله يا مولاي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيز بُرٍّ، أو حفنة تمر، إلا أن تسقط بين يدي تمرةٌ أعلم أنه لا يأبه لها، فتكون قسمة بيني وبين ولدي، أو أحتطب من أطراف هذا الوادي بضعة أعوادٍ من الحطب أشعلها تحت قدري، وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه.»

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمعةً تترجح في مقلتيه، فأشرت إليه بالقيام فقمنا، ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل، وقد نزل ستر الظلام فقلت: «أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة!» قال: «ما نغص عليَّ يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر نفسه، وسقوط همته، وذلة جانبه، وما أحسب إلا أن الظلم قد ألحَّ على نفسه حتى قتلها، وسلبها حسها ووجدانها، فأصبح لا يعرف لنفسه حياةً ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده، فهو لا يفرح إلا لفرحه، ولا يغتبط إلا باغتباطه، ويرضيه منه كل شيءٍ حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه، وتعبُّده له بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين.»

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات:

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

الرسائل

كتاب في التقاضي

أنا إن سألتك حاجتي — أعزك الله — وبسطت إليك يد رجائي فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همةً وحزمًا، ونادرة الوجود كرمًا وفضلًا، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت إليَّ منك أيادٍ تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد الحصر.

ولقد مثلت — أيدك الله — بين أن أستشفع إليك بذوي الجاه عندك، والزلفى لديك، وبين أن أَكِلَ ذاك إلى كرمك وفضلك، وما طُبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير، وسجايا البر، فرأيت أنَّ الثانية بك أَحْرَى، وبفضلك أجدر، والسلام.

كتابة مقاطعة

أتاني كتابك وقد أبللتُ من مرض حبك، وصحوتُ من رقدةٍ طال عليَّ الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت، فلم ترعني روائعك، ولا أجدى عندي اعتذارك، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل. ولم أرَ بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعةً، وقلبي هيبة، فالحمد لله الذي أدالني منك، وأعتقني من رقِّك، وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري، فجفت الدموع التي طالما أذلتها بين يديك، وقرت العين التي كنت أساهر بها الكوكب شوقًا إليك، ولم يبقَ في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء. والحب شجرةٌ يغرسها الأمل في القلب، ثم يغذوها بمائه وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها، وترف ظلالها، وترن أطيارها، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت. ولقد عالجت هذا القلب الشموس في الرجوع إلى سالف

عهدك، وسابق ودك، فجمح جموح المهر الأرِن، وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في أوبته. وله العتبى فيما فعل؛ فقد ملكني قياده برهةً من الزمان فأسأت عشرته، وخفرت ذمته، وأرغمت معطسه، وركبت به في سبيلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شر منهلٍ، فما هو إلا أن أمكنته الغرة فانطلق انطلاق السجين من سجنه، والطائر من قفصه، فلا أوبة حتى يئوب القارظان، ويبلى الجديدان:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجهٍ آخِرَ الدهر تُقبِلُ

كتاب تهكم

علمت أنَّ ساسانيًّا طرق بابك بالأمس، وما زال يكيد لك ويماحلك، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك، حتى خدعك عن نفسك، واقتطف زهرةً من روضة مالك، وراح يفتر عن ثغرٍ باسمٍ، ورحت تقرع سن نادمٍ. فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقته؟ وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته؟ ومتى أقامك آدم وصيًّا على أولاده من بعده، تكسو عاريهم، وتشبع جائعهم؟ على أنَّ الفقراء في الدنيا قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء، فكيف تسعهم خزائنك؟ وهل بين الدرهم الذي أعطيت، والدراهم التي أبقيت إلا حرفٌ واحد؟ فليت شعري من أين دهيت؟ ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك؟! وإنَّ أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب تلك الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة، فإن كانت هي فالخطب عظيم، والبلاء جسيم؛ فإنك حيثما ذهبت وأني حللت لا تقع عينك إلا على يدٍ شلاء، ورجلٍ بتراء، وعينٍ عمياء، وصورةٍ شوهاء، وثوبٍ مخرق، وشلوٍ ممزق، وطريح على التراب سقيم، وجسم أعرى من أديم، فإن لم تفارق الرحمة قلبك فارق المال جيبك، فطفت مع الطائفين، وتسولت مع المتسولين، ثم لا تجد لك راحمًا ولا معينًا، فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك، ولا تنسَ أن تردد في صباحك ومسائك، وفي مستأنف خطواتك، وفي أعقاب صلواتك، كلمة ابن الزيات: «الرحمة خورٌ في الطبيعة.»

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لها فوك، ورقصت لها أشداقك، فطرت إليها، ثم وقعت على خبزها وشوائها وفاكهتها وحلوائها مثلج الصدر، ثابت القدم، ساكن القلب، طيب النفس، كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ومرارة العمر، وشبع اليوم وجوع الأبد، وأنك إنما طعمت ما في الحبالة من الحب، تأكله اليوم ليأكلك غدًا. فمن لك بالنجاة

من مضيفك إذا جاءك يومًا يتقاضاك دَينه، وقد حفت به كوكبةٌ من خلانه وصحبه، فطار لمرآه لبك، وتمشى له قلبك في صدرك، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك، فالفقر إن منحت، والعار إن منعت. وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه فسمعت وطربت، ومن طرب شرب، ومن شرب وهب، ومن وهب خرب. ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك، واكتفائك بقرصك وزيتك، وخلوتك بصندوقك في كِسر بيتك، من حيث لا تزور ولا تزار، منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك، وأقضَّت مضجعك، وأقعدتك على مثل روق الظبي خفيةً وحذارًا. فإياك والعود إلى مثلها يطُلْ غمك، ويسود عيشك، والسلام.

كتاب يأس

كتابي إلى سيدي ومولاي، والنفس بين جنةٍ من الأمل تَغَنُّ أشجارها، وترن أطيارها، وتشتجر أغصانها، وتعتنق غدرانها، وهاجرةٍ من اليأس تتلظى نارها، ويعتلج أوارها، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره، قرار الماء في نهاية منحدره. وحالي كحال هذه الدنيا، تضطرب ما بين فرحٍ وهم، وسرورٍ وحزن، وقبض وبسط، ومد وجزرٍ، أذكر الله ورحمته وإحسانه ورأفته وحنانه، فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر، وثغرها البارق، وجمالها الساطع، وبشرها الضاحك. ثم أذكر الدهر وصروفه، والعيش وحتوفه، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيها من عثراتٍ في الخطوات، ونكباتٍ في الغدوات والروحات، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها، والقلوب وأمانيها، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي، ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا، فليت الله يصنع لي فيمطر عليَّ قطرةً واحدةً من غيوث رحمته وإحسانه أبلُّ بها غُلَّتي، وأطفئ بها لوعتي، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سَحْري ونحري نشوبًا لا يستبقي بعده عِرقًا نابضًا، ولا نفَسًا مترددًا، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف لا هو حيٌّ فيرجى، ولا ميتٌ فيبكى.

يقولون: «ما أضيقَ العيشَ لولا فسحة الأمل!» وأقول: ما عذب الله عباده بنازلة القضاء، وصاعقة العذاب، وطاغية الطوفان، والزلزال الأكبر، والموت الأحمر، والخوف من الجوع، والنقص من الأموال والأنفس والثمرات، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل! وما ليلة نابغية ضريرٌ نجمها، حالكٌ ظلامها، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي

خيفةً وحذارًا، فوق أرض تعرف جنانها، وتحوم عقبانها، وتزأر سباعها، وتعوي ذئابها، وتحت سماء تتهاوى نجومها، وتتوالى رجومها، وتتراكم غيومها، بأسوأ في نفسه أثرًا من رجاءٍ كاذب يتردد بين جنبيه، تردد الغصة بين لحييه، لا هي نازلة فيطعمها، ولا صاعدة فيقذفها.

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها في بطون الأودية، وقنن الجبال، أن أراها ساربةً في مساربها، سارحةً في مسارحها، تتناول رزقها رغدًا من بوارق المصادفات، ومفاجآت المقادير، لا يعنيها الأسف على فائتٍ من العيش، ولا يقلقها الطمع في آتٍ من الرزق، قد قنعت من الماء بالكدر، ومن العيش بالجشب، فتساوى لديها شحمها ولحمها، وشيحها وقيصومها، وسعدها ونحسها، ونعيمها وبؤسها، فما تحفل بنوازل القضاء، ولا رجوم السماء، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها!

فمن لي بهذا العيش من عيشٍ مَثَلِي فيه كمثل رجلٍ عثرت به قدمه فسقط في جوف بئرٍ بعيد غورها، ناءٍ مكانها، فما زال يتخبط ويضطرب، ويهب ويثب، حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها، ثم تلمس أخرى غيرها، فما وجدها حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى فسقط، فخاف الغرق فعاد إلى تلمسه، فعاد إلى سقوطه، فلا هو بالغٌ رأس البئر فينجو من الموت، ولا هو بالغٌ قرارة الماء فينجو من الشقاء.

ارمِ بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا صريعًا صرعه أمله، أو قتيلًا قتله رجاؤه، أو صديقًا يشكو غدر صديقٍ كان يعده لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب عليه، أو باكيًا يبكي وليدًا كان يرجوه لمستقبل دهره ففجعته الأيام فيه، أو ساعيًا دائبًا وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها، ولا يمسك بها حتى تفلت من يديه، أو ساهرًا متململًا لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهيه من هواه ما بات ليلة شاكيًا باكيًا، داعيًا مناجيًا، لا تراه إلا عين السماء، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء.

هذه حالتي، وذلك همي، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعًا، وأفارق عشيرتي وصحبتي، ويراعي ومحبرتي؛ علَّني أجد في البعد عن مثارات الأماني ومباعث الآمال راحة اليأس، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء.

فهأنذا قابعٌ في كِسر بيتي، لا مؤنس لي إلا وحشتي، ولا أنيس إلا وحدتي، أتخيل البيت قبرًا، والثوب كفنًا، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم، لأعالج نفسي على نسيان الحياة وأمانيها الباطلة ومطامعها الكاذبة، حتى يبلغ الكتاب أجله، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك، والسلام.

الكلمات

الجرائد

لا أرى الصحف في مصر إلا ناديًا من أندية القمار، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعةً من اللاعبين قد وضعوا رءوس المصريين على مائدة اللعب، كما توضع الأكر على طاولة «البلياردو» ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها في الصباح «زيد» ويخسرها في المساء «عمرو» وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعًا، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي.

عبد الحميد

حضرت منذ أشهرٍ قلائل تمثيل روايةٍ في مسرح عربيٍّ اختتمها جوق التمثيل بنشيدٍ للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة، والرفق والإحسان، ويدعو له بسلامة عرشه، وطول بقائه. فما سمع الناس اسمه حتى هتفوا له هتافًا يصم المسامع، وصفقوا له تصفيقًا كاد يضم أضلاع «المرسح» بعضها إلى بعض. وحضرت ليلة أمس منظرًا من مناظر الصور المتحركة، فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلًا ظالمًا سفاحًا، ضعيف الهمة، ساقط النفس، زَمِن المروءة، جبانًا مستطارًا. ورأيتهم قد عمدوا إلى صورته فجعلوها مواطئ أقدامهم، ومضارب سيوفهم، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم، وابتهجوا لمرآه ابتهاجًا ملأ فضاء صدورهم، فتمشَّى في أعصاب أدمغتهم، حتى وصل إلى أعصاب أيديهم، فصفقوا له تصفيقًا شديدًا بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل.

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالمًا أو عادلًا، كريمًا أو لئيمًا، شريفًا أو وضيعًا، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقةٍ تاريخيةٍ في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم، كتابهم وشعراؤهم، علماؤهم وجهلاؤهم، هم الناس الذين يقول فيهم القائل:

والناس من يلقَ خيرًا قائلون له ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل

الشهرة

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزانًا للفضل في مصر، خصوصًا في عالم الأدب، ولن يجري الفضل والذكر في ميدانٍ واحدٍ إلا إذا سلم السباق من كيد العابث وخدعة الأريب، وأنى لنا ذلك، وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصابًا ويلصقها بنفسه إلصاقًا، وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته، وألبسوه حلته، بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه، وإمتاع وجدانه، فلا يترنم بقصائده في المنتديات والمجامع، ولا يبتاع من الصحف الأسماء والألقاب، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره، ولا يتمم ما يجده في النقص في أدبه بالغض من أدب غيره. فترى للأول في هذا البلد الساذج دويًّا كدوي الرعد، وترى الآخر مطرحًا مجفوًّا لا يؤبه له، والدر في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدرًا من جميع ما على وجه الأرض من ألواح البلور، وإن كان ملء العيون حسنًا وبهاءً، ورونقًا وماء.

فكاهة

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاقٍ معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته، ليحلق له رأسه، وكان عنده جماعةٌ من زائريه، فأجلسه على كرسي أمام مرآةٍ، وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقًا غريبًا لا عهد له بمثله من قبل، فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلةً أو مستديرة، وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أنَّ الحلاق قد أصابه مسٌّ من الجنون، فارتعش بين يديه، وخاف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تحمد عقباه، واعتقل لسانه، فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله هذا.

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثًا سابقًا بينه وبينهم: «لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس الزبون، هنا طوكيو، وهنا بور أرثر، وهنا انكسر كروباتكين، وهنا انتصر أوياما، وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي، وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان.»

وهنا أخذ يتكلم بحدةٍ وحماسةٍ عن شجاعة اليابانيين وبسالتهم، ثم أردف كلامه بقوله: «وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية.» وضرب بجمع يده أمَّ رأس الزبون، فقام صارخًا يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين، والروس واليابانيين، والناس أجمعين!

لا أعلم إن كان المحدث هازلًا أو مجدًا، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل.

الأقسام

لا أعرف فرقًا بين حنث الحانث في يمينه، وكذب الكاذب في حديثه، كلاهما ضعيف المنة، وكلاهما ساقط الهمة. وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقًا، كذلك لا يستطيع الحانث أن يكون بارًّا، وناقض العهد أن يكون وفيًّا. فخداعٌ من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن في مواقف الأقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف، وأنه يتحرج في الحنث ما لا يتحرج في الكذب؛ فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرمًا.

الدين

أيها الناشئ، إنَّ من الناس قومًا قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين، وسلطان أمره ونهيه، فخرجوا عليه ونبذوا طاعته. ثم علموا أنَّ الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم، فلم يجدوا معذرةً يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين استثقالًا وتبرمًا، لا تقلدًا وتمذهبًا، وما هم بمنكريه ولا جاحديه. فاعلم أنَّ الله سيبتليك بهم، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه، وسيخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة، وأن تنال الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها إلا إذا تنكرت لدينك وتسلبت منه، وخفرت ذمته. فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالقٌ من هذه الخيالات الباطلة. واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس، وأنَّ الناس لا

يغنون عنك من الله شيئًا إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته، وأنَّ هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء وأنواع الآلام، والتي لا يفيق المرء فيها من غمرةٍ إلا إلى غمرة، ولا يئل من عثرةٍ إلا إلى عثرة، لا يعين عليها إلا عقيدةٌ راسخةٌ يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، وتداركت عثراته، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة

قال لي بعض الناس: «إنَّ قومًا يغرقون في مدحك فهلَّا زجرتهم؟» فقلت له: «إنَّ آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع شيئًا فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضًا، فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها.»

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان: أحدهما يتعلق بالناقد، والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان، أما الأول؛ فهو أنَّ الناقد هنالك ينتقد الكتاب من حيث ذاته، فلو لم يكن للكتاب صاحبٌ لانتقده، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه؛ أي إنه لا ينتقد الكتاب، بل صاحب الكتاب في كتابه. وأما الثاني وهو أثر طبيعي للأول؛ فهو أن للانتقاد هناك أثرًا ظاهرًا في الكتاب من حيث رواجه وكساده، وشهرته وخموله، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرًّا، فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثرٌ واحد، وهو أنَّ الكتاب جليل القدر، سني القيمة، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفلٌ؛ لذلك رأيت كثيرًا من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم في هذا البلد إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم. بل رأيت من يتوسل إلى أحد الناقدين أن ينتقد مؤلفه. بل رأيت من يبلغ به الأمر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيعٍ منحولٍ. أولئك الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا، وأثر انتقاداتهم في نفوسنا. أما الذين يغضبهم الانتقاد ويحرج صدورهم، فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئًا.

الحزم

إنَّ الدرهم الذي تمنحه لمن لا يستحقه، يخرج من يدك فلا تجده في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقه، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كأسًا يقتل بها نفسه، لا يتيسر لك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفًا يسد به جَوْعَةَ ولده.

الألم

إنَّ في كثير من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسراتٍ يدركها من عرف أنَّ الإنسان بطبيعته غافلٌ عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها، وأن الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة، نذرٌ تأتيه من عالم الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة.

الغفران

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزةً من الغرائز اللازمة للإنسان، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال؛ لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم، ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسناتهم؛ لأن الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم، فلمَ لا نغتفر ذنوب أولئك الذين ما أذنبوا إلا بعد حربٍ مستعرةٍ قامت بين عقولهم وقلوبهم، ثم سقطوا على أثرها صرعى لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا.

الدعوى

إن أردت أن تكون في الأمة الجاهلة كلَّ شيءٍ فادَّعِ لنفسك كلَّ شيءٍ، تنلْ بقولك في الزمن القصير ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل، فإن الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه!

الدين والوطن

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه؛ لأنه إن كان بنقضه عهد الوطنية غادرًا فاجرًا، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر، وإن الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان، فمن لم يحرص عليها فأَحْر به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران.

الحلم

إذا توردك متوردٌ بكلمة سوءٍ فلا تبتئس بها، فإنك في موقفك هذا بين اثنتين، إما أن يكون الرجل صادقًا فيما يقول أو كاذبًا، فإن كانت الأولى فاحمد الله تعالى على أَنْ قيض لك من أرشدك إلى عيبك، وكشف لك عن خبيئة نفسك، وإن كانت الأخرى فَارْبَأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون أن في استطاعة الأكاذيب أن تبقى طويلًا على ظهر الأرض.

الأدب

لا تكافئ السفيهَ على سفهه بمثله، فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم أنك تنقمها عليه، فإن كنت لا بدَّ منتقمًا، فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس، إذ جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جُعْلا على أن يغضبه، فما زال يسبه ويشتمه ويلح في ذلك إلحاحًا محرجًا، والأحنف ساكتٌ لا يقول شيئًا حتى ضاق بالرجل أمره، فانقلب إلى قومه باكيًا نادبًا يأكل أصبعه أكلًا ويقول: «والله ما سكت عني إلا لهواني عليه!»

الأخلاق

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرةٍ عاريةٍ لا تورق ولا تثمر، قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعترض الرائح وتصدُّ سبيل الغادي، فلا الناس بظلها يستظلون، ولا هم من شرها ناجون.

الاعتدال

بين الجبن والتهور منزلةٌ هي الشجاعة والإقدام، وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم، وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة، فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل، واعلم أنك لا تزال كريمًا حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت مسرفٌ، وأنك لا تزال حليمًا حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهولٌ، وأنك لا تزال جبانًا حتى تقاتل عن عِرضك وشرفك فإذا أنت شجاعٌ. وأن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها، أما إدراك الفروق بين مشتبهاتها ونظائرها فتلك رتبة العقلاء الأذكياء.

البر

ربما كان لك من أبويك، أو من ذوي رحمك ممن تولَّوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شئون دهره، أو عصور نشأته على أن ينال حظًّا من العلم والمعرفة مثل ما نلت، فإيَّاك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيهه، أو السخرية به، أو الإدلال عليه! فإنك إنْ فعلت خَسِرْت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم. على أنه ربما كان لكبيرك هذا — الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك — من العلم بتجارب الحياة ومقاتلها، وموارد الأمور ومصادرها ما يبهر علمك الذي تعتد به، وتدل بمكانك منه عليه، وهنالك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك، ما كان خليقًا بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب، التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر، والمدرة من القفر.

الرأي العام

ليس إجماع ألفٍ، أو عشرة آلافٍ، أو مائة ألفٍ متأثرين بشعور واحد مستمدين من روح واحدةٍ على رأي من الآراء، دليلًا على صحة ذلك الرأي؛ لأنه قد يكون رأي فردٍ واحد تأثر به الباقون تقليدًا وعدوى، ورأي الواحد مترجحٌ بين الخطأ والصواب.

الزعامة

لا يشترط في قيادة الجموع أن يكون القائد مفرطًا في الذكاء أو العقل أو الدهاء، بل يكفيه من ذلك كله شيءٌ من العلم بأذواق أتباعه وميولهم، وسبل الوصول إلى قلوبهم، لا يزيد على علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم.

الاستقلال

لا سبيل للإنسان إلى الخلاص من الاندفاع في تيار الجماعات وضلالها — مهما كان ذكيًّا أو مفكرًا — إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام إليها، أو كان له من عزيمة الرأي، وقوة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجرد حتى يصير طبيعة له، فيحضرها شاهدًا كغائبٍ، ومجتمِعًا كمنفرد.

روح الاجتماع

ليس حب الجماعة لبعض الناس وبغضهم لآخرين دليلًا على رفعة من يحبون وضعة من يبغضون، وليست جرائمهم التي يقترفونها باسم الشعور الذي يشتركون فيه دليلًا على أن من يقتلون يستحق القتل، أو من يشتمون يستحق الشتم، أو من يحتقرون يستحق الاحتقار، بل كثيرًا ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عندما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم.

الاندفاع

ليس انضمام فردٍ من أذكياء الناس وعقلائهم إلى جماعةٍ من الجماعات دليلًا على فضل تلك الجماعة، أو شرف مقاصدها، أو صحة مبادئها؛ لأنه لا يجتاز عتبة مجتمعها إلا بعد أن يخلع عقله ومواهبه مع ردائه وعصاه خارج بابه.

الشقاء

السبب في شقاء الإنسان أنه دائمًا يزهد في سعادة يومه، ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيرًا من يومه. فهو لا ينفك شقيًّا في حاضره وماضيه!

اللفظ والمعنى

لم أرَ فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلًّا منهما بصفةٍ تختلف عن صفة الآخر؛ فيقولون: «ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها رديئة!» أو «ما أبدع معاني هذه القطعة وإن كان أسلوبها قبيحًا!» كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاءٌ، وأنَّ المعنى سائلٌ من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمرًا، وتارة يكون خلًّا، ويكون حينًا صافيًا، وأخرى كدرًا، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها والخمر بنشوتها، فكما لا يجوز أن نقول: «ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها! ولا ما أعذب الخمرة وأمرَّ نشوتها!» كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك. وليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيانٌ مستقلٌ بنفسه، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأنَّ القطع الأدبية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأنَّ الذين يزعمون من الشعراء أو الكُتَّابِ أنَّ أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معانٍ شريفةٍ عالية، كاذبون في زعمهم أو واهمون.

جميع الحقوق محفوظة لشركة مركز إنسان للدراسات والاستشارات والتدريب والطباعة والنشر.